سيد محمود

محمود درويش في مصر

المتن المجهول

نصوص ووثائق تنشر للمرة الأولى

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
scanned by jamal hatmal

المتوسط

سيِّد محمود: صَحَافي مصري بمؤسَّسة الأهرام. من مواليد القاهرة 1969. حاصل على جائزة دبي للصَّحَافة العربية، فرع الصَّحَافة الثَّقافيَّة لعام 2019.

شغل عدَّة مواقع صَحَفِيَّة، منها: رئيس تحرير جريدة القاهرة التي تُصدرها وزارة الثقافة المصرية منذُ أكتوبر 2014، وحتَّى استقالته في أبريل 2017. نال الجائزة الأولى من نِقابة الصَّحَفِيِّيْن المصريِّيْن لأحسن تغطية أدبية العام 2001. عمل محرِّراً أدبيّاً ومراسلاً حُرّاً للعديد من الصُّحُف العربية، منها: الحياة/ لندن، الخليج/ الإمارات، موقع العين الإخبارية/ الإمارات. وشارك في تحكيم عدَّة جوائز، منها: الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) دورة العام 2015/2016. جائزة ساويرس الأدبية، القاهرة (عدَّة دورات)، جائزة الصَّحَافة العربية بدبي (خمس دورات متتالية)، ومسابقة شُبَّاك الفنِّ التي ينظِّمها معهد جوتة في القاهرة.

من مؤلَّفاته: ديوان « تلاوة الظِّلِّ 2013 « دار العين القاهرة 2014، وكتاب «فتنة السؤال مع الشاعر قاسم حدَّاد» (تحرير) بيروت 2007.

المتوسط

سيد محمود

محمود درويش في مصر

المتن المجهول

نصوص ووثائق تنشر للمرة الأولى

المتوسط

إلى الصديق الإعلاميِّ عَمرو خفاجي ..

.. والأسباب كثيرة

في مصرَ، لا تتشابَهُ الساعاتُ ...

كُلُّ دقيقةٍ ذكرى، تجدِّدُها طيورُ النيل.

كُنْتُ هناك. كان الكائنُ البشريُّ يبتكرُ الإلهَ/ الشمسَ. لا أحَدٌ يُسَمِّي نفسَهُ أحداً.

(أنا ابنُ النيل - هذا الاسمُ يكفيني). ومنذُ اللحظةِ الأولى تُسَمِّي نفسَكَ (ابن النيل) كي تتجنَّبَ العَدَمَ الثقيلَ.

محمود درويش

"لا تَكتبِ التاريخَ شِعْراً"

بدأت قصّة هذا الكتاب في الإسكندرية صيف يونيو/ حزيران 2003، بعد أن أحيا الشاعر محمود درويش أُمسيّة شِعْرِيَّة هناك، دَعَتْهُ إليها مكتبة الإسكندرية عقبَ انتهاء الاحتفال الذي أقامه المجلس الأعلى للثقافة، بمناسبة مرور عشرين عاماً على وفاة الشاعر أمل دنقل.

وعلى عكس أيَّام وجوده في القاهرة، جاءت رحلة الإسكندرية هادئة، خالية من الزحام، زُرْنا خلالها بعض المعالم السِّياحيَّة، وبدأْنا ببيت الشاعر السَّكندريِّ اليونانيِّ قسطنطين كفافيس.

كنَّا مجموعة صغيرة جدّاً، ضمَّت الناقد السُّوريَّ صبحي حديدي، والشاعر أحمد الشَّهاويَّ، والمطرب علي الحجَّار، الذي غنَّى بضع قصائد في الأُمسيَّة. وفي المسافة بين لقاءات ومجاملات قليلة، وَجَدْنا الوقت والمِزَاج لجلسةٍ في مقهى مجاور لفندق سيسل العريق، حكى فيها درويش عن الأيَّام التي عاشها في مصر. وكانت المرَّة الأولى التي تتجلَّى أمامي هذه السَّرْدِيَّة المُثيرة.

تحدَّث درويش، بأريحيَّة، عن الإسكندرية، وقال إنه كان يجيء إليها بشكل دَوْرِيٍّ مع أصدقاء مختلفين، ليتذكَّر بحر غَزّة، وحَكَى عن مقابلته الأولى لمحمَّد حسنين هيكل، والعلاقة مع (أحمد بهاء الدِّيْن) الذي قال إنه بمكانة الأب، والنَّاصح الأمين. كما روى تفاصيل صداقته مع صلاح جاهين، الذي كان من أقرب الناس إليه، وضحك من الخجل الذي ظلَّ

يرافقه، كلّما كان يصعد إلى شُقّته في البناية التي كان يسكنها على النيل، بعد أن عرَفَ أنَّ توفيق الحكيم يسكنُ في طابق آخر، وهي مصادفة، أربكت الاثنَيْن معاً عندما صَعِدَا إلى البناية في مصعدٍ واحد.

التفاصيل التي حَدَّثَنا بها، لأوَّل مرَّة وقتَها؛ خَلَقَتْ لديَّ حماساً لتتبُّع سيرته في مصر، وأخبرتُهُ، لاحقاً، برغبتي في الكتابة عن الموضوع، بحضور صبحي حديدي، ووَعَدَني بتقديم الدَّعْم الممكن.

توثَّقَتْ صلتي بدرويش بعد أوَّل حوار أجريتُهُ معه، ونُشِرَ في صحيفة الحياة اللّندنيّة، بتاريخ (29-12-2002). لكنَّه، ظلَّ كريماً بأكثر ممَّا يُمكن لصَحَفِيٍّ شابٍّ أنْ يتوقَّعَهُ، إذْ مَنَحَني طيلةَ سبع سنواتٍ مجموعةً من الحوارات التي أصبحت من ثروات أرشيفي المِهنِيِّ والشَّخصيِّ.

المصادفات، والرَّغبة، وثقة الأصدقاء الذين تحمَّسوا دائماً لما أقوم به، جَعَلَ تلك الحوارات تتكرَّر باستمرار، ومع الوقت، مَنَحَتْني الجغرافيا، التي كانت كريمةً معي، فرصاً للقاءاتٍ جرت في عواصم أخرى، ساعدتْ، كلُّها، على توالي إشارات الثقة والاطمئنان بيننا.

كان درويش يُبدي اهتماماً، في كلِّ مرَّة، يقرأ لي مادَّة صَحَفِيَّة، ويُعبِّر عن رأيه سواء بالسِّلب أو الإيجاب، بل يُدقِّق في كلِّ عبارة، ويُصوِّب ما يرى أنَّه بحاجةٍ إلى تصويب، ومع اتِّساع مساحةِ الثقة، فهمتُ أنَّه يهتمُّ، بحرصٍ بالغٍ، بالصُّورة التي تصل عنه إلى الناس.

***

عقب وفاتِه في صيف 2008، تحدَّثتُ إلى "أخبار الأدب" عن نِيَّتي في جمع مقالاتِه في مصر، ونشرتُ خبراً في هذا السِّياق، حرَّرتْهُ الصديقة منصورة عزِّ الدِّيْن، ثمَّ كَتَبَ الصديق الشاعر أحمد الشّهاويّ موضوعاً بارزاً عن أيَّام محمود درويش في مصر، نُشِرَ في "القدس العربي"، ثمَّ في مجلَّة "دبي

الثّقافيَّة"، تضمَّن معلومات غاية في الأهمِّيَّة حول هذه التجربة، وتصوَّرتُ أن ما كَتَبَهُ الشّهاويّ - وفيه الكثير من الجهد - كان كافياً لإغلاق الموضوع.

بعد ذلك تناقلتِ المواقعُ الإلكترونية صوراً من أيَّام درويش القاهريَّة، كانت تُعيدُ إثارة الموضوع من حين إلى آخر، وظلَّ معظم ما يُكتَب يفتقر إلى الدِّقَّة، ويبدو أقرب لمحاولةِ وَضْع إطارٍ حول لوحة، لكن أحداً لم يعبُر إلى قراءة التفاصيل ودرجات الألوان.

وبلُغة المؤرِّخين، كان ما يُكتَب في حدود المَرويَّات غير الموثَّقة، التي بالغت، أحياناً، في تقييم وتقدير الأدوار، بينما لم يقتربْ أحدٌ من متنِ الحكاية، ويجمع خيوطها، ولم يتمّ الرجوع إلى النُّصوص التي كَتَبَهَا درويش في مصر أو التي كُتِبَتْ عنه، ليَفهم السِّياق، ويُرتِّب مشاهدَ الحكاية، قبل التَّورُّط في التأويل وإصدار الأحكام.

في العام 2018، طرحتُ على نفسي سؤالاً: ما الذي يُمكن لي أن أقدِّمه في الذكرى العاشرة لرحيل محمود درويش؟ وتَجدَّد شَغَفي بالحكاية من جديد، حين قرأتُ كتاباً عن أيَّام درويش في تونس، وتساءلتُ عن أسباب عدم وجود كتابٍ مماثل عن أيَّامه في مصر.

بدأتُ التَّردُّدَ على عدَّة أرشيفات بحثاً عن الخيوط التي تُساعد على تكوين نسيج متماسكٍ عن تلك الأيَّام. واعتماداً على ما توافر في أقسام المعلومات، في مؤسَّسة الأهرام وأرشيفاتها، وفي دار الهلال، ودار الكُتُب المصرية؛ سلكتُ أوَّل الدَّرب.

وكانت الخطوة الأهمُّ في أرشيف إدارة شؤون العاملين بالأهرام، حيثُ راجعتُ مع موظَّفيها كشوفَ مُرتَّبات العاملين في الأهرام لخمس سنوات قبل أن أصلَ إلى كنز وثائقيٍّ، تضمَّن أوراقاً ومستنداتٍ، فكَّتِ الكثيرَ من ألغاز تلك السنوات، وكلُّها كانت تُنشَر لأوَّل مرَّة.

وفعلاً، نشرتُ ما توصَّلتُ إليه وقتها في مجلَّة الأهرام العربي (العدد رَقْم 1111) الصادر في 11 أغسطس/آب 2018، إحياءً لذكرى مرور عشر سنوات على وفاة محمود درويش. وهيَّأ لي، حينها، رئيسُ تحرير المجلَّة الصديق الأستاذ جمال الكشكي المساحة التي طلبتُها لنشر الموضوع، ومَنَحَني تفرُّغاً كاملاً لإنجازه. كما لم يبخل عليَّ الصديقان الشاعران؛ عزمي عبد الوهاب ومهدي مصطفى، خلال فترة الإعداد، بالنقاشات والمعلومات التي أغنت رؤيتي، وساعدتْني على تطوير أفكاري قبل الوصول إلى الصورة التي انتهى إليها، وكان غلافاً للمجلَّة، في سابقةٍ لم تحدث عبر تاريخها إلَّا مرَّة وحيدة، فالمجلَّة التي تُصنَّف كمجلَّة سياسيَّة عامَّة، لم تضع على غلافها أيَّ شخصية أدبية سوى نجيب محفوظ. ولقيَ العدد أصداءً طيِّبة في كلِّ وسائل الإعلام، وفي وكالات الأنباء، فضلاً عن اهتمام وترحيب قامات أدبية وإعلامية وإنسانية، كانت وثيقة الصِّلة بالشاعر الرَّاحل، ثمَّ أسعدَني فوز الموضوع في مارس/ آذار 2019، بجائزة نادي دبي للصحافة العربية (فرع الصحافة الثَّقافيَّة) التي تقدَّمتُ لها للمرَّة الأولى، ومن جديد أثبت لي محمود درويش أنه لا يزال سخيّاً معي.

***

لاحقاً، وبفضل مناقشاتٍ لم تنقطع حول الموضوع مع صديقي وأستاذي الإعلامي عَمرو خفاجي، ظلَّ شبحُ استكمال الحكاية قائماً، ويُلِحُّ عليَّ، فكان اقتراحه بإعادة العمل على الموضوع من جديد، ليُصبح كتاباً، يضمُّ كلَّ ما يتعلَّق بتجربة درويش في مصر، ويعتمد، بشكل رئيس، على "التوثيق". وكالعادة كنتُ أتهرَّب من إنجازه، بحجَّة الحاجة إلى مزيدٍ من الوقت، إلى أن جاءت كورونا، وأتاحت الوقت بجرعات كبيرة.

ولم يكن هناك من مفرٍّ.

***

الفكرة التي سعيتُ إلى تحقيقها هي تقديم رواية مُتكاملة، عن ظروف حضور محمود درويش من موسكو إلى القاهرة عام 1971، وأسباب خروجه منها، مع الوعي بأهمِّيَّة أن تَضع هذه الرواية في الاعتبار طبيعة التوقيت السِّياسيّ، الذي كان بالغ الدِّقَّة، فهو على الصعيد الإقليمي ارتبط بموضوع الصراع العربي الإسرائيلي، وما فَرَضَهُ من خيارات أمام الفلسطينيِّيْن في الداخل والخارج بعد نكسة يونيو/ حزيران 1967.

وعلى صعيد الدَّاخل المصري، شهدت الفترة نفسها تغييرات مِفْصَليَّة، أعقبت وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، وتولِّي السادات الرئاسة، وكانت أقرب إلى انقلاب مُتكامل، غيَّر تماماً ملامح الصورة التي أغرت محمود درويش بالمجيء إلى مصر، ومواجهة الضغوط التي تحمَّلها بعد هذا القرار.

ورَغْمَ ما تحقَّق من انتصار عسكري على إسرائيل في أكتوبر / تشرين 1973، فإن السياسة خَذَلَتِ السلاح، كما أوضح محمَّد حسَنين هيكل فيما بعد.

***

أحسب أنَّها المرَّة الأولى التي سيُتاح فيها للقارئ التَّعرُّف على مُجمل إنتاج محمود درويش في تلك الفترة، ليس فقط إنتاجه الشِّعْريّ، إنما أيضاً المقالات التي كان يكتبُها في مجال التَّحليل السِّياسيِّ، والتي تُنشَر هنا كاملة لأوَّل مرَّة، مُرفقةً بنسخةٍ طبق الأصل عن صورتِها المنشورة في صحيفة الأهرام، وفيها قدَّم الرَّاحل تعليقات حول الشأن الفلسطيني، جاءت في توقيت مُضطرب بعد أيلول الأسود 1970، ثمَّ محاولات لَمِّ الشمل الفلسطيني عقب انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة عام 1972.

تتضمَّن المقالات تحليلات مُبكِّرة حول الشَّخصيَّة الإسرائيلية والأدبِ العربي وظاهرة الخوف التي تأصَّلت بعدها. وظنِّي أنَّ هذه المقالات

ساعدت بعد ذلك على تنامي اتِّجاه في دراسات علم الاجتماع السِّياسيِّ، وعلم النَّفْس السِّياسيِّ في مصر، قام على أساس تحليل الشَّخصيَّة الإسرائيلية، ولَمَعَتْ فيه أسماء مصرية مُهمَّة، زاملَتْ درويش خلال فترة عمله بمركز الدراسات الفلسطينية في الأهرام، قبل أن يتغيَّر اسمه، ليُصبح مركزاً للدراسات الاستراتيجية والسِّياسيَّة، ومن بين هؤلاء السَّيِّد ياسين، والدكتور قدري حفني، والدكتور عبد الوهاب المسيري.

***

وبخلاف ما هو سياسي، يُبرز الكتابُ الطريقة التي كان يتشكَّل بها الشِّعْر والنَّثْر، عبر إبراز النَّماذج الأولى من كتابات الشاعر النَّثْريَّة التي تطوَّرت بعد ذلك، ودفعت نُقَّاداً لتناوُل ما يُسمَّى بشِعْرِيَّة "النَّثْر" عند درويش.

تُتيح مقالاتُه الأدبية التي نُشرَت للمرَّة الأولى فرصة التَّعرُّف على مجمل تصوُّراته الفنِّيَّة خلال تلك الفترة، وفيها يُطوِّر فكرته الشهيرة عن ضرورة تفادي الحُبِّ القاتل، كما تُظهِر نفورَه من اختزال تجربته في الشِّعْر النِّضاليِّ، وتُبرِز تصورَّاته عن سلبيات وإيجابيات المهرجانات الشِّعْرِيَّة، التي تنامت بغرض تأكيد الدَّور المُقاوِم للشِّعْر، وتُظهِر مُعظم المقالات سخريته المريرة من حال الشِّعْر في العالم العربي.

خلال تبويب الكتاب في مرحلته الأخيرة، ارتأيتُ استبعاد القصائد التي نُشرَت في مصر، أو بالأحرى عدم تكرارِ نشرها، لأنَّ قارئ درويش على علْم بها، واكتفيتُ بتوثيق تواريخ نشرها في صحيفة الأهرام.

لا يخلو الكتاب في جانبه الوثائقي من مقالاتٍ، رافقتْ تلك التجربة، ودعَّمتْ حضور درويش في مصر، وكلُّها كانت لأسماء مهمَّة، أمثال: صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، وغسَّان كنفاني، وسميح القاسم.

***

أخيراً .. ساعدتْني نقاشاتٌ أجريتُها مع الصَّديقَيْن؛ عبده وازن، وشربل داغر، ومع الناقد الدكتور محمَّد شاهين، خلال حضوري ندوة، أقامتْها مؤسَّسة سلطان العويس حول درويش (دبي، أكتوبر 2019)؛ على تطوير الكثير من الأفكار، وفَتْح مسارات أخرى في موضوع الكتاب، وقام الصديقان؛ وائل فاروق، وخالد منصور، بقراءة المسوَّدة الأوَّليَّة، والتعليق عليها، وأضافت ملاحظاتهما الدَّقيقة الكثير من الأفكار التي جَعَلَتْنِي أُغيِّر صياغة بعض الأفكار، وأُدقِّق أخرى.

وكان من نتيجة من هذه النقاشات: التفكير في المكاسب الفنِّيَّة التي حَصَدَهَا درويش خلال وجوده في مصر، فقد اعتاد النُّقَّاد على تقسيم شِعْره إلى مجموعة من المراحل، وعادة ما تسقط (مرحلة القاهرة) من تلك التقسيمات الشائعة، وهي:

- مرحلة العيش في الأراضي العربية المحتلَّة.

- مرحلة بيروت، ثمَّ مرحلة الانتقال إلى تونس، ثمَّ باريس، وبعدها جاءت النصوص الأخيرة التي كَتَبَهَا بين عمَّان ورام الله.

ما يعني أن سنوات عيشه في القاهرة تكاد تكون غير موجودة، إمَّا لأنها كانت قصيرة بالمقارنة مع السنوات التي عاشها في مُدُن أخرى، وإمَّا لأن ما نَشَرَهُ لم يكن متاحاً أو مصنَّفاً، لأنه كان ضمن رُكام من المقالات الصَّحَفِيَّة التي نَشَرَهَا آنذاك، وجاء أغلبها في شكلِ مُساجلات في الشأن الفلسطيني، ما أدَّى إلى تغييب تلك الفترة، وإسقاطها من ذاكرة النَّصِّ الدَّرويشيِّ، على نحوٍ، يجعلها ترتقي إلى درجة المتن المجهول.

وإذا كان درويش يتحدَّث دائماً عن شَغَفه بالولادات الجديدة، فإن ذلك قد يُصبح دافعاً لسؤال يطرحه الكتاب حول ما أحدَثَتْهُ مصر/ كمكانٍ جديدٍ من تحوُّلات في نصوصه الشِّعْرِيَّة؟

رأيي .. أنَّ هذه التَّحوُّلات كانت مفْصَليَّة، صَنَعَت القفزةَ الرَّئيسةَ في تجربته، ولم تجعلْها قفزة إلى المجهول. فقد تأسَّستْ شعْريَّتُهُ في مصر على قاعدة صلبة، وأُتيح له المجالُ واسعاً لاختبارها أمام مُجايليه من شعراء الموجة الثانية لقصيدة التفعيلة أمثال؛ أمل دنقل، ومحمَّد عفيفي مطر، ومحمَّد إبراهيم أبو سنَّة، وأمام الأسماء الكبيرة في جيل الرُّوَّاد أمثال صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، التي قدَّمتْ له الكثير من الدَّعم فضلاً عن الإنصاف النَّقْديِّ من قِبَل أسماء مثل لويس عوض أو رجاء النَّقَّاش وغالي شكري وعبد القادر القطّ، ما ساعده على مُساءلة نصوصه، والدَّفع بها إلى فضاءات أعمق، ثمَّ تحريرها من طابعها المباشر وأفقها الرُّومانسيِّ، وقت أنْ كان المناخ الثَّقافيُّ للقاهرة القَلِقَة حافلاً بكلِّ أشكال الغضب ونزعات التَّمرُّد الطامحة إلى ميلاد أدب جديد. وبفضلها ضخَّ محمود درويش في قلبه النابض بدماء جديدة، حتَّى إنَّ بعضهم يكاد من فَرْط رغبته في التأكيد على الأثر الحاسم لهذه الفترة في تكوينه، يرى في نجوميته الفذَّة "صناعة مصرية". فهو حين وفد إلى مصر كان هناك مسرح سياسي متكامل، وخشبة جاهزة، والكلُّ في انتظار بطل يعتلي هذه الخشبة، ويشغل المكان، لأن أصحاب المواهب الراسخة هَدَّتْهُم الهزيمة.

***

إذا كانت هذه هي مكاسب محمود درويش من التجربة، فما المكاسب التي حصَدَتْها مصر من وجوده في هذا التوقيت (العاصف والغاضب)؟

لا شيءَ سوى ممارسةِ دَوْرها الواعي بمسؤولياتها، في توقيت حَرِجٍ وحسَّاس، وهذا سرٌّ آخر من أقدارها التي يُظهِرُها هذا الكتاب.

سيِّد محمود / القاهرة / 23 أغسطس- آب 2020

الخروج

بعد نكبة فلسطين في العام 1948، واحتلال إسرائيل للأراضي العربية هناك، كان الحزبُ الشُّيوعيُّ الإسرائيليُّ هو الحزبَ الوحيدَ الذي يعمل بين العرب على أساس من الانتماء الأيديولوجي للماركسية اللِّينينيَّة، وبالتالي كان حزب الأَقلِّيَّة العربية المُضطهَدة، وليس حزباً تقليديّاً للطبقة العاملة الإسرائيلية، ما جَعَلَهُ مظلَّةً جامعةً للنسبة الأكبر من الوطنيِّينَ العرب في إسرائيل [1].

تبنَّى الحزبُ مطالبَ عرب 48، ودافع عن مصالحهم، واحتجَّ كذلك على ما يُمارَس ضدَّهم من سياسات عنصرية، شملت مصادرة الأراضي العربية [2].

ولعب الحزب دوراً فريداً في التاريخ السِّياسيِّ لعرب 48، فباتِّخاذه جانب المعارضة للسياسة الإسرائيلية، أصبح المدافعَ الرَّئيسيّ عن حقوق العرب في تلك البلاد[3].

ومع ظهور منظَّمة التحرير الفلسطينية في العام 1964، احتدم نقاشٌ

---

1) عبد القادر ياسين، مقال في مجلَّة الهلال، القاهرة، سبتمبر 2009 بعنوان " محمود درويش السّياسيّ، منشور في كتاب ميشيال سعادة، عَصيّ - على النسيان، رياض الرّيّس، بيروت 2009، ص 135.

2) عبد القادر ياسين، السابق، ص 139 -

3) صبري جريس، العرب في إسرائيل، سلسلة دراسات فلسطينية، منظَّمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، نوفمبر 1967، ص 75 -.

داخل الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي، انتهى بعد عام واحد، بخروج كلِّ الأعضاء العرب في الحزب، ومعهم نحو مائتَي يهوديٍّ شُيُوعيٍّ، شكَّلوا معاً ما عُرف باسم "القائمة الشُّيُوعيَّة الجديدة" أو "راكاح"، وكان محمود درويش عمود هذه القائمة مع زملائه من شعراء المقاومة الذين أطلق عليهم الرِّوائيُّ غسَّان كنفاني هذا الاسم.

كان درويش مقاوِماً في إسرائيل، وذاق السجون والتحقيقات أكثر من مرَّة، عمل محرِّراً في جريدة "الاتِّحاد" التي كان يُصدرها الحزب الشُّيُوعيُّ الإسرائيلي بعد أن التحق به في العام 1961، وبسبب نشاطه الواسع مَنَعَتْهُ السلطات الإسرائيلية من مغادرة حيفا طوال عشر سنوات، كان فيها رئيساً لتحرير مجلَّة "الجديد" الأدبية الشَّهريَّة التي تولَّت التبشير بمواهب فلسطينية، كان لها التأثير الأهمُّ في حركة الأدب الفلسطيني فيما بعد.

***

في العام 1966 جَمَعَ الناقد الفلسطيني محمَّد خالد البطراوي مجموعة من الصُّحُف والمجلَّات العربية التي كان يُصدرها الحزب الشُّيُوعيُّ الإسرائيلي في الأراضي المحتلَّة، وسلَّمها لغسَّان كنفاني، الذي وَجَدَ فيها كنزاً، ضمَّ نصوصاً لمجموعة من الشعراء مثل: توفيق زيَّاد، وسميح القاسم، ومحمود درويش، وكان الأخيران ضمن أعضاء الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي [4].

من مجموعة الشعراء هذه، سَطَعَ اسم درويش بعد هزيمة 1967، وتحوَّل إلى ظاهرة ثقافية، تردَّد صداها في سائر أنحاء العالم العربي. بفضل دواوينه التي توالت بغزارة، وانتشرت عربيّاً. فقبل خروجه من الأراضي الفلسطينية المحتلَّة سنة 1970، كان قد نَشَرَ خمس مجموعات شِعْرِيَّة

4) عبد القادر ياسين، مقال بعنوان "محمود درويش السِّياسيّ في عدد مجلَّة الهلال، سبتمبر، منشور في كتاب ميشال سعادة - عَصِيّ على النسيان، رياض الرَّيِّس، ص 135، بيروت، 2009.

(أوراق الزيتون 1964، عاشق من فلسطين 1966، آخر الليل 1969، العصافير تموت في الجليل 1969، حبيبتي تنهض من نومها 1970). واشتهرت من قصائد تلك المرحلة (سَجِّل، أنا عربي، أحنُّ الى خبز أُمِّي، جندي يحلم بالزنابق البيضاء، وطني يُعلّمني)[5].

وطوال وجوده في حيفا، كانت هناك أكثر من إشارة تُظهر تقدُّمَهُ الفنِّيَّ على رفاقه الذين وَضَعَهُم، معه، غسَّان كنفاني في مقالاته التَّبشيريَّة.

وكما لاحظ شربل داغر فإن فوز درويش بجائزة "اللوتس" التي يمنحها اتِّحاد كُتَّاب آسيا وأفريقيا، المشمول برعاية سوفيتية آنذاك، في العام 1969؛ كان هو الإظهار الخارجي الأوَّل لتصدُّره "شعراء المقاومة"، ولبداية "لمعان" الاسم عربيّاً وعالميّاً[6].

كان انضمام درويش إلى وفد الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي المسافر إلى مهرجان الشبيبة في صوفيا، عاصمة بلغاريا، في العام 1968؛ أحد مظاهر هذا التكريس "الخارجي". لكنّه، جَلَبَ معه الكثير من المتاعب التي تَرَكَتْ آثارها في نَفْسيَّة الشاعر الشَّابِّ، وحَكَمَتْ تصوُّراته فيما بعد، وطَرَحَتْ عليه أسئلة بشأن معنى الكتابة عن "الوطن المحتلّ" في "الوطن المحتلّ"، وبالتالي قادتْهُ لطَرْح السؤال عن إمكانية الخروج.

***

ووَفْقاً لما ذَكَرَهُ محمود الزيباوي[7]، ففي منتصف آب/أغسطس 1968،

5) مقال لصقر أبو فخر بعنوان درويش وبيروت، الخيمة والغيمة والنجمة، في كتاب "عَصِيّ على النسيان" تحرير ميشال سعادة، رياض الرَّيِّس، بيروت، طبعة أولى 2008، ص -53.

6) شربل داغر: محمود درويش يتذكَّر في أوراقي (أكتبُ، لأنني سأعيش)، مؤسَّسة سلطان العويس، دبي، 2019، طبعة أولى، ص 111.

7) محمود الزيباوي، مقال على موقع صحيفة المُدُن الإلكترونية بعنوان: بدايات محمود درويش وزمن التخوين، الجمعة2017/08/11.

نَشر ملحق صحيفة "النهار" في لبنان مقالةً من توقيع الكاتب خليل خوري، تعكس صورة الشاعر في هذه المرحلة من حياته، وكان عنوانها العريض: "يُقاوِم بالشِّعْر، ويُغنِّي مثل لوركا".

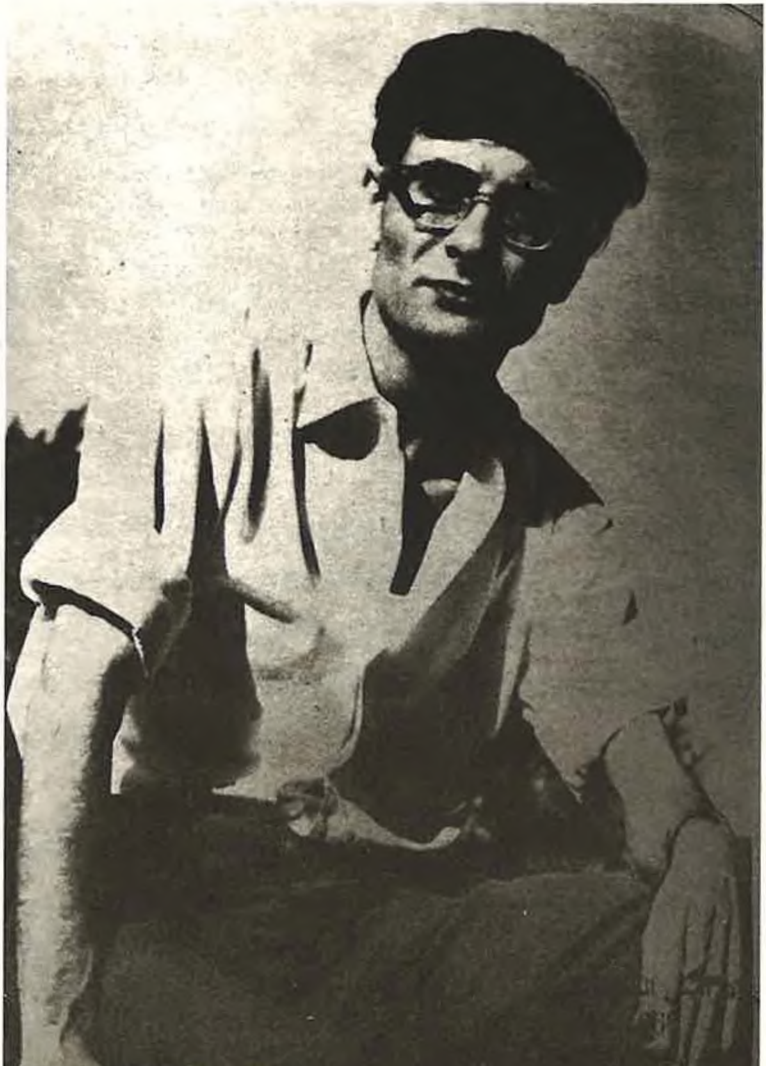

درويش في الأراضي المحتلّة

رأى خوري أن درويش "استطاع أن يتجاوزَ نفسه، وأن يطوِّر فنَهُ الشِّعْريَّ، في فترة قصيرة جدّاً، وأن يرسيَ دعائم فنِّه على ركيزَتَيْن مَتينَتَيْن من عمقٍ وبساطةٍ في آنٍ معاً". مُعتبراً أنَّه "في طليعة شعراء المقاومة في الأرض المحتلَّة، من حيثُ وفرة إنتاجه، وفرادة صوته أم من حيثُ وضوح رؤياه".

أشاد خوري بحماسة بالغة بتجربة الشاعر الفلسطيني الشَّابّ، وقال: "عند محمود درويش لا تأمُّل للحياة، بل الحياة نفسها، لا التصفيق للمقاتلين، بل خوض المعركة، لا حافَّة الرصيف، بل السير في زحام الشارع، هي وحدها التي تمنح الشِّعْر مذاق الدم والوجود، هي وحدها المكان الذي يجدر بالشاعر أن يحتلَّه. بهذا الفَهْم الأيديولوجي يدخل محمود درويش جرن العمادة، ليُعمِّد نفسه شاعرَ فِعْل، لا شاعرَ تجريدات ذهنية، شاعراً يرفع التاريخ على مَنْكِبَيْه".

وفي ختام مقالته، كَتَبَ: "بهذا الإصرار وبهذه الشفافية، وعلى وعيٍ لموقفه من التاريخ، يُشيِّد محمود سليم درويش عالمه، ويأتينا عبر الحدود صوتاً حبيباً واعداً بالكثير من الغناء الحلو المرِّ. غناء الثائر نازف الجراح، لا غناء حامل الرباب المطرب اللَّامبالي. وعلى ما يعتور لغته أحياناً من وَهَنٍ أو من خروج على الأساليب والقواعد، فإن موهبته تُعوِّض هذا النَّقْص الذي قد يكون من أسبابه بُعْد الشاعر عن الأجواء التي تُسدِّد لُغته".

***

لم يستمرّ الحماس لشِعْر درويش طويلاً بعدما أعلنت الصُّحُف أنه سيكون ضمن أعضاء الوفد الذي خَرَجَ من إسرائيل للمشاركة في مؤتمر ومهرجان الشبيبة المنعقد بصوفيا. خلال الفترة من (25 يوليو / تمّوز حتَّى 2 أغسطس/ آب 1968)، وذكرت صحيفة "الدستور" الأردنية أن درويش سيشارك بصفته عضواً في وفد إسرائيل الشَّعبيِّ إلى المهرجان، وبصفته، كذلك، عضواً في الحزب الشُّيوعيِّ الإسرائيلي.

بعدها بأيّام قليلة، نَشَر ملحق جريدة "النهار" اللُّبنانيّة، مقالةً تُندِّد بدرويش وشِعْره، وقَّعها جان داية، العضو في الحزب السُّوريِّ القومي الاجتماعي، وشكَّك المقال بمصداقية تجربة محمود درويش، النِّضاليَّة والشِّعْرِيَّة.

وقد نَقَلَ الزيباوي منها فقراتٍ، قال فيها داية: "ما يلفت النظر في مقالة خليل خوري بالدرجة الأولى "الإلحاح اللجوج على مسألَتَيْن: ثورية الشِّعْر الدَّرويشيِّ، وثورية الشاعر الذي تحوَّلت الكلمة عنده إلى فعل [8]، معتبراً أن مقالة الخوري "هي الحلقة بعد الألف من سلسلة الدراسات التي انعقدت منذُ أشهر في الصُّحُف والإذاعات حول محمود درويش بشكل خاصٍّ، وشعراء الأرض المحتلَّة بوجه عامٍّ".

واستدرك متسائلاً: "إذا كان الشِّعْر ذاته يكفي للدلالة على مضمونه، فهو غير كافٍ لإثبات تجسيد الشاعر لهذا المضمون. وبعبارة أخرى، إذا أنشد محمود درويش "إنني مندوب جرح لا يُساوِم/ علَّمتْني ضربةُ الجلَّاد أن أمشي/ على جرحي/ أمشي وأقاوم"، فلا يعني ذلك، بالضرورة، أن الشاعر قد مشى وقاوم، ولم يُساوِم. يقتضي لإثبات تجسيد الكلمة، أن نتقصَّى حياة الشاعر العامَّة تقصِّياً دقيقاً، ومن بعد نستطيع أن نعطيَ جواباً أكيداً، يُثبت بما لا يقبل الجَدَل ثوريَّته الحقيقية أو دَجَلَهُ".

مضى جان داية في هذا التحليل، معتبراً أن النَّاقد خليل خوري - الذي تحمَّس لدرويش - لم يأتِ صوب هذا الشاهد الأساسي، "بل اكتفى بشاهدٍ طالما يشهد زُوْراً هو الشِّعْر، فصدَّقه بحماسة، ولم يحسبْ حساباً للمفاجآت التي كانت واحدة منها مفاجأة اشتراك درويش في الوفد الشُّيْوعيِّ الإسرائيلي".

---

8) محمود الزيباوي، مقال على موقع صحيفة المُدُن الإلكترونية بعنوان: بدايات محمود درويش وزمن التخوين، الجُمُعة2017/08/11 -

و"هذا الحَدَثُ الخطير"- بتعبيره - "إذا صحَّ ما وَرَدَ فيه، وليس حتَّى الآن ما ينفي وقائعه المذهلة، يُكرِّس محمود درويش "وهْماً"، تكوَّنت عناصره من مئات القصائد العَنْتَرِيَّة، ليأتيَ موقفه (الخياني)، ويُبدِّد ذلك الوَهْم. ويكون الذين اشتركوا في حياكة تلك الهالة الأسطورية حول اسمه، أمثال خليل خوري قد تسرَّعوا في التقييم لجهة عدم دَرْس الشاعر، بدءاً من حياته ومواقفه مكتفين بإنتاجه الشِّعْرِيِّ فقط، ولم يفسحوا، بالتالي، فرصة للزمن، المعلِّم الذي لا يُخطِئ، ليقول كلمة الفَصْل".

وواصل داية الهجوم متسائلاً: "مَنْ يدري؟ قد يكون الأخطبوط الصِّهيونيّ تمكَّن من محمود درويش بعد غسلِ دماغٍ بارعٍ، فأصبح درويشاً آخر. لكن الخيانة لا ترحم. وهي ليست انهزامية ثانوية طارئة ممكن أن تُحذَف من تاريخ مقترفها المجيد. إنها الفعل الوحيد الذي لا يحتمل أسباباً تخفيفية. والشاعر الخائن يحكم على نفسه وشِعْره بالحَرْق حتَّى الموت".

***

هكذا وُصِفَت مشاركة درويش في مؤتمر الشبيبة بـ "صوفيا" قبل أن يبدأ المؤتمر، في مقابل مكاسب كثيرة، تحقَّقت له؛ فقد أتاح له المؤتمر فرصة الخروج لأوَّل مرَّة من إسرائيل بصفة الشاعر، إذْ كان ضمن أفراد وفدٍ غير رَسْميٍّ، تمَّت دعوته لحضور المهرجان، كما مكَّنه ذلك من إجراء أوَّل تُواصُل مباشر مع أعضاء الوفود العربية المشاركة، وهي مسألة جَلَبَتْ، كذلك، متاعب كثيرة.

***

يحكي رجاء النَّقَّاش في كتابه عن شاعر الأرض المحتلَّة [9]، كيف رَفَضَتْ إدارة مؤتمر ومهرجان الشباب في صوفيا، اشتراكَ أيِّ وفد رَسْمِيٍّ من

9) رجاء النَّقَّاش، محمود درويش، شاعر الأراضي المحتلَّة، دار الهلال 1969، ص 312 -.

مع الشاعر مهدي الجواهري في صوفيا

إسرائيل بناء على طلب الوفود العربية المشاركة فيه، حيثُ قَطَعَتْ بلغاريا علاقاتها الرَّسْمِيَّة مع إسرائيل في أعقاب عدوان 1967، لذلك قبلت إدارة المهرجان مشاركة وَفْد شعبي، لا علاقة له بالسلطات الإسرائيلية الرَّسْمِيَّة. وتكوَّن الوفد من أعضاء في الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي، وآخرين كان معظمهم من الشباب العربي في الدَّاخل، من بينهم محمود درويش، وسميح القاسم.

دَافَعَ النَّقَّاش، فيما كَتَبَهُ آنذاك، عن خروج الشَّاعرَيْن معاً من حيفا إلى صوفيا، بغَرَضٍ حدَّده بوضوح في جملة (خدمة القضية الفلسطينية عبر التواصل مع شباب العالم والشباب العربي)، لكنَّ صُحُفاً عربية، قادت حَمْلَةً ضدَّ هذا الوفد، وزعم البعض وجود صورة لدرويش، وهو يقف رافعاً العَلَمَ الإسرائيلي في هذا المهرجان، وهي صورة لم يرَها أحد.

في حوار له بعد تلك الواقعة بعدَّة سنوات، برَّر درويش مشاركته

على باخرة متَّجهة إلى صوفيا، أرشيف سهام داوود

بالقول: "مَنْ يعتبر قبولي الاشتراك مع وفد رَفَعَ العلم الإسرائيلي تُهمة، فإنَّه مَدعُوٌّ لأن يكون منطقيّاً حتَّى النهاية، عليه أيضاً أن يعتبر وجودي في إسرائيل تهمة، أنا لستُ مذنباً، لأني أحمل هُوِيَّة إسرائيلية، إذ لا يمكن لي أن أعيش في إسرائيل وأنا أُمزِّق العَلَمَ الإسرائيلي، فالمسألة، إذنْ، لها جانبان، إذا كنتُ أريد أن أتخلَّص من العَلَم الإسرائيلي وهو لعنة أُمَّتي، فأمامي سبيل واحدة هي؛ أن أغادر المكان الذي يرفرف في سمائه هذا

العَلَم، وهذا العَلَم يرفرف على كلِّ فلسطين في الأرض المحتلَّة: فهل نطالب المواطنين الذين يعيشون في الأراضي المحتلَّة أن ينسحبوا من وطنهم هرباً من ظلِّ هذا العَلَم؟!

وتابع: "التهمة تضمَّنت القول إنني رفعتُ العَلَم الإسرائيلي في صوفيا، وهذا القول خطأ ومرفوض، وتتضمَّن هذه التهمة قولاً آخر، هو: إنني سرتُ تحت ظلِّ العَلَم الإسرائيلي، وهذا أيضاً ليس بصحيح، فالوفد الإسرائيلي كان كلّه من اليساريِّيْن، ومؤلّفاً من 60 شخصاً، ولم أكن عضوا في هذا الوفد، إنما اشتركتُ بناء على دعوة جاءتْني من رئاسة المؤتمر، فهل أردُّ على هذه الرئاسة الدَّوليَّة معتذراً، بحجَّة أنني أرفض الاشتراك مع وفد، يحمل العَلَم الإسرائيلي؟! إنني أسأل فقط [10].

***

ظلَّ السِّجال حول دوافع مشاركة درويش في مهرجان الشبيبة بصوفيا حارّاً، وتضمَّنت المقالات التي عالجت هذه المسألة الكثير من العبارات الحادَّة التي كانت سائدة خلال تلك السنوات، ربَّما لأنَّ جرح هزيمة يونيو / حزيران كان لا يزال ساخناً.

وعلى الرَّغْم من ذلك، فإن بعض الأصوات "الهادئة" حاولت البحث عن مخرج، والتعاطف مع حالة أبناء الأراضي المحتلَّة، فبعد عام من انتهاء مؤتمر صوفيا، عاد ملحق "النهار" لطرح إشكالية هُويَّة الشعراء العرب المقيمين في إسرائيل، من خلال مراجعة نَقْدِيَّة لكتاب "ديوان الوطن المحتلّ" للمؤلِّف يوسف الخطيب، نُشرت في 9 شباط/ فبراير 1970، وقدَّمها محمَّد الشَّاميّ، ملاحِظاً أن مؤلِّف الكتاب: "تناول موقف العرب من شعراء الوطن المحتلِّ، وموقف هؤلاء أنفسهم من مأساتهم"، وتبيَّن له

10) مازن النقيب، حوار مع هؤلاء، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة 1996. الحوار بدون تاريخ، ص 192 وما بعدها.

أنهم يعانون "فجيعة أساسية" تتمثَّل في كونهم "وُجدوا ضمن ظروف، لا تسمح لهم بالتعبير عن نقمتهم ورفضهم الاحتلال إلَّا من خلال الحزبية"، و"أكثرهم منتمون إلى الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي".

وهكذا ردَّ محمَّد الشّاميّ بشكل مباشر على ما طَرَحَهُ الكاتب السُّوريُّ جان داية، وطَرَحَ السؤال التالي: "هل يمكن أن نُبرِّر لشعراء الوطن المحتلِّ، لأكثرهم، اندماجهم في الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي كنافذة على المقاومة؟!".

سؤال محرج، لا شكَّ. لكنَّ ما يقوله الشّاميّ "يبدو أنه لا بدَّ الآن من المرور بهذه المرحلة. وعلى ذلك، يجب ألا نقسوَ في الحُكْم، كما حَدَثَ للبعض، بالنسبة إلى محمود درويش وسميح القاسم" [11].

***

وفي أكثر من مناسبة، كان درويش وسميح يستدعيان مرارة التجربة، بغرض التذكير بذلك المناخ في رسائلهما المتبادَلة على صفحات مجلَّة "اليوم السابع" الباريسية قبل نَشْرها بعد ذلك في كتاب.

كَتَبَ درويش إلى سميح: "قُلْ شائعتَكَ، وامشِ، هذا هو شعار العاطلين عن التعايش مع أحلامنا المغدورة، هل تَذكُر، يا سميح، تلك الفِرْيَة الدَّمويَّة التي روَّجها خصوم فكْرنا وشِعْرنا قبل عشرين عاماً، يوم أن سافرْنا إلى صوفيا لملاقاة الإخوة الذين انتظرناهم ثلاث حروب، فازدادوا بُعْداً؟ هل تذكر كيف كَتَبُوا أنهم شاهدونا، أنتَ وأنا، نرفع العَلَم الإسرائيلي في شوارع صوفيا؟

لقد ضحكْنا في البداية من سماجة النُّكْتة، ثمَّ بكيْنا حين أدركْنا أن تلك الفِرْيَةَ السوداء ما زالت تلاحقنا إلى الآن، وتجد مَنْ يُصدِّقها [12]".

11) محمود الزيباوي: المرجع السابق.

12) محمود درويش وسميح القاسم: الرسائل، طبعة دار العودة، بيروت، طبعة 1990، ص 100.

وردَّ القاسم: "يوم خرجْنا إلى صوفيا، مفعمين بشهوة العناق، قعدْنا، وفي ظَهْرنا سكِّين الشائعة الدامية، وما دُمنا نذكر، فسنذكر دائماً وأبداً تلك الوقفة النبيلة التي اكتشفَها آنذاك رفيقنا وحبيبنا وشهيد قضيَّتنا غسَّان كنفاني الذي لم ينتظر التفاصيل، بل أدركَها بحسِّه الوطني السليم، فهَبَّ مدافعاً عن جناحَي الشِّعْر القادم" كما لقَّبَنا مشكوراً إلى دهر الداهرين [13].

13) محمود درويش وسميح القاسم: الرسائل، طبعة دار العودة، بيروت، طبعة 1990، ص 104.

ماذا جرى في صوفيا؟

طَوَالَ فترة انعقاد مؤتمر الشبيبة في صوفيا، حَدَثَتْ محاولات للتواصل مع الوفود العربية، من جانب محمود درويش وسميح القاسم، إلّا أنها قُوبِلَت بـ "العداء والتّعصُّب الأعمى". كما يروي الناقد اللُّبنانيُّ الراحل محمَّد دكروب، الذي كَتَبَ بأنه قد تبيَّن لاحقاً أن هذا التَّعصُّب يسيء ليس فقط إلى الشّاعرَيْن المقاوِمَيْن، بل للقضية العربية عموماً، وللشعب الفلسطيني نفسه في الأساس. ويحكي دكروب تفاصيل مقابلة، جرت بينه وبين الشّاعرَيْن في حضور إلياس شاكر وزوجته، ويقول: "تقصَّدْنا أن نذهب إلى المبنى، حيثُ محمود درويش وسميح القاسم، وتبيَّن أنهما يعرفان عنّا، كما نعرف نحن عنهما الشيء الكثير. وقال دكروب موجِّها حديثه لدرويش: "يا محمود، أنتَ أسطورة عندنا"، فردَّ بحياء مغلَّف بسخرية ناعمة، وقال: "أنا إنسان عاديٌّ جدّاً، ما أقوم به يقوم به الكثيرون، ولكن صوتي كشاعر يصل إلى مسافات أبعد [14]".

ويذكر القياديُّ اليساريُّ المصريُّ الراحل رفعت السعيد في شهادة له [15] أن درويش حاول الاتّصال بالوفد المصري، من خلال فؤاد نصّار، أمين عامِّ الحزب الشُّيُوعيِّ الأردني، وأبدى رغبته في أن يُلقيَ أشعاره أمام المصريِّيْن، لكن طَلَبَهُ رُفِضَ تماماً، خوفاً من أن يكون الرجل من حاملي

14) مقال محمَّد دكروب بعنوان " هذا الشِّعْر لي. ضمن كتاب: "عصيّ على النسيان"، مرجع سابق، ص75.

15) يوسف القعيد، مشاهد مصرية، محمود درويش، صحيفة الرأي الكويتية: 26 أغسطس 2008 -.

جواز السَّفَر الإسرائيلي، وإن لم يمنع ذلك من حدوث لقاءات فردية، إمّا مصادفة أو عبر ترتيبات.

ويشير الكاتب الفلسطيني عبّاس زين الدّيْن، فيما نَشَرَهُ تحت عنوان "ذكريات من سنوات السِّتِّين: مع محمود درويش تحت خيمة واحدة"، إلى أن عضو الوفد المصري الكاتب البارز يوسف السّباعيّ، وأقوى رموز المؤسَّسة الثّقافيّة الرَّسْميَّة في مصر قال لمحمود درويش عندما التقى به في صوفيا: "أنتَ محمود درويش؟ فكّرتَكْ سمين، وصاحب شَنَب!!" [16].

***

يبدو أن موقف الوفد المصري كان الأكثر مرونة بين مواقف بقية الوفود العربية المشاركة، فقد كان الوفد السُّوريُّ أكثر تشدُّداً، وكما كَتَبَ وزير الإعلام الأردني السابق صالح القلّاب [17]، وَجَدَ الشاعرُ عداءً مكشوفاً من قِبَل وفد حزب البعث السُّوريّ.

في رسائله مع سميح القاسم نهاية الثّمانينيّات، يُعطي درويش إشارات كاشفة عن حجم الألم الذي استشعره من موقف الرِّفاق العرب، وكَتَبَ يقول: "هل تذكر كيف كان أشقّاؤنا العرب يخطفوننا سرّاً، ويحيُّوننا سرّاً، خوفاً من عرب آخرين، أدانوا بقاءنا هناك في بلادنا، وطالبونا بأن نُنهيَ هذا التناحر الضاري بين هُويّتنا، وشروط شِعْرنا بأن نتخلّى عن جواز السَّفَر أو وثيقة السَّفَر؟

كانت تلك الرحلة سَفَراً، لأننا كنّا عائدين مُحمَّلين بفرح الامتداح العربي؟ [18]

---

16) منشور على الموقع الإلكتروني https://haifanet.co.il/archives/3907?fbclid=Iw-AR0Lco5sYysvIkIGd0bTKOKO2J7qL6ALXiWYcHFYmcPlfDdqw91cIp8wIec

17) صالح القلّاب، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، أغسطس 2008 -.

18) محمود درويش وسميح القاسم: الرسائل، طبعة دار العودة، بيروت، طبعة 1990، ص 126.

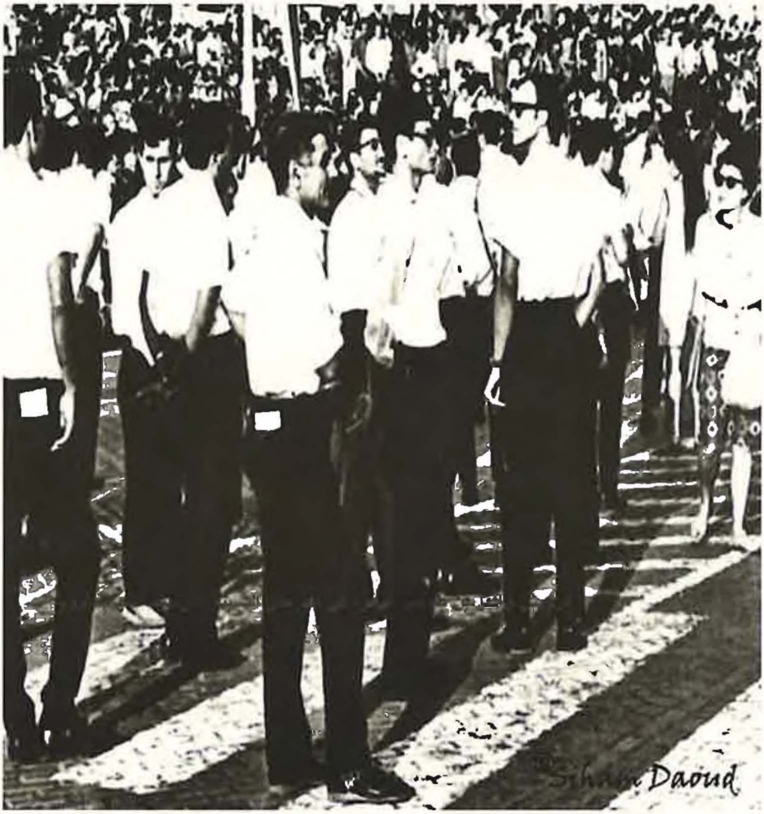

درويش خلال مشاهدة عروض الوفود في مؤتمر صوفيا، أرشيف سهام داوود

توالت بعد مؤتمر صوفيا ردود الأفعال التي تُجرِّم التعامل مع درويش، فقد صَدَرَ في دمشق قرارٌ رسْمِيٌّ بمَنْع قصائده ودواوينه الشِّعْرِيَّة من التداول، وقام حزب البعث بفَصْل الكاتب الفلسطيني فيصل حوراني من عضويَّته، لأنه تجرَّأ واتَّصل بشبيبة الحزب الشُّيوعيِّ الإسرائيلي (راكاح)، ولأنه التقى هذا الشاعر الفلسطيني وزميله سميح القاسم، على هامش ذلك المهرجان.

روى لي حوراني تفاصيل ما جرى، مؤكِّداً أنه التقى بدرويش سرّاً بصحبة أعضاء آخرين من الوفود العربية، وخلال اللقاء اقترح حوراني أن يلتقيَ

درويش أيضاً مع الشاعر السُّوريِّ علي الجندي، لأنه كان صاحب فضل تعريف المثقَّفين السُّوريِّيْن على شِعْر المقاومة الفلسطينية في برنامج إذاعي، كانت تُقدِّمه إذاعة دمشق، ووافق درويش، في حين طَلَبَ علي الجندي أن تأتيَ مبادرة اللقاء من قِبَل الشاعر الفلسطيني حتَّى لا تُحسَب عليه.[19]

***

يقول حوراني: "رَغْمَ أن درويش تأذَّى من مقاطعة الوفد السُّوريِّ المشارك في المؤتمر، فإنه وافق على أن يُبادر باللقاء (سرًّا) مع علي الجندي، ثمَّ حَدَثَتْ مفارقة، تعكس الأجواء الساخنة لفكرة "المقاطعة"، فقد تلقَّى الجندي اتِّصالاً من درويش خلال تناوُل وجبة الغداء بالفندق، لكن الجندي خاف مِن أنْ يقومَ للرَّدِّ على الهاتف، لكي لا يُسجَّل هذا الموقفُ ضدَّه.

عانى درويش الكثير خلال أيَّام المؤتمر بسبب ما شاع عن "جنسيته الإسرائيلية". وبَدَتْ محاولاته للتواصل مع أغلب المشاركين العرب "شبه مستحيلة"، وتشبه الإمساك بـ (الأسلاك العارية) التي لن يؤدِّيَ الاقتراب منها إلَّا إلى "صاعقة" أو "صدمة" أو "أزمة" في أقلِّ تقدير.

كانت الأجواء التي أعقبت هزيمة (يونيو/ حزيران 1969) تُصعِّب مهمَّة أيِّ كاتب أو سياسي عربي يفكِّر في اللقاء مع أيِّ قادم من الأراضي المحتلَّة، حتَّى لو كان شاعراً عربيّاً تتسابق الصُّحُف العربية على نَشْر شِعْره!

رَغْمَ ذلك، قاوم بعضُ أعضاء الوفد المصري موقف الوفد السُّوريِّ برئاسة سهيل مهنّا، الداعي إلى مقاطعة عربية شاملة لمَنْ جاؤوا من العرب ضمن وفد الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي، وكان درويش هو الأبرز بين مَن

19) مقابلة شخصية مع حوراني في القاهرة، أكتوبر 2018.

استهدفتْهُم فكرة المقاطعة. في حين كانَ لأغلب أعضاء الوفد المصري تصوُّر آخر، يقوم على التواصل مع درويش، الذي كان (نجماً) بالنسبة للغالبية، لأن عملية نَشْر نصوصه الشِّعْريّة كانت قد تواصلت في أعقاب نكسة يونيو/ حزيران، وتمَّ تداوُلها على نطاق واسع.

عمليات التبشير

طوال رئاسة الرئيس جمال عبد الناصر لمصر (1956-1970) كانت قضية فلسطين هي القضية المركزية في خطابه السّياسيّ، عربيّاً ودوليّاً، كما كانت مكوّناً أساسيّاً في خطاب القومية العربية الذي روّج له، مستهدفاً التأثير في الشعوب العربية، حيثُ لعبت إذاعة صوت العرب دوراً بارزاً في ذلك، وكانت سنوات الوحدة المصرية السُّوريّة (1958-1961) - كما يؤكّد أحد الباحثين - هي الأعلى في التركيز على البُعد القومي والخطاب الشّعبويّ، لكنّ فشل الوحدة جاء كضربة قاصمة للمشروع النّاصريّ، وبدأ النظام المصري بعدها يُخفّف من حدّة خطابه القومي، وسعى أكثر إلى التمايز عن باقي التّيّارات القومية التي بدأت تظهر في المنطقة مثل تيّار البعث، وربّما كان هذا التّحوُّل والسَّعْي إلى التمايز هما ما جَعَلا مصر أكثر عرضة وقبولاً للضغوط العربية، من أجل التصعيد في الأيّام التي سبقت حرب يونيو / حزيران 1967.

وعقب الهزيمة، تراجع ذلك الخطاب الشّعبويُّ الوحدوي، وتحوَّل إلى خطاب مَعنِيٍّ بالأرض وتحريرها، وهو ما انعكس بشكل عمليٍّ في دَعْم غير مسبوق للمقاومة الفلسطينية ورموزها [20].

وأظهرت جميع وسائل الإعلام المصرية صوراً مختلفة لهذا الدَّعْم،

---

20) محمّد العجاتي بحث بعنوان: الناصرية والهزيمة: انتكاسة أم انهيار للمشروع العربي؟ منشورة في كتاب، تشريح الهزيمة، حرب يونيه 1967 بعد خمسين عاماً، تحرير خالد منصور، القاهرة 2017، طبعة دار المرايا، ص81 -.

وكانت مطبوعات مؤسَّسة دار "الهلال" خلال تولّي الكاتب أحمد بهاء الدّيْن رئاسة مجلس إداراتها، من بين المؤسّسات الإعلامية الأكثر اهتماماً بالقضية الفلسطينية، وبالإبداع الفلسطيني ومكوّناته، وفي مقدّمتها الشّعْر الذي كان الأكثر جماهيرية.

فَتَحَ بهاء الدِّيْن كلَّ صفحات مطبوعات الهلال أمام المبدعين الفلسطينيِّيْن، وتولّى الكاتب الفلسطيني غسَّان كنفاني التبشير بمحمود درويش، وقدّمه في مصر لأوّل مرَّة هو وغيره من "شعراء الأرض المحتلّة"، توفيق زيَّاد، وسميح القاسم، وسالم جبران، وفي عدد مجلَّة "المصوّر" الصادر بتاريخ (1967/5/2). نقرأ مقالاً تحت عنوان "محمود سليم درويش شاعر المقاومة الفلسطينية" [21]، وهو أوّل مقال يُؤرِّخ لظهور اسم محمود درويش في مصر.

بدأ كنفاني المقال بتناوُل قصيدة درويش "بطاقة هُويّة" التي باتت معروفة أكثر بأوّل سطر فيها: "سَجِّلْ، أنا عربيّ"، وأنهاه بقوله: "إن محمود درويش يُمثِّل علامة طليعية بين رفاقه الشعراء العرب في الأرض المحتلّة، وقد وَضَعَهُ شِعْره الحادُّ في حرب مع العدوّ، حُورِبَ فيها برزقه أوّلاً، ثمّ أُبعدَ عن قريته، ثمّ وُضِعَ في السجن، ومن داخل ذلك السجن، كَتَبَ أجود شعْره وأكثَرِه عنفاً وتحدِّياً".

تؤكّد الكاتبة والناقدة المصرية صافي ناز كاظم، في حديث معي، أنها سمعت مصطلح "شعراء الأرض المحتلّة" لأوّل مرّة من فم غسّان كنفاني مطلع عام 1967 حين كانت في بيروت، تحضر مؤتمراً هناك، وكان غسّان يتكلّم فرحاً بَشُوشاً متوقّداً بالبلاغة والحماسة والتّأثُّر، حول بحْثه وكَشْفه ووسائله الفدائية، ليحصل على قصائد "شعراء الأرض المحتلَّة [22]".

---

21) مجلّة المصوّر بتاريخ 1967/5/2.

22) حديث جرى عبر الهاتف مع صافي ناز كاظم في يوليو 2018.

محمود سليم درويش

مقال غسَّان كنفاني، محمود سليم درويش

ويقول بفخر؛ إنهم البرهان الماديُّ لمقاومة الفلسطيني الذي ظلَّ على أرضه، ولم يبرحْها منذُ اغتصابها عام 1948، لم ينسَ اللغةَ، ولم ينسَ الحقَّ، ولم ينسَ ... إلخ. وظلَّ غسَّان يعدِّد مناقب الذين لم يبرحوا الأرض، ويحكي كيف حاكم هو والده بقوله: لماذا تركتَ؟ وكيف تحمَّلتَ الرحيل؟ وكيف؟ وكيف؟

وإلى أن اغتيلَ، ظلَّ غسَّان مفتوناً بقصيدة محمود درويش "سَجِّلْ، أنا عربي"، وكانت صافي ناز منبهرة بقصيدته الأخرى (خواطر في شارع): "يا وجه جَدِّي/ يا نبيّاً ما ابتسمْ/ مِن أيِّ قبر جئتَني/ لتحيلَني تمثال سمْ/ الدِّيْن أكبر/ لم أبغ شبراً/ ولم أخضَع لضيمْ/ لكنهم رقصُوا وغنُّوا/ فوق قبركَ، فلتنمْ/ صاحِ أنا صاحِ أنا/ صاحِ أنا حتَّى العَدَمْ".

تقول صافي ناز: "وقتها: لم تكن المسألة عنده وعندي مسألة شعْر فحسب، وإن أطربَنا وإن أذهلَنا بجماله وقوّته وصِدْقه ونَبْضه، لم نفكّر لحظة في محاكمته بميزان النَّقْد البارد، كان الأمر بالتحديد يتماثل مع فرحة مَنْ عثرَ على بقية أهله أحياء تحت الأنقاض".

***

على الرَّغْمِ من الأسبقية التَّاريخيّة التي حقّقها كنفاني بتقديم درويش ورفاقه من شعراء الأرض المحتلّة، فإن الناقد رجاء النَّقَّاش ألحّ في مقالات توالت على الطابع الاستثنائي لموهبة درويش، وأدرك في ذلك التوقيت المبكّر أن تلك الموهبة تتجاوز الإطار الذي حاول الجميع سَجْنَهُ فيه.

وكما راهن في العام 1966 على الرّوائيّ السُّودانيّ الطَّيِّب صالح، وقدّم رائعته "موسم الهجرة إلى الشَّمال" في طبعة شعبية مصرية؛ فَعَلَ الشيء نفسه مع درويش، ويبدو أنه تفرّغ له كُلّيّاً اعتباراً من هزيمة العام السابع والسِّتِّين، وتوالت مقالاته التي تُعرِّف بالشاعر وقضيته، ومنها ما كتبهُ في ديسمبر من نفس العام، تحت هذا العنوان: "مطلوب محاولة عالمية لإنقاذ هذا الشَّاعر"[23].

بعد أسبوع واحد فقط، كَتَبَ مقاله الثاني بعنوان: "لماذا لا تتحدَّثُ الدوائرُ الأدبيةُ والفنِّيَّةُ في العالم عن الشاعر المسجون في إسرائيل؟ وطالب المجلس الأعلى للفنون والآداب بترجمة دواوين الشاعر الفلسطيني إلى اللُّغات الأجنبية".

امتدَّ حماس النَّقَّاش عن محمود درويش نحو مجلّة الهلال التي كان يرأسها آنذاك الصَّحافي كامل زهيري، وقدّم في عدد يناير 1968 قصائد له تحت عنوان (الكلمات أيضاً تُقاوم).

---

(23) مجلّة "المصوِّر" المصرية بتاريخ 22 من ديسمبر / كانون أوّل 1967.

.. والكلمات أيضًا تقاوم

قصائد عربية

من داخل إسرائيل

نعم ... ان الكلمات ايضا تقاوم في ارض فلسطين المحتلة . لان الانسان العربي لم يستسلم لما حدث سنة ١٩٤٨ ، ولم يستسلم لما حدث في ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، بل على العكس : اشتعلت المقاومة العربية وسوف تزداد يوما بعد يوم ، لان الانسان ...

رجاء النقاش

مقال رجاء النَّقَّاش قصائد عربية من داخل إسرائيل

خلال تولِّيه رئاسة تحرير مجلَّة "الكواكب" التي تصدر عن مؤسَّسة دار الهلال، وتُركِّز على القضايا الفنِّيَّة؛ نَشَرَ النَّقَّاش على صفحات المجلَّة قصائد لدرويش تحت عنوان (الأرض المحتلَّة ما زالت تُغنِّي)، وقدَّمه فيها بوَصْفه "الشاعر السجين".

في 27 أغسطس/ آب 1969، نَشَرَ للشاعر قصائد جديدة بعنوان: "يوميات جرح فلسطيني" رَسَمَها الشاعر مجدي نجيب، وقدَّمتْها المجلَّة بالتعبير الذي رافق درويش إلى الأبد "شاعر المقاومة في الأرض المحتلَّة".

ومعها مقدِّمة قصيرة للنَّقَّاش، قال فيها: "إنه الشاعر الذي يعيش وراء أسوار إسرائيل، يستطيع بقلبه وإيمانه أن يخترق هذه الأسوار، ويخترق، أيضاً، حدود الزمن، ليرى أن المستقبل للعرب، فهم أصحاب الأرض، هم أهل هذا البيت البرتقالي المسروق: فلسطين".

الأرض المحتلة
ما زالت
تغني

قصائد جديدة
للشاعر السجين محمود درويش

ما زالت الارض المحتلة تغني ... ما زالت فلسطين رغم جراحها تخلق الشعراء الذين يحملون الامل الى قلوب الناس . وما اروع المجروح وهو يعزف الالحان ، وما أروع القلب الذى تسيل منه الدماء ومع ذلك لا ينسى افراحه الحقيقية ، وما اروع الارض التى يحصدون سنابلها فى المساء ويحلمون بان تصبح ارضا قاحلة ولكنهم يفاجأون فى الصباح بسنابل جديدة تنمو وتخضر . وما شعراء الارض المحتلة الا هذه السنابل الجميلة . يدخلون السجن ومع ذلك يتفجرون بالشعر . ويرون الهموم الثقيلة والتهديد المستمر بالتعذيب والقتل ومع ذلك لا يتخلون عن الشعور بالامل . ويرون الدم يسيل امامهم كل يوم ، فيحسون فى قطرات الدماء ان مستقبل بلادهم يولد .. وان الارض سوف تعود

وهذا هو محمود درويش شاعر الارض المحتلة تقدمه « الكواكب » فى مجموعة جديدة من قصائده كتبها بعد عدوان ٥ يونيو .. لا تجد فى كلماته يأسا ولا تشاؤما .. انه وهو الشاعر الذى يعيش وراء اسوار اسرائيل يستطيع بقلبه وإيمانه ان يخترق هذه الاسوار ، ويخترق ايضا حدود الزمن ليرى ان المستقبل للعرب .. فهم اصحاب الارض ، وهم اهل ذلك البيت البرتقالى المسروق : فلسطين

ان محمود درويش يعيش فى قلب المأساة ويحملها ـ كالصليب على كتفيه ـ ومع ذلك فهو قوى لا يرتعد !

انه يغنى ... ويغنى ... وسيظل يغنى حتى يتحرر !

وبعد ان يتحرر ... لن يجد امامه الا ان يغنى ايضا !

زنكوغراف قصيدة الأرض ما زالت تُغنِّي

وتُواصِل المقدِّمة: (أن محمود درويش يعيش في قلب المأساة، ويحملها - كالصليب على كتفَيْه - ومع ذلك، فهو قويٌّ، لا يرتعد!).

لم يكن غريباً في هذا السياق الاحتفالي، أن يَنشرَ الشاعر المصري محمَّد إبراهيم أبو سِنَّة في أوَّل عدد من أعداد يناير/ كانون الثاني 1968، من مجلَّة الكواكب قصيدة، أهداها لمحمود درويش، عنوانها: "أيُّها البرق السجين".[24]

24) مجلَّة الكواكب 1 يناير، -1968.

الصادرة فى يوم ... سنة
قصاصة من جريدة ...
رقم الملف ...
النوع ...

يدة جديدة لشاعر المقاومة فى فلسطين المحت
محمود درويش

رسوم
مجدى نجيب

يوميات جُرح فلسطيني

رباعيات
مهداة
إلى الشاعرة
فدوى
طوقان

قصيدة يوميات جرح فلسطيني

صَنَعَتْ مجلّة (الهلال) تحت رئاسة تحرير الكاتب كامل زهيري الحَدَث الأهمَّ في حياة درويش في تلك المرحلة الصعبة التي كان يعاني فيها من السجن والحصار، فقد نَشَرَتْ في (عدد مايو/ أيّار 1968) ديوانه (آخر الليل)، وهو من أوائل دواوينه التي نُشِرَتْ بشكل شرعيٍّ خارج الأراضي المحتلّة، وجاء النَّشْر بغرض إحياء ذكرى نكبة فلسطين.

ونوَّه زهيري في تقديمه للديوان إلى أن المنشور "النّصّ الكامل لأحدث ديوان أصدره الشاعر محمود درويش في فلسطين المحتلّة بعد 5 يونيو/ حزيران، وقد صادرتْهُ السلطات الإسرائيلية".[25]

الأكيد أن نَشْر ديوانٍ من الشِّعْر ضمن موادّ عددٍ خاصٍّ من مجلّة ثقافية هي الأقدم بين مجلّات الثقافة العربية مَثَّلَ "حَدَثاً" في ذلك التوقيت. ورأى درويش نفسه أن هذا "الحَدَث" قدَّمه للقارئ، أكثر ممّا فَعَلَتْ معه مجلّة "شِعْر" البيروتية الشهيرة التي احتفت بقصائده ضمن ملفٍّ شعراء الأرض المحتلّة، لكنَّ تأثيرها كان نَخْبَوِيّاً، بحُكْم طبيعة جمهورها في لبنان[26].

وفي العدد الصادر بتاريخ 24 مايو / أيّار 1968، من مجلّة المصوَّر كتب الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور مقالاً عن درويش، عنوانه "القدّيس المقاتل"، رأى فيه أن هذا الديوان "يتحدَّث للمرَّة الأولى بلهجة المشارك، لا بلهجة المشاهد، وينسخ بذلك كلّ ما سَبَقَ أن قيل، ويضع علامات الطريق لمَنْ يريد أن يقول بعده".

يقول عبد الصبور الذي كان أهمّ شاعر عربي معاصر وقتها: "كان شِعْر فلسطين في معظمه ضائعاً بين العَنْتَرِيَّة الجوفاء والبكاء الذابل، حتّى كتب محمود درويش ورفاقه، لقد تكلّموا فحسب كلمة صادقة حزينة حزن

---

(25) مجلّة الهلال، مصر، عدد مايو 1968.

(26) حواره مع عبده وازن في الغريب يقع على نفسه، رياض الرّيّس، بيروت، 2009.

الرجال، فأثبتوا أن الشّعْر هو صوت الإنسان حين يتكلّم من قلبه، وبصوته الخاصّ، لا بأصوات الآخرين، والمجموعة الباذخة التي نَشَرَتْها مجلّة الهلال في عدد مايو / أيّار 1968 الأخير من شِعْر محمود درويش هي، في رأيي، حَدَثٌ فنّيٌّ من أحداث حياتنا، ولو استطعتُ أن أتجرَّد من ظلال قضيَّتنا المصيرية، وتذرَّعتُ بالحسِّ النَّقْديّ وحده، لَمَا تغيَّر رأيي قليلاً أو كثيراً، فهي شِعْر، وشِعْر عظيم بشتّى المقاييس".

(راجع المقال كاملاً في ملفّ الوثائق)

تَواصَلَ الاهتمام بدرويش في مصر، لدرجة أن الشاعر كمال النّجميّ الذي كان أحد كبار نُقّاد الموسيقى في مصر - ورئيساً لتحرير مجلّة " الهلال " فيما بعد - كَتَبَ داعياً المُلحّنين إلى تلحين أشعار محمود درويش وغيره من شعراء المقاومة [27].

***

هكذا، وَجَدَتْ نصوص محمود درويش مكاناً في قلب السِّجال المصري حول الشِّعْر، كما كانت في قلبِ "المتن الشِّعْريّ" لتلك الأيّام، وتحوّل صاحبها من شاعر شابٍّ إلى ظاهرة متكاملة، حيثُ قدّمَتْهُ الصحافة الأدبية كـ "نجم ساطع" قبل أن يصل إلى القاهرة بالفعل.

---

27) كمال النّجميّ، مجلّة الكواكب، الأسبوع الأخير من ديسمبر 1968.

حنحارب

رفض الرئيس المصري جمال عبد الناصر عقب هزيمة يونيو / حزيران ١٩٦٧، مباشرة كلَّ عروض السلام الإسرائيلية، بعودة سيناء فقط إلى مصر، مقابل سلام منفرد بين مصر وإسرائيل. وفي حديث له إلى أساتذة وطلَبَة الجامعات المصرية عقب مظاهرات الطَّلَبَة في نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٦٨، قال عبد الناصر:

"أنا عارف مدى الغضب ومدى المفاجأة اللِّي أصابتنا جميعاً بعد النكسة، وبعد اللِّي حصَلْ، وعارف أن الشعب العربي في مصر غاضب وحزين، لأن جيشه نال هزيمة غير مستحَقّة، ولأن سيناء تمَّ احتلالها. بس أنا بدي أقول لكم حاجة، الرئيس تيتو بعت لي رسالة جَتْ له من ليفي أشكول، رئيس وزراء إسرائيل، بيطلب فيها إنه يقابلني في أيِّ مكان في العالم لنتحدَّث، ولكي نصل إلى حلّ. وبيقول إنه مش هيتعامل معي معاملة منتصر مع مهزوم، وإن إسرائيل مستعدَّة ترد لنا سيناء من غير شروط مُذلّة، إلّا شرط واحد بس، إن مصر تبقى دولة محايدة، يعني لا قومية عربية ولا عروبة ولا وحدة عربية، نبقى في حالنا، ومالناش دعوة بإسرائيل، ولا نحاربها، إسرائيل قتلت الفلسطينيِّيْن، وإحنا مالنا، إسرائيل ضربت سوريا إحنا محايدين، ضربت الأردن .. لبنان، مصر مالهاش دعوة، وما نتكلِّمش، يعني خُدُوا سيناء وطلّقوا العروبة والقومية والوحدة، ونبيع نفسنا للشيطان، أنا طبعاً قولت للرئيس تيتو الكلام ده مرفوض. القدس والضّفّة والجولان وسيناء يرجعوا مع بعض، إحنا مسؤولين عن كلِّ الأراضي

العربية، إحنا مسئولين عن حلّ مأساة شعبنا العربي في فلسطين، مش هنقبل شروط، ومش هنخرج من عروبتنا، ومش هنساوم على أرض ودم العرب، لن تقبل الجمهورية العربية المتّحدة بحلّ جزئي أبداً، معركتنا واحدة، وعدوّنا واحد، وهدفنا واحد، تحرير أرضنا كلها بالقوّة، ولن نقبل مشاريع منفصلة للسلام، حبّيت أنقل لكم الموضوع ده، علشان تعرفوا إن المشكلة مش سيناء بس، الأميركان واليهود ضربونا في 67 علشان يساومونا بيها على عروبتنا وعلى شرفنا وعلى قوميتنا".

حاولت إسرائيل والولايات المتّحدة الأمريكية باستماتة إغواء الرئيس عبد الناصر بقبول صلح منفرد مقابل استعادة سيناء كاملة، وبغير قيود لنزع سلاح القوّات المسلّحة المصرية في سيناء، بشرط الخروج من الصراع العربي الإسرائيلي، لكنه رَفَض، وواصل سياسته في التأكيد على أن الصراع مع إسرائيل هو صراع عربي، وليس مع مصر فقط.

كانت رؤية عبد الناصر أشمل لمفهوم الأمن القومي العربي الجامع لكلّ الدول العربية، وكان مؤمناً أن المصالح العربية مشتركة وواحدة، لذا رَفَض بشدّة أن يخرج من عروبته، وأن ينعزل بمصر، لذلك بدأ التخطيط لردّ الاعتبار لفكرة الوحدة العربية ذاتها، وللثأر ممّا حَدَث في حرب حزيران/ يونيو1967.

وفي نفس الوقت، سعى للتأكيد أكثر في الخطاب الاعلامي الرّسْميّ على إنهاض هذه العروبة الجريحة، فضلاً عن متابعته الحثيثة لتطوّرات الموقف على صعيد صراعات الفصائل الفلسطينية، إلى جانب تشجيع التواصل مع العرب داخل الأراضي المحتلّة كجزء من استراتيجية المواجهة في سبيل الرّدّ على الهزيمة.

***

وعلى الرّغْم من هزيمته العسكرية، ظلّ جمال عبد الناصر محتفظاً

..سورة الزعيم الأسطوري لدى محمود درويش ورفاقه في الأراضي المحتلّة، .قول درويش في مقابلة صَحَفيَّة: "ببساطة زعيم العرب ومنقذ الأمّة، ولم .كن هناك تعارض بين حُبّنا للحزب الشّيوعيّ وحُبّنا لعبد الناصر، وحين .حصل الخلاف لاحقاً بين النّاصريّة والحزب الشّيوعيّ كنّا مشتّتين، ننحاز إلى هذا الطرف أو ذاك، لكنْ، لم تكن لدينا الحجج التي ندافع فيها عن هذا أو ذاك[28]".

***

حلمَ محمود درويش ألّا يعود من صوفيا، وتشبّث بفرصة، جاءتْهُ للسّفر إلى موسكو مرشّحاً لمدرسة إعداد الكادر الحزبي في معهد الماركسية اللّينيّة المعروف علَنياً باسم "معهد العلوم الاجتماعية"، وهناك قابل .محمّد دكروب الذي أجرى معه مقابلة، نُشرَتْ في مجلّة "الطريق" ضمن .عدد خاصّ، صَدَرَ تحت عنوان "أدب المقاومة في فلسطين" (نوفمبر/ .تشرين الثاني 1968[29]؛ وكانت فترة قصيرة، عاد بعدها إلى القدس، .لكنه حاول العودة بالسّفر مرّة أخرى إلى فرنسا، لكن السلطات الفرنسية .رفضتْ دخوله[30].

تجوَّل درويش في أكثر من مطار، ووصل إلى برلين، وهناك التقى الشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وجرى بينهما حوار، .نشرتْهُ مجلّة الهلال المصرية في عدد يوليو/ تمّوز من العام 1969، وفيه قال بوضوح: "ذهبتُ إلى باريس لحضور ندوة لجمعية الصداقة الفرنسية العربية، فأوقفتني السلطات الفرنسية في المطار ليلة كاملة، ولم تسمح لي بدخول باريس، لأنني لا أحمل جواز سَفَر، إنما أحمل تذكرة مرور (ليسيه

(28) درويش في حوار مع سامر أبو هوّاش في مجلّة نزوى العُمانية، يناير 2002.

(29) محمّد دكروب، مرجع سابق.

(30) عبده وزان: الغريب يقع على نفسه: منشورات رياض الرّيّس، بيروت، 2008.

پاسييه)، وقيل لي: أنتَ بلا جنسية، لذلك لن تدخل باريس، وفي اليوم الثاني، حملوني إلى طائرة، كانت مسافرة إلى بولندا، ومنها جئتُ إلى برلين" (31).

المعلومة الأهمُّ في حواره مع أبي سلمى الذي نشرتْهُ "الهلال" أنه لم يكن يفكِّر في مغادرة الأراضي العربية المحتلَّة، بل قاوم رغبةً، أبداها سميح القاسم في الخروج، وقال لأبي سلمى: "سمعتُ سميح يتحدَّث عن الخروج من إسرائيل إلى البلاد العربية، فطَلَبْتُ منه ألَّا يفعل ذلك، وقلتُ له: "إن قيمتنا أن نبقى هنا .. أن نبقى في فلسطين المحتلَّة نكافح وندافع عن الوجه العربي لأرضنا (32)".

فما الذي تغيَّر؟

* * *

عاد درويش إلى الأراضي المحتلَّة، وقبل أن يسافر إلى موسكو من جديد مبعوثاً لمعهد العلوم الاجتماعية، ظلَّ أسيرَ غرفته، بعد أن قام القائد العسكري الإسرائيلي لمنطقة الشَّمال، الجنرال دافيد اليعازر باعتقاله منزليّاً.

وجاء هذا التجديد في الأوَّل من أكتوبر عام 1969، وخضع لمراقبة الشرطةِ الإسرائيليةِ دائماً، وكان عليه ألَّا يغادرَ حيفا إلى أيِّ مكانٍ آخر، ويُثْبتَ وجودَهُ في مركزِ الشرطةِ في السَّاعةِ الرابعةِ من عصْرِ كُلِّ يومٍ، حيثُ لا يغادرُ مَنْزِلَهُ (غرفته) بعد غروبِ الشَّمسِ بساعةٍ حتَّى الفجر، بحيث تتمكَّن الشرطة من "تَفَقُّدِهِ" في أيِّ وقتٍ تشاء.

---

31) من حوار نشرتْهُ مجلَّة الهلال، يوليو 1969 بعنوان لقاء مع محمود درويش في برلين.

32) من حوار نشرتْهُ مجلَّة الهلال، يوليو 1969 بعنوان لقاء مع محمود درويش في برلين.

هذه الرسالة وصلت الى رئيس تحرير الهلال من الشاعر العربي الفلسطيني الكبير أبو سلمى ، وفي هذه الرسالة يتحدث « أبو سلمى » عن لقاء له في برلين مع شاعر المقاومة في الارض المحتلة : محمود درويش ... و « الهلال » تنشر هذه الرسالة تقديرا لما تضمنته من معلومات وحقائق عن الارض المحتلة وثوارها وشعرائها ... وتقديرا لذلك اللقاء العزيز الذي تم بين «أبي سلمى» وهو شاعر كان في طليعة جيل المقاومة في ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ و « محمود درويش» وهو شاعر يقف في طليعة جيل المقاومة الجديد الذي يناضل اليوم باقصى ما تستطيع قوته من أجل فلسطين

ابو سلمى

لقاء مع محمود درويش في برلين

زنكوغراف لقاء أبي سلمى

لم تلْبَث هذه الإقامةُ الجبريةُ، أن صارت اعتقالاً في السادس والعشرين من أكتوبر 1969، إثر الانفجاراتِ التي وَقَعَتْ في مدينة حيفا [33].

وظلَّ الشاعر في الإقامة الجبرية حتَّى الأوَّل من فبراير من عام 1970[34]. ثمَّ سَمَحَتْ السلطات الإسرائيلية له بالمغادرة إلى موسكو في 5 مارس 1970[35].

---

33) أحمد الشهاوي: سنوات محمود درويش في مصر، مقال على موقع متْحف محمود درويش، نُشرَ في القدس العربي، أغسطس 2008.

34) أحمد الشهاويّ: سبقت الإشارة إليه.

35) شربل داغر: محمود درويش يتذكَّر في أوراقي (أكتبُ، لأنني سأعيش)، مؤسّسة سلطان العويس، دبي، 2019، طبعة أولى، ص 77.

في موسكو .. "لا شيء إلَّا الضوء"

نال محمود درويش في العام 1970، منحةً للدراسة بمعهد العلوم الاجتماعية، كانت تُدبِّرها الأحزاب الشُّيُوعيَّة، ولتيسير حياته اليومية، تعلَّم درويش القليل من الكلمات الرُّوسيَّة، ومَنَحَتْهُ الفترة القصيرة التي عاشها هناك الكثير الشعور بالحُرِّيَّة بعد فترة الإقامة الإجبارية، والتضييقات التي فرضتها عليه السلطات الإسرائيلية في وطنه، وتجاوز أزمة عدم الاعتراف به كمواطن في الدولة، بحصوله على وثيقة سَفَر، على الرَّغْم من رَفْض طلبه الحصول على جواز سَفَر إلى الخارج على مدى فترة طويلة، ولم يسمح له بزيارة أهله خارج حيفا قبل السَّفَر.

ووفْقاً لرواية فيصل حوارني، ساعد الشاعر معين بسيسو، الذي كان دائم التردُّد على الاتِّحاد السُّوفييتيّ لاعتبارات حزبية، محمود درويش على إيجاد مجال عربي لتحرُّكاته في موسكو، وأتاح له فرصة اللقاء مع العديد من الشَّخصيَّات الثَّقافيَّة العربية التي كانت، بحُكْم انتمائها للأحزاب اليسارية العربية، وثيقة الصلة بالخطِّ السُّوفييتيّ كعادة تلك الأيَّام، ومن بين هؤلاء الكاتبان اللُّبنانيَّان حسين مروة ومحمَّد دكروب، والرِّوائيُّ والمترجم العراقي غائب طعمة فرمان، والشاعر السُّودانيُّ جيلي عبد الرحمن، كما قابل هناك الرِّوائيّ والمترجم اللُّبنانيّ سهيل إدريس صاحب مجلَّة "الآداب" اللُّبنانيَّة الذي وضع صورة محمود درويش على غلاف المجلَّة التي كانت تحظى بتقدير كبير في الأوساط الأدبية.

غلاف الآداب

"بالنسبة إلى شُيُوعيٍّ شابٍّ، موسكو هي الفاتيكان، لكنني اكتشفتُ أنها ليست جنَّة" (36). هكذا كَتَبَ الشاعر الذي كان يرتِّب جدول أحلامه،

36) من مقال حسَّان نصر "قال قلبه كفى، ضمن كتاب عَصِيّ على النسيان"، مرجع سابق، ص 175.

يعطي مواعيد للنجوم، مُدركاً أن حُلْم العدل والعيش في مجتمع الكفاية يمكن له أن يتبدّد حين يتحوّل الناس إلى أنماط أو إلى "قوالب". لذلك فكّر في الخطوة المقبلة، وقرّر أن يُوسّع من عالمه، ومن دوائر علاقاته في هذا المغترب، ثمّ توطّدت صداقته مع القاصّ السُّوريّ سعيد حورانية الذي كان يحرّر النسخة العربية لإحدى المجلاّت السُّوفييتيّة، وارتبط كذلك بالكاتب سعيد مراد مراسل مجلّة "الطريق" اللُّبنانيّة التي نشرَتْ حواراً مطوّلاً، أجراه معه محمّد دكروب، كان من أكثر الحوارات المبكّرة التي أضاءت مسيرته الفنّيّة والحياتية.

عبْر بسيسو تمكّن درويش من التّعرُّف على شخصية استثنائية، ستُغيّر مساره كُلّيّاً، وهي شخصية سفير مصر في موسكو الدكتور مراد غالب[37] الذي كان يرتبط بصداقة قديمة مع بسيسو، الذي كان شاعراً ومسرحيّاً وصحفيّاً ومناضلاً فلسطينيّاً معروفاً في مصر.

يجزم فيصل حوراني أن مراد غالب هو منْ رتّب مع السلطات المصرية

---

(37) الدكتور مراد غالب (1922 - 2007): عمل أستاذاً للأنف والأذُن والحنجرة بكلّيّة طب الإسكندرية، وكانت له أنشطة وطنية معهم قبل ثورة يوليو1952. وقد ساعدت صداقته المذكورة على توطيد علاقته لاحقاً بجمال عبد الناصر. وبعد يوليو 1952 أقنعه جمال عبد الناصر بترك الطب، والدخول في العمل السّياسيّ. وفي عام 1953 عيّنه سكرتيراً ثالثاً للسفارة المصرية بموسكو مرافقاً للفريق عزيز المصري، سفير مصر في موسكو في حينه، وبقي بها حتّى عام 1958. خلال هذه الفترة أتقن اللغة الرُّوسيّة، وأقام علاقات وصداقات وثيقة جدّاً بالقيادات الرُّوسيّة. انتقل بعد ذلك للعمل مستشاراً للرئيس جمال عبد الناصر، ثمّ وكيلاً لوزارة الخارجية، ثمّ سفيراً لمصر بالكونغو، حيثُ شهد وعاصر أحداثاً جساماً، شملت محاولة اغتياله.

أُعيد إلى موسكو عام 1961 كسفير، وظلّ بهذا المنصب حتّى عام 1972، ولعب دوراً كبيراً بعلاقاته وصداقاته في توطيد العلاقة وإنشائها وتقويتها حتّى لُقّب بمهندس العلاقات السُّوفييتيّة. أعاده الرئيس السادات إلى مصر بعد طرْد الخبراء الروس، وعيّنه وزيراً للدولة للشؤون الخارجية، ثمّ وزيراً للخارجية، ثمّ وزيراً للإعلام لفترة قصيرة. في عام 1973، عيّنه السادات وزيراً للوحدة مع ليبيا، ثمّ سفير مصر بيوغسلافيا حتّى أعلن في نوفمبر 1977 استقالته احتجاجاً على زيارة السادات للقدس، وتوقيعه لمعاهدة السلام مع إسرائيل، وقبل وفاته في 18 ديسمبر عام 2007، كان يشغل منصب رئيس مُنظّمة الشعوب الأفرو آسيوية، ومقرها القاهرة.

فكرة انتقال محمود درويش للعيش في القاهرة، بعد أن لَمَسَ في حواراتهما معا "عدم رغبته في العودة إلى إسرائيل".

وبحُكْم منصبه، كان بإمكانه تدبير الكثير من الأمور، بما في ذلك الاتّصال مباشرة بجمال عبد الناصر لاتّخاذ ما يلزم من إجراءات.

مع الرجل ذي الظِّلِّ الأخضر

في إطلالة تلفزيونية قدّمت سفيرة فلسطين السابقة في باريس السّيّدة ليلى شهيد، رواية أخرى تدعم الفرضية القائلة بأن مراد غالب هو مَنْ رَسَمَ لدرويش خطوته الثانية بعد "موسكو".

ففي مقابلة معها جرت لصالح محطّة فرنسا 24، قالت شهيد التي كانت وثيقة الصلة بدرويش "إن جمال عبد الناصر قابل محمود درويش خلال زيارته السِّرِّيَّة لموسكو، وقدّم له دعوة للإقامة في مصر"[38].

واعتمدت شهيد فيما روتْه، على رواية مباشرة من الشاعر الراحل، حيثُ أسرّ لها ذات مساء، قائلاً: "سألني عبد الناصر في المقابلة ماذا تفعل هنا في الثلج؟"، فقلتُ: "بسبب أوراقي الإسرائيلية، لا أستطيع الذهاب إلى أيّ بلد عربي؟".

لكن رئيس مصر بحسب رواية ليلى شهيد "أرسل له بعدها جواز سفر دبلوماسياً مصرياً، وهكذا تيسّر له الانتقال إلى القاهرة بترتيبات استثنائية".

وتضيف: "أعطى عبد الناصر الأوامر بأن يُعامَل درويش، الذي لم يكن تجاوز عامه الثلاثين مثل أكبر المثقّفين". ولولا هذه الالتفاتة التي قدّمها عبد الناصر - حسب قولها - ما تمكّن درويش من التواصل مع العالم العربي، ومواصلة رحلة الخروج من إسرائيل.

---

38) مقابلة تلفزيونية على يوتيوب بعنوان: ليلى شهيد تتذكر محمود درويش في محطة فرنسا 24 بتاريخ 9 مارس 2020. تشغل السّيّدة ليلى شهيد منصب رئيس كرسي محمود درويش في جامعة بروكسل.

لا توجد لدينا شواهد، لنختبر صحّة واقعة اللقاء الذي جَمَعَ جمال عبد الناصر ومحمود درويش في موسكو، فلم يُوثّق في أيِّ مصدر، إلّا أن ما يمكن تأكيده أن عبد الناصر زار موسكو أكثر من مرّة خلال الفترة التي كان درويش يدرس فيها هناك، ومن بين تلك الزيارات هناك زيارة سرِّيَّة، لم يُكشف عنها، وكان الغرض منها الحصول على صفقة لتسليح الجيش المصري ، فمنذُ ديسمبر / كانون الأوّل 1969، أُصيب عبد الناصر بأزمة قلبية، وكان يعاني جلطة في القلب، تضاعَف تأثيرها، بسبب إصابته المزمنة بمرض السُّكّريّ الذي اشتدَّ عليه بعد نكسة يونيو/ حزيران، ولذلك أخذ يتردَّد على الاتّحاد السُّوفييتيّ للعلاج وللاستشفاء في "سخالطوبا والقوقاز"، وهي مناطق مشهورة بالمياه المعدنية التي تُساعد على تحسين الدورة الدّمويّة.

كانت الزيارات تشمل إلى جانب الاستشفاء بطبيعة الحال أمور الدولة من مباحثات عسكرية وسياسية مرتبطة بالوَضْع في الشرق الأوسط، في ظلّ "حرب الاستنزاف"، حيثُ زاد اعتماد مصر على مساعدات روسيا في مجال التسليح.

مع قيام الجانب الإسرائيلي بالتصعيد وضرب منشآت مصرية مثل مدرسة بحر البقر ومصانع أبو زعبل، أصبح الشرق الأوسط منطقة للتَّوتُّر، وزاد من صعوبة الوَضْع أن الرئيس الأمريكي نيكسون الذي فاز برئاسة الولايات المتَّحدة عام 1968، اتَّسمت سياساته في المنطقة اعتباراً من العام 1969، بالسَّلبيّة، واعتمد على الأدوار التي يؤدّيها هنري كسينجر مستشاره للأمن القومي، الذي كان مقتنعاً بسياسة "عدم تحريك الموقف".

لو قبلْنا رواية ليلى شهيد، فالأرجح أن اللقاء الذي جَمَعَ جمال عبد الناصر ومحمود درويش في موسكو قد تمَّ في الزيارة الأخيرة التي قام بها عبد الناصر إلى الاتّحاد السُّوفييتيّ في يوليو/ تمّوز 1970، أي قبل وفاته

بشهرَيْن فقط، وبعد أربعة أشهر من استقرار درويش في المدينة التي وَصَلَ إليها في مارس من العام نفسه.

كانت معنويات عبد الناصر خلال تلك الزيارة عالية جدّاً، بسبب نجاح القوَّات المصرية في إسقاط سبع طائرات إسرائيلية خلال يوم واحد، وأظهرت إسرائيل رَسْمِيّاً انزعاجها من تزايد خسائرها العسكرية، ما دَفَعَ الولايات المتَّحدة للتَّقدُّم بمبادرة روجز الثانية، وقد تلقَّى عبد الناصر هذا المطلب في حديقة المصحَّة العلاجية التي كان يُستشفى بها في موسكو، كما يشير غالب في مذكِّراته [39].

وربمّا في هذا اللقاء الذي تُرجِّح شهيد حدوثه، تعرّف درويش لأوّل مرّة إلى محمَّد حسنين هيكل، الرجل الذي سيلعب فيما بعد دوراً مهمّاً في تجربة درويش المصرية، حيثُ كان الصَّحَافيّ الشهير من بين مَنْ رافقوا جمال عبد الناصر في تلك الزيارة، وروى هيكل الكثير من وقائعها في كتابه: "زيارة جديدة للتاريخ"، واصفاً مراد غالب بـ "الرجل الذي تُفتَح له الأبواب المغلقة" دون أن يأتيَ بطبيعة الحال على ذِكْر هذا اللقاء الذي تؤكِّد شهيد أنّ الشاعر احتفظ بتفاصيله ضمن أسراره [40].

في حين يؤكِّد المترجم السُّوريُّ فاروق مردم بك، وهو أحد أقرب أصدقاء درويش، أن عبد الناصر لم يقابل درويش مطلقاً: "أكَّد لي درويش حين سألتُهُ عن *هذا اللقاء* أنه لم يلتقِ بعبد *الناصر*، لا في موسكو، ولا في القاهرة، ولكن عبد الناصر رحَّب بفكرة استضافة درويش في مصر، وتكفَّل بذلك مراد غالب، وهذا ما كان" [41].

39) مذكّرات مراد غالب: (مع عبد الناصر والسادات، سنوات الانتصار وأيّام المحن)، مقدمة عاطف الغمري، الناشر مركز الأهرام للترجمة والنّشر، طبعة أولى 2001، ص 147.

40) محمَّد حسنين هيكل، زيارة جديدة للتاريخ - طبعة دار الشروق، الأولى 2003 - ص86.

41) رسالة من فاروق مردم بك ردّاً على سؤال من المؤلّف مؤرّخة في 4 سبتمبر أيلول 2020.

مراد غالب

من الواضح، كما تبيِّن الوقائع، أن السفير المصري في موسكو مراد غالب لعب الدَّوْر الرَّئيسيَّ في تدبير انتقال درويش من موسكو إلى القاهرة، ليس فقط بحُكْم منصبه أو مسؤولياته السِّياسيَّة، إنما لاعتبارات الصداقة التي نَمَتْ بينه وبين الشاعر. فقد أشار في مذكِّراته إلى محمود درويش مرَّتَيْن، دون أن يأتيَ على ذكْر واقعة اللقاء (المفترَض) بين ناصر ودرويش، ممَّا يضفي ظلالاً من الشَّكِّ حولها، وفي المرَّة الأولى التي أورد فيها اسم درويش وصفه بالصديق، ونقل غالب تعليقاً للشاعر على أداء مصر خلال حرب الاستنزاف، وفي المرَّة الثانية، أبرز رأياً لدرويش على أهمِّ أحداث حياة مراد غالب حين فَقَدَ منصبه في عضوية اللجنة المركزية للاتِّحاد الاشتراكيِّ، وكانت أعلى تنظيم سياسي في مصر [42].

الدكتور مراد غالب شخصية فريدة في تاريخ العمل الدِّبلوماسيِّ المصري، وخلال فترة عمله سفيراً لمصر في موسكو، في الفترة من 1962 حتَّى 1972 وَصَلَتِ العلاقات المصرية مع الاتِّحاد السُّوفييتيّ إلى أقصى درجات التعاون، ولعب دوراً كبيراً، بمعارفه وصداقاته، في توطيد العلاقة

42) مذكِّرات مراد غالب (مع عبد الناصر والسادات، سنوات الانتصار وأيَّام المحن) مقدِّمة عاطف الغمري، الناشر مركز الأهرام للترجمة والنَّشْر، طبعة أولى 2001، ص 233.

وإنشائها وتقويتها حتّى لُقّب بمهندس العلاقات السُّوفييتيّة. في تلك السنوات تمكّنت مصر من الحصول على دعْم فنّيٍّ لبناء السّدّ العالي بمساعدة الخبراء السوفييت، وعقب نكسة يونيو/ حزيران، نالت مصر دعْماً عسكرياً سوفيتيّاً. ساعدها على تسليح قوّات الدفاع الجوّيّ بصواريخ لإسقاط الطائرات التي تأتي على ارتفاعات منخفضة، وكذلك إرسال هذه الصواريخ بأطقم سوفيتية للتّصدّي للطيران الإسرائيلي المنخفض، وكانت هذه أوّل مرّة يرسل فيها الاتّحاد السّوفييتيّ قوّة عسكرية بهذا الحجم إلى بلد أجنبي، وخلال أبريل 1970 وصل عدد الخبراء السوفييت في مصر إلى عشرة آلاف خبير[43].

ظلّ وجود هؤلاء الخبراء عنواناً مؤثّراً في معادلة السياسة الخارجية والدّاخليّة لمصر، إلى أن اتّخذ السادات قرارهُ بطرْد هؤلاء الخبراء في العام 1972 على أمل أن تُسرع أمريكا إلى مساعدته في حلّ قضية الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية على الأقلّ، لكن قوى الضغط في الولايات المتّحدة رأت أن السادات أصبح معزولاً، وبلا ظهير سياسي. وسيقبل بأيّ شروط للتسويّة، تُفرض عليه.

في تلك الأجواء لم يتخلّص السادات فقط من الخبراء السوفييت، بل تخلّص أيضاً من أنصارهم في مصر، وفي اجتماع اللجنة المركزية للاتّحاد الاشتراكي الذي أعلن فيه طرْد السوفييت، أعلن أيضا إقالة مراد غالب من عضوية اللجنة المركزية للاتّحاد الاشتراكيّ أعلى تنظيم سياسي في مصر آنذاك، وقال محمود درويش لغالب بعدها ساخراً: "هكذا طرد الرئيس السادات آخر الخبراء السوفييت[44]".

تكشف هذه العبارة التي يوردها غالب في مذكّراته العلاقة الوطيدة مع

---

(43) مذكّرات مراد غالب: المرجع السابق، ص146.

(44) مذكّرات مراد غالب: المرجع السابق، ص 233.

الشاعر، ما يدعم فرضية الصداقة التي جَمَعَتْ بينهما خلال وجودهما في موسكو، وربَّما لهذا الاعتبار تشجَّع غالب، واقترح على جمال عبد الناصر إمَّا فكرة اللقاء مع محمود درويش أو فكرة السَّفر والإقامة في القاهرة، برعاية رَسْميَّة مصرية بدلاً من عودته إلى الأراضي المحتلَّة.

يزيد من وجاهة هذا السيناريو ما تكشف عنه مذكِّرات غالب، فهي تعكس اهتمامه بإقامة روابط مع الشعراء والأدباء في موسكو، وتشير إلى صلات وثيقة، جَمَعَتْهُ بالشعراء والأدباء السوفييت "كانوا يتكلَّمون عن الحُرِّيَّة، ولكنْ، في حَذَر، وكانوا يعرفون بعضهم معرفة تامَّة، فكثيراً ما يُغيِّرون موضوع الحديث، إذا وَصَلَ مَنْ يعتقدون أنَّه من أجهزة المراقبة، ويحذِّرونني منه".

كما يذكر أسماء عديدة لمَن التقى بهم، وعلى رأسهم الشاعر يفجيني يفتشينكو (1932-2007) الذي رتَّب له زيارة إلى مصر، وتمَّ استقباله فيها بحفاوة بالغة، يقول غالب: "كان من أصدقائي، ويأتي لزياراتي كثيرا في بيتي"[45].

وظلَّ يفتشينكو من بين أصدقاء محمود درويش المقرَّبين، وربَّما يكون قد التقى به في موسكو لأوَّل مرَّة.

ومن الطَّبيعيِّ أن بيت سفيرٍ بهذه المواصفات لا بدَّ أن يكون مُغريا كذلك للشعراء والمثقَّفين العرب المقيمين في المدينة، ومن بينهم معين بسيسو الذي يبدو أنه أقام صلة الوَصْل بين مراد غالب ومحمود درويش، ثمَّ بين درويش ومراسل الأهرام في موسكو عبد الملك خليل، حيثُ كان بسيسو أيضاً من بين الصَّحَفيِّيْن المتعاونين مع الأهرام كخبير في الشأن الفلسطيني.

45) مذكّرات مراد غالب: إشارة سابقة، ص 88.

بخلاف "سرِّيَّة" اللقاء الذي تؤكِّد ليلى شهيد "حدوثه" مع جمال عبد الناصر، جرت لقاءات عَلَنِيَّة كثيرة مع مصريِّينَ، ربمَّا يكون أهمّها اللقاء الذي صَنَعَ الخطوة الثانية في رحلة محمود درويش إلى القاهرة، وكان مع أحمد بهاء الدِّيْن.

وما أدراك مَنْ بهاء؟!

الأب الرُّوحيُّ

تؤدّي كلُّ طُرُق البحث عن أيّام محمود درويش في مصر إلى ميدان كبير من الرحابة الإنسانية والكفاءة المِهَنيَّة، اسمه أحمد بهاء الدِّيْن، فهو كلمة السِّرّ في هذه الرحلة أو "شَفْرَتُها الإنسانية".

وربَّما يتشابه هذا الدَّور، إلى حَدٍّ كبير، مع الدَّوْر الذي لعبه الشيخ أبو العلا محمّد في حياة أُمّ كلثوم، وواصَلَهُ شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق، فالأوّل أقنعها حين التقى بها لأوّل مرّة أن مساحة صوتها أكبر من حدود قريتها، وعلّمها الثاني أن الموهبة تحتاج إلى عقل و"صيانة"، لكي تُدار بشكل صحيح.

قبل خروجه من فلسطين، اختار درويش أن يكون تحت رعاية إميل حبيبي صاحب "المتشائل" الذي كان "أباً رُوحيّاً" يؤدّي معه الدَّوْر الذي أدّاه الشيخ أبو العلا محمّد مع أُمّ كلثوم حين علّمها أنه بالخيال يمكن النظر إلى ما وراء الحدود، لكن الشاعر الشّابّ وقت أن تقابل مع بهاء الدِّيْن في موسكو لأوّل مرّة في يناير من العام 1971 تعلّم درسه الثاني، وهو: كيف يدير موهبته، ويرعاها، لتكبر في المسار الذي يريد.

على نحو ذلك، كان بهاء هو "بوصلته" في مصر [46]، وصانع مجاله الاستراتيجي. الفكرة نفسها أكّدتْها لي صافي ناز كاظم، التي التقت بمحمود درويش ساعات بعد وصوله، وكانت أوّل صَحفيّة مصرية تجري

46) لقاء مع الكاتبة منى أنيس نائب رئيس تحرير صحيفة (الأهرام ويكلي) سابقاً. وكانت أقرب صديقات الشاعر في مصر.

حواراً معه. عادت بي في حديثها إلى سنوات عملها بجوار الأستاذ بهاء، وقالت: "بهاء كان الراعي الرَّسْميَّ والأب الرُّوحيَّ الذي وَصَفَ درويش، في مقال، بعد أوَّل لقاء جَمَعَ بينهما بـ "فلذة كبدي".

***

قبل الوصول إلى هذا المقال، علينا التَّوقُّف أمام عدَّة أمور، أهمُّها: أنّ الاحتفاء الذي وَجَدَتْهُ موهبة درويش سواء قبل حضوره إلى القاهرة في 1971 أو بعدها، كان مرتبطاً بوعي وذائقة الأستاذ بهاء المقدِّر لـ "قيمة الأدب والفنِّ"، حتَّى إن نجيب محفوظ أكَّد مراراً أن (الأستاذ بهاء ناقد ظَلَمَ نفسه، ولو أراد أن يكون ناقداً، سيكون في طليعة النُّقَّاد).

وتشير المقالات التي جَمَعَهَا رشاد كامل إلى أن بهاء كان صاحب ذائقة أدبية متميِّزة، وقدَّم للقارئ في مقالاته الأسبوعية إشارات لامعة حول شعر صلاح جاهين، وأدب توفيق الحكيم وطه حسين ويوسف السّباعيّ والعقّاد. كما كان للأستاذ بهاء (ماضٍ شِعْرِيّ) لا يعرفه الكثيرون، وله عدَّة قصائد منشورة في مجلَّة (الفصول) التي نَشَرَتْ أولى كتاباته، وأكَّدت اسمه الصَّحَفِيَّ قبل أن ينتقل للعمل مع السَّيِّدة "روز اليوسف" ويُؤسِّس مجلّة "صباح الخير" 1956 [47]، التي شهدت ترسيخ اسمه، ثمَّ تحوَّلت إلى منصّة إطلاق لأهمِّ نجوم الصحافة المصرية من الكُتّاب والرَّسَّامين.

وربّما بسبب بداياته الشِّعْرِيَّة، وَاصَلَ بهاء شَغَفَهُ بالشِّعْر، وظلَّت رعايته الشعراء عنواناً من عناوين مسيرته المهنية المحاطة بكلِّ جلال واحترام.

وخلال رئاسته لتحرير مجلَّة "المصوَّر" ومجلس إدارة مؤسَّسة دار الهلال التي تُصدرها، قدَّمت صفحات المجلّة ومعها بقية مطبوعات دار الهلال أوراق اعتماد محمود درويش ورفاقه للقارئ المصري والعربي، وذلك قبل

(47) في كتاب تحت عنوان، مقالات لها تاريخ، مؤسّسة روز اليوسف، القاهرة، 2016.

أن يلتقيَ درويش بهاء وجهاً لوجه، وكانت قصائده، كما أشرنا، تُقدَّم بالكثير من التقدير والاهتمام.

***

عبر صفحات "المصوَّر" تحت رئاسة أحمد بهاء الدِّيْن، انطلق تعبير "شعراء الأراضي المحتلَّة" الذي صاغه غسَّان كنفاني من مصر، وسجَّل الأستاذ بهاء له هذا الفضل بصفته (أوَّل مَن اهتمَّ بالبحث والتنقيب عن الأدب الفلسطيني في إسرائيل والكتابة عنه).

نموذج لقصائد درويش في المصوَّر قبل أن يصل القاهرة

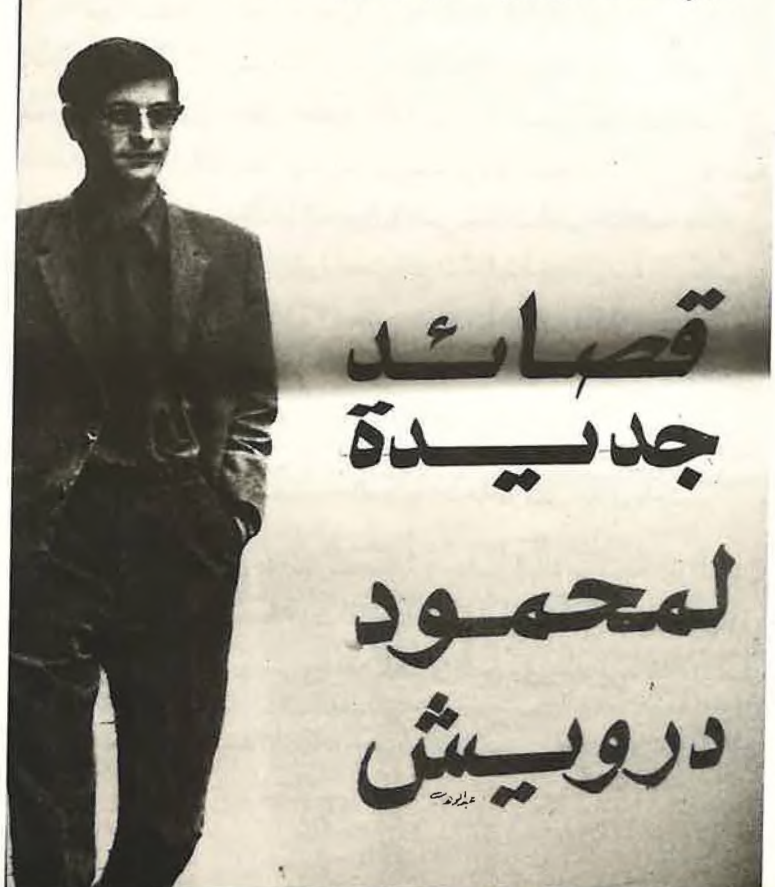

أيام بلا تاريخ!

هذه التجارة الواسعة بـ"شعراء الأرض المحتلة"

القاهرة ألف .. لماذا؟

سميح القاسم

غسان كنفاني

محمود درويش

مقال أيّام بلا تاريخ شعراء الأرض المحتلّ

يضاف إلى ذلك، أنَّ بهاء كان أوَّل مَن انتبه إلى عملية الاتِّجار بهذا المصطلح، ففي افتتاحية (المصوَّر) في 24 أغسطس/ آب 1969، وجاءت بعنوان (أيَّام بلا تاريخ) لاحظ كيف نشأت التجارة الواسعة بشعراء الأراضي المحتلَّة، حيثُ ظَهَرَ عشرات الناشرين ممَّنْ يجمعون هذه الأشعار، ويتلقَّفون الدواوين المسرَّبة، ويبيعونها في عشرات الطبعات، دون التفكير طبعاً في حقوق النَّشْر.

اكاد اقول اننى لم احـــدثه فى السياسة . واننى ربما لم أكلمه كثيرا . كنت فقط سعيدا بأن اراه وألمسه واسمعه يتحـــدث ويضحك

ويبكى بشبابه وحيويته وجاذبيتـه الشخصية الشـــديدة . أننى أب

لطفلين ، ولكننى لم اشعر شـعورا حقيقيا بمعنى « فلذة الكبد » الاعندما رأيته ، هذا قطعة منى . فلذة من كبدى حقا . ولست أريد ان أتحدث

عنه مطولا هنا ، فهـــو يكره معظم ما ينشر عنه فى الصحف العربية .

فقط لم استطع ان اسجل هـــذه الأنطباعات عن موسكو دون ان اذكر

الساعات الجميلة التى قضيتها معه .. سائرين فى الشوارع باحثين عن

مطعم نجد فيه طعاما ، أو جالسين فى حجرتى بالفندق نتناجى حتى يكاد ينتهى الليل .

وانا أكتب هذه السطور ، يكون محمود درويش على الاغلب قد عاد

الى اسرائيل ، الى حيفا . حيث محرم عليه مغادرة المدينة . ومحرم عليه

أن يخرج من بيته بعد الثامنة مساء، وحيث يجب أن يتأكد البوليس من ذلك كل يوم .

ان الناضجين من عرب اسرائيل هم أنضج العرب . وهم يحملون على اكتافهم همومنا نحن فى العالم العربى الواسع اكثر مما نحمل همومهم .

ولكن تلك قصة أخرى .. تخرج بنا عن موســــكو ، وعن اليومين السريعين اللذين قضيتهما هناك .

أحمد بهاء الدين

مقال فلذة كبدي لأحمد بهاء الدِّيْن

وانتهى بهاء إلى مطالبة مُنظَّمة التحرير الفلسطينية بنَشْر بيان، تعلن فيه استعدادها لتلقِّي حقوق نَشْر أعمال شعراء الأرض المحتلّة، وأن تُحوِّلها إلى باب محدَّد من أبواب العمل الفلسطيني ...(راجع المقال كاملاً في ملف الوثائق).

من حسن الحظّ أنّ أحمد بهاء كَتبَ في مجلّة "المصوَّر" تفاصيل اللقاء الأوّل مع محمود درويش، وبالتحديد في العدد الصادر في (5 فبراير/ شباط 1971) ضمن فقرات مقاله (موسكو بعد 15 سنة)، وَصف فيه اللقاء بـ "مفاجأة الرحلة الجميلة".

كان درويش يقضي الأيّام الأخيرة في المنحة الدّراسيّة التي نالها في معهد العلوم الاجتماعية بموسكو، وهو معهد (آسيا) الذي زاره بهاء ضمن برامج رحلته، واجتمع هناك مع أسرة التدريس في قسم الشؤون العربية والشرقيّة. التقى بعدها مع درويش في لقاء قال إنه "مؤثّر" بشاعر حيفا والأراضي المحتّلَّة، وفلسطين الشهيدة، وتابع: "عبر زياراتي لمعهد آسيا علمتْ بوجوده، وعلم بوجودي، وكان اللقاء الذي لا أستطيع وَصْفه، أكاد أقول إنني لم أُحدّثْهُ في السياسة، وإنني ربَّما لم أُكلِّمه كثيراً، فقط كنتُ سعيداً بأن أراه وألمسه وأسمعه يتحدَّث ويضحك ويبكي بشبابه وحيويته وجاذبيته الشّخصيَّة الشديدة، إنني أب لطفلَيْن، ولكنني لم أشعر شعوراً حقيقيّاً بمعنى "فلذة الكبد" إلّا عندما رأيتُهُ، هذا قطعة منِّي، فلذة من كبدي حقّاً".

وفي المقال المنشور بملحق الوثائق لهذا الكتاب، يقع القارئ على مزيد من الشَّجَن في اللغة التي كان بهاء يكتب بها. والفقرات فيها إشارة أولى إلى أن درويش كان يكره ما يُنشَر عنه في الصحف العربية، والثانية أن الأستاذ بهاء يقول: "وأنا أكتب هذه السطور (5 فبراير/ شباط 1971) يكون محمود درويش، على الأغلب، قد عاد إلى إسرائيل، إلى حيفا، حيثُ

مُحرَّم عليه مغادرة المدينة، ومُحرَّم عليه أن يخرج من بيته بعد الثامنة مساء، وحيث يجب أن يتأكّد البوليس من ذلك كلّ يوم [48].

لكن المفاجأة أن درويش لم يعد إلى حيفا، واختار أن يأتيَ إلى مصر بعد 4 أيّام فقط من نَشْر مقال أحمد بهاء الدِّيْن.

والسؤال هنا: هل كان الأستاذ بهاء على علْم بخطّة حضور درويش إلى مصر أم كان له دَوْر في إقناعه بالمجيء إلى القاهرة؟

وهل كان طرفاً في المغامرة أو "الصفقة" التي تمَّ تدبيرها قبل ذلك بشهور؟

لا أحد يملك الإجابة على وجه الدِّقَّة، لكنْ، يمكن أن نفسِّر إصرار أحمد بهاء الدِّيْن على رعاية درويش واحتضانه في مصر، ولعب دور (الراعي الصالح)، فقد كان اهتمامه بالقضية الفلسطينية وبالقومية العربية أصيلاً، وتجلّى في عدد من مؤلَّفاته، وأهمُّها كتاب (اقتراح دولة فلسطين)، كما كان من أوائل الأصوات التي دافعت عن عروبة (عرب إسرائيل)، ومن الداعين إلى التعامل معهم، بوَصْفهم "فلسطينيِّيْن مقاومين". ففي المقال ذاته الذي أشار فيه إلى اللقاء مع درويش كَتَبَ بوضوح: "... الناضجين من عرب إسرائيل هم أنضج العرب، وهم يحملون على أكتافهم همومنا نحن في العالم العربي الواسع أكثر ممّا نحمل همومهم".

الشاهد أن بهاء الدِّيْن أظهر اهتماماً بالقضية الفلسطينية لم يُظهِرْه أيُّ كاتب آخر في مصر، وظلّ نَقْد السياسة الأمريكية إزاء فلسطين على رأس أولوياته منذُ بداياته وحتّى توقُّفه عن الكتابة لأسباب صحّيّة، وجاء اهتمامه بالصراع العربي الإسرائيلي منسجماً مع قناعاته كمفكِّر قومي وعروبي [49].

***

48) رشاد كامل: مقالات لها تاريخ، مؤسّسة روز اليوسف، طبعة 2016، مقدّمة المحرِّر.

49) راجع ملخَّص لرسالة د. صابر حارص عن بهاء الدِّيْن، كاتب العمود في كتاب "أحمد بهاء الدِّيْن، باقة حُبّ"، الهيئة العامّة لقصور الثقافة، القاهرة، 1997.

قبل أن تنتهيَ فترة المنحة الدِّراسيَّة التي نالها محمود درويش في موسكو، توطَّدت علاقته مع شخص آخر أقلّ شهرة من بهاء الدّيْن، لكن تأثيره في ملفِّ انتقال درويش إلى القاهرة كان حاضراً في الكواليس، وهذا الشخص هو عبد الملك خليل، مراسل الأهرام هناك.

الذين عرفوا خليل، يرسمون له صورة أسطورية، ويقولون إنه لم يكن "صحفيّاً عاديّاً" فقد عمل على مدى 40 عاماً مديراً لمكتب "الأهرام" بموسكو، وظلَّ قلبه موزَّعاً بين شطرَيْن، وَهَبَ نصفَهُ إلى وطنه، والنصف الآخر إلى روسيا، كما قالت وكالة الأنباء الرُّوسيَّة عند تشييعه في أبريل / نيسان 2009.

قال جميع الذين جاؤوا إلى الملحقية الثَّقافيَّة المصرية، خلال أُمسيَّة تأبينه في 21 ديسمبر/كانون الأوّل 2009، إنه "كان حلقة وَصْل بين شعبَيْن وبين ثقافتَيْن، ومارس دوراً بارزاً في العلاقات بين البلَدَيْن".

ووفْقاً لمعاصريه ولتقارير صَحَفِيَّة كُتِبَتْ عن خليل، وُصِفَ الرجل بأنه كان "حلو السَّجِيَّة طيِّب المعشر ومتواضعاً جدّاً، ويعرف كيف يُثمِّن مُحدّثه، ويبدي الإعجاب بالآخرين". أضِفْ إلى ذلك، فإن سيرته الذّاتيَّة نفسها جديرة بالإعجاب والاقتداء بها. فأرملتُهُ الرُّوسيَّة السّيِّدة تاليا، وَصَفَتْهُ بـ "الرجل الصريح، ولكنْ، كان لديه في دخيلة نفسه عالمه الخاصّ الذي تضمّن الكثير من الأوجاع والآلام".

أمضى الرجل فترة ستَّة أعوام في السجن حين كان طالباً في السنة الأخيرة في الجامعة، بسبب انتمائه لمُنظَّمة شبابية يسارية، لذلك بدا طبيعيّاً أن يصبح الاتّحاد السُّوفييتيّ وجهته كبلد يجسِّد المُثُل العليا لمجتمع الاشتراكية والحُلم. وممّا له دلالة بالغة؛ أن عبد الملك غادر السجن، وتخرَّج في الجامعة في العام الذي زار فيه نيكيتا خروشوف القاهرة، وافتتح مع جمال عبد الناصر السَّدَّ العالي في أسوان ... وأصغى يومئذ إلى الشعارات الصاخبة والمبادرات العظيمة والقَسَم على الوفاء للصداقة بين الشَّعبَيْن.

مراسل الأهرام في موسكو عبد الملك خليل

بدأ خليل حياته الصَّحَفيَّة بالعمل في صحيفة "الأخبار"، وشهد صعود وانهيار الصداقة السُّوفييتيَّة - المصرية، والعناق الوديَّ وعهدَ الاغتراب، وفيما بعد المحاولات لاستعادة ما فُقِدَ.

لكن عمله في مكتب "الأهرام" بموسكو خلال تلك السنوات كما قالت زوجته: "لم يكن ذلك بالنسبة له مجرَّد عمل، بل أداء خدمة وإبلاغ رسالة وخدمة الحقيقة، كما كان يراها ويتفهَّمها، وخدمة الحُلُم والفكرة". ولم تكن مقالاته تتضمَّن انطباعاته الشَّخصيَّة فحسب، ورؤيته أيضاً بصدد ما يجري من أحداث، بل تضمَّنت التحليل الثاقب وعمق الفلسفة، وتحوَّل من صَحَفيٍّ إلى خبير في الشؤون الرُّوسيَّة وخادم لمصالح الدولة المصرية، لذلك أدَّى الكثير من الأدوار التي تخدم هذه القناعة. ففي مقال كَتَبَهُ الدِّبلوماسيُّ المصري الدكتور عزمي خليفة، لرثائه [50] ما يؤكِّد أن عبد الملك خليل كان حلقة وَصْل مهمَّة بين السوفييت ومصر، لدرجة أنه بعد قرار الرئيس السادات طرْد الخبراء السوفييت في يوليو 1972، عُقِدت اجتماعات في بيته، ضمَّت مسؤولين سُوفييت وموظَّفي السفارة المصرية للبحث عن حلٍّ.

لا تعرف الابنة منى عبد الملك، التي تواصلتُ معها، الظروفَ التي التقى فيها والدُها بمحمود درويش خلال وجودهما معاً في موسكو، لكنها تشير إلى أن العلاقة بينهما كانت وطيدة، كما علمتْ من والدها، في المرّات التي أتى فيها الحديث عن سيرة درويش، وكان الأب يتحدَّث عن الشاعر بما يلائم علاقة صداقة وطيدة حافلة بالكثير من الذكريات.

وقالت لي منى: إن أرشيف الأهرام "يعرف أكثر"، وهذا صحيح، إذ تكشف الملفَّات الصَّحَفيَّة كيف أقنع عبدُ الملك خليل درويشَ بِنَشْر قصائده في الأهرام بشكل منتظم، ثمَّ جاءت ترتيبات السَّفَر، وكان معه الظِّلّ في أيَّامه الأولى داخل القاهرة.

---

(50) صحيفة الأهرام 22-4-2009 .

كانت البداية في 31 مايو/ أيَّار 1970، حين نَشَرَ قصيدة، عنوانها (غزال ودم)، قدَّم لها عبد الملك خليل (مرفقة في ملفِّ الوثائق) ومعها لوحة جميلة، رَسَمَها الفنَّان الكبير محمَّد حجي، وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي تنشر فيها "الأهرام" قصائد لدرويش، لكنها لن تكون الأخيرة، لأن "الأهرام" كانت محطَّة أساسية في معادلة العيش في مصر.

الأهرام ٢١/٥/١٩٧٠

غزال ودم!

أحدث قصيدة للشاعر محمود درويش

غزال .. ودم!

رسالة موسكو من:
عبد الملك خليل

الشاعر محمود درويش

أوَّل قصيدة في الأهرام

هنا القاهرة

مات جمال عبد الناصر في 28 سبتمبر/ أيلول 1970، وقبل موته بأيّام كان الشرق الأوسط كلُّه ملتهباً. خاضت المقاومة الفلسطينية حرباً مع قوّات الجيش الأردني الموالية للملك حسين، فيما عُرف بـ "أحداث أيلول الأسود"، ودعا عبد الناصر لقمّة عربية للنّظر في هذا الملفّ.

على جبهة الحرب، جرت مناوشات بين مصر وإسرائيل رغم إعلان مصر قبول مبادرة قدّمتها الولايات المتّحدة الأمريكية في 5 يونيو/ حزيران 1970، عن طريق وزير خارجيّتها وليام روجرز لإيقاف النيران لمدّة (90 يوماً) بين مصر وإسرائيل، وتضمّنت المبادرة أن يدخل الطرفان في مفاوضات جديدة، واستجاب الطرفان لإيقاف النيران في 8 أغسطس/ آب 1970، إلّا أن إسرائيل لم تفِ بالشقّ الثاني والخاصّ بالتفاوض حول تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 242، وسقطت المبادرة في 4 فبراير 1971، حيثُ أعلنت مصر رفضها تمديد وقف إطلاق النيران، واستمرار حالة اللّاسلم واللّاحرب.

أرادت الولايات المتّحدة عبر تلك المبادرة، إيقاف القتال على جبهة الحرب بعد نجاح القوّات المسلّحة المصرية خلال حرب الاستنزاف في إسقاط طائرات حديثة جدّاً - أمريكية الصُّنْع - تابعة لسلاح الجوّ الإسرائيلي. وتحت ضغط الحاجة لتقليل الخسائر البشرية اليومية في صفوف الإسرائيليّين. أمّا مصر، فقد جاء قرارها بقبول المبادرة لاستعمال وقت الهدنة في تحريك حائط الصواريخ على جبهة الحرب مع إسرائيل حتّى تمكّن القوّات المسلّحة المصرية من عبور قناة السويس، وبسبب إعلان

عبد الناصر قبول المبادرة، توتَّرت علاقته مع مُنظَّمة التحرير الفلسطينية، واتَّهمه بعض القادة الفلسطينيِّيْن بالتواطؤ وبيع القضية.

طيلة شهر سبتمبر 1970، تدفَّقت الأخبار كاشفة عن حجم المخاطر التي تواجه المنطقة، ومنها خبر عن تفجير طائرة في مطار القاهرة، بواسطة الجبهة الشَّعبيَّة لتحرير فلسطين، وهي من طراز بوينج بان أمريكا، وخبر آخر عن تحويل مسار طائرَتَيْن سويسريَّتَيْن إلى مطار صغير قرب الزرقا في الأردن، وبعدها تمَّ احتجاز الرُّكَّاب، وفي 9 سبتمبر/ أيلول حُوِّلت طائرة بريطانية إلى مطار الزرقا أيضاً، وبلغ عدد الرهائن 600 رهينة، وطالبَ الفلسطينيون بعدَّة مطالب، أهمّها: الإفراج عن الفلسطينية ليلى خالد، وتكهرب الجوُّ عالميّاً، وأصبح الملك حُسَيْن في موقف حَرِج، وبدا كأنه غير مسيطر، واضطرَّ للتَّحرُّك، وقبل وفاة عبد الناصر بـ 12 يوماً أعلن ملك الأردن الأحكام العُرْفِيَّة، وعُيِّن رئيس الأركان محمود داود رئيساً للحكومة، وبدأت معركة تصفية المقاومة الفلسطينية هناك.

رَغْمَ هذه الأجواء الساخنة نَجَحَ مؤتمر القمَّة العربية في القاهرة يوم 27 سبتمبر/ أيلول في إصدار قرار وَقْف إطلاق النار بين الجانبَيْن، وهكذا أوقف عبد الناصر الحرب بين الفلسطينيِّيْن وقوَّات الملك حسين قبل موته بليلة واحدة.

في تلك الليلة، كان محمود درويش لا يزال مبعوثاً للدراسة في موسكو، وكانت أُمُّ كلثوم هناك تستعدُّ لإحياء حفل غنائيٍّ، ومعها مجموعة من الصَّحَفِيِّيْن.

تُظهِر الصُّحُف صوراً كثيرة لأُمِّ كلثوم وهي تبكي بكاءً حارّاً ليلة موت "جمال"، لكن الصُّحُف لا تعرف شيئاً عن الكيفية التي قضى بها درويش تلك الليلة الفارقة.

لم يكن موت عبد الناصر حَدَثاً عاديّاً للجميع، بمَنْ في ذلك أعداؤه

الذين كانوا يحترمونه أيضاً، وعلينا أن نتخيَّل أثر هذا الخبر على شاعر فلسطيني شابٍّ، تلقَّى وعداً بأنه سيكون ضيف عبد الناصر في القاهرة، وأنه لن يعود مجدَّداً إلى إسرائيل.

تلقّى درويش نبأ موت عبد الناصر وهو في موسكو، وتولّى إبلاغه لرفيقه ومعلّمه إميل توما الذي كان يُراجع رسالته للدكتوراه عن الوحدة العربية، وكان درويش بتعبيره في الرسائل التي كَتَبَهَا إلى سميح القاسم يدرس كتاب "رأس المال" لكارل ماركس صفحة صفحة، بافتنان، وقد كَتَبَ: "كنتُ أوَّل مَنْ أبلغ توما نبأ وفاة عبد الناصر، فقال: هذا ليس معقولاً! سيأتي السادات! وبعدها قضيْنا أكثر من مساء طويل، نستمع إلى التريو لتشايكوفسكي"[51].

وفي كتابه: "ذاكرة للنسيان" الذي كَتَبَهُ بعد تلك اللحظة بسنوات طويلة، وَصَفَ ناصر بأنه "الكبير الذي خاطب في سُكَّان هذه القارَّة المجهولة فسيفساء حاسَّة الغياب المرهفة، وسمَّى من النهر ضفافاً، يخفي ما في النهر من وَحْل، وطوائف، ونفايات صليبيِّيْن، كانت تجدِّد حياتها في هدوء الظلام، خلف دَوِيّ الخطاب".

بعدها كَتَبَ درويش قصيدة "الرجل ذو الظِّلّ الأخضر"، وهي واحدة من أكثر مرثيَّات جمال عبد الناصر تأثيراً وجماهيرية:

نعيشُ معكْ
نسيرُ معكْ
نجوعُ معكْ
وحين تموت
نحاولُ ألّا نموتَ معكْ!
ولكنْ،

(51) محمود درويش، رسالة إلى سميح: كتاب الرسائل، ص 54.

لماذا تموتُ بعيداً عن الماء
والنيلُ ملءُ يَدَيْكْ؟
لماذا تموتُ بعيداً عن البرق
والبرقُ في شفتيْكْ؟
وأنتَ وَعَدْتَ القبائلْ
برحلةِ صيفٍ من الجاهليهْ
وأنتَ وَعَدْتَ السّلاسل
بنار الزُّنُود القويّهْ
وأنتَ وَعَدْتَ المقاتل
بمعركةٍ .. تُرجِعُ القادسيّهْ
نرى صوتَكَ الآن ملءَ الحناجرْ
زوابعَ
تلوَ
زوابعْ ...
نرى صدركَ الآن متراسَ ثائر
ولافتةً للشوارع
نراك
نراك
نراكَ ...
طويلاً
.. كَسُنْبُلَةٍ في الصعيد
جميلاً
.. كمصنعِ صَهْرِ الحديد
وحُرّاً
.. كنافذةٍ في قطارٍ بعيد ..

ولستَ نبيّاً،
ولكنّ ظلَّكَ أخضر
أتذكرُ؟
كيف جَعَلْتَ ملامحَ وجهي
وكيف جَعَلْتَ جبيني
وكيف جَعَلْتَ اغترابي وموتيَ
أخضر
أخضر
أخضر ...
أتذكرُ وجهي القديم؟
لقد كان وجهي يُحنَّط في مَتْحف إنجليزي
ويسقط في الجامع الأُمويّ
متى، يا رفيقي؟
متى، يا عزيزي؟
متى نشتري صيدليَّهْ
بجُرح الحسين ... ومجد أُميَّهْ
ونُبعثُ في سدّ أسوان خبزاً وماء
ومليون كيلواط من الكهرباء؟
أتذكرُ؟
كانت حضارتُنا بدوياً جميلاً
يحاولُ أن يدرسَ الكيمياء
ويحلمَ تحتَ ظلال النخيل
بطائرةٍ .. وبعشر نساء
ولستَ نبيّاً
ولكنَّ ظلَّكَ أخضر ..

[illegible] معك

نسيرُ معكْ

نجوعُ معكْ

وحين تموتُ

نُحاوِلُ ألّا نموتَ معكْ

ففوقَ ضريحكَ ينبتُ قمحٌ جديد

وينزِلُ ماءٌ جديد

وأنتَ ترانا

نسير

نسير

نسير.

***

في العام الأوّل الذي قضاه الرئيس السادات رئيساً لمصر، لم يُغيِّر كثيراً في الخطوط العريضة لسياسة مصر العربية، وكان رجال عبد الناصر لا يزالون في مواقعهم، وظلَّ مراد غالب كذلك في مكانه سفيراً لمصر في موسكو، لذلك لم تتغيَّر خطَّة انتقال درويش من موسكو للعيش في القاهرة.

***

قبل أن يغادر موسكو، اجتمع درويش في سهرة وداع مع رفاقه العرب في شُقَّة الكاتب السُّوريِّ سعيد حورانية، بمناسبة انتهاء فترة دراسته في المدرسة الحزبية العليا التي كان يتعلَّم فيها المبعوثون من الدول الأجنبية[52].

ضمَّت السهرة سعيد مراد مراسل الطريق اللُّبنانيَّة والمستعربة (ماشا)

---

52) موقع (براقش) الإلكتروني.

التي قامت بترجمة وإصدار مجموعة من أشعار درويش باللغة الرُّوسيَّة لاحقاً.

على الرَّغْمِ ممّا تردَّد عن إصرار درويش على تجنُّب مخالطة الطُّلَّاب والعاملين العرب، بحُكْم أن وجوده كان محاطاً بدرجة من السِّرِّيّة، فإنه في تلك الليلة ألقى بعض قصائده، وبدا "لطيفاً وحُلو المعشر"، وأصغى باهتمام إلى أحاديث الآخرين معه، لكنه كان، في الوقت نفسه، شارد الذهن، وغالباً ما كان يختلي مع عبد الملك خليل مراسل "الأهرام" بموسكو، ويدور بينهما حديث خاصّ. لكنه أكّد للحاضرين بأنه عائد إلى إسرائيل.

وبعد أيّام، اكتشف كلُّ مَنْ حَضَرَ السهرة أن الشاعر توجّه من موسكو إلى القاهرة بدلاً من العودة إلى حيفا.

يعتقد فيصل حوراني أن درويش تمكّن من تغيير وجهته في أحد المطارات بمعاونة أفراد كلّفتْهُم السلطات المصرية بذلك، ثمَّ وَصَلَ إلى مطار بيروت، واتّجه منه القاهرة، حيثُ أعلنت وسائل الإعلام الرّسْميّة عن وصوله مساء التاسع من فبراير / شباط 1971.

الوصول في الوقت الخطأ

حين اتّخذ الشاعر قراره بالسَّفر إلى القاهرة كان يريد المُضيَّ في المغامرة إلى النهاية، واختار ألّا يموت حُلْمه في الخروج من فلسطين المحتلَّة.

آمن درويش بأنه سفير فلسطين للعالم في تلك اللحظة التَّاريخيَّة، وراهن على أن تكون القاهرة هي وجهته بعد أن انتهت مرحلة موسكو.

كان يتابع تحدِّيات المقاومة الفلسطينية، وتحدِّيات العمل الفدائي بعد معركة (الكرامة)، وعرف أن الصورة بعد (أيلول الأسود) 1970 بالغة التعقيد، فقد جَرَت المواجهات بين الفدائيِّيْن الفلسطينيِّيْن وقوَّات من الجيش الأردني فيما سُمِّيَ وقتها بـ"الأحداث المؤسفة"، ورأى أحمد بهاء الدِّيْن أن المهمّة الرَّئيسيَّة المطروحة وقتها على أجندة السِّياسة المصرية هي: "فرض الحقيقة الفلسطينية على العالم" باعتبارها أهمّ سلاح في معارك المستقبل.

وعلى غلاف مجلَّة "المصوَّر" ظهرت كلمة للرئيس السادات، قال فيها: (كلانا يده في النار، وغيرنا يمدُّ يده في الماء)، أمَّا العنوان الرئيسي، فقد كان "قادة الفصائل الفلسطينية بعد أيلول الأسود جاؤوا يردُّون على دعوى الانقسام بين الشَّعبَيْن الفلسطيني والأردني"، ما يؤكِّد أن القاهرة قد أصبحت المدينة التي تُعدّ جدول أولويات المقاومة الفلسطينية. فقد كان آخر ما قام به عبد الناصر قبل موته؛ أنه تحوَّل من زعيم للتَّحرُّر العربي

إلى وسيط بين الأنظمة والحُكّام العرب، وإن ظلّ يُنظر إليه كزعيم، وإلى مصر باعتبارها "الدولة القائدة للأُمّة العربية [53]".

***

ارتضى الشاعر في تلك اللحظة الحرجة من تاريخ الصراع مع إسرائيل الوقوف تحت تحت لافتة "الشاعر البطل المقاوِم"، لكنه تنبّه إلى ما قد يصيبه من خسائر على الصعيد الفنّيّ، إذ صرّح لفؤاد مطر في لقاء بملحق النهار البيروتية : "أرجو أن تضعوني في حجمي الطّبيعيّ، وأرجو أن أنسحب من هذه الأضواء المبالغ فيها، أنا لستُ سياسيّاً محترفاً، كما صوّرتْني بعض الصُّحُف العربية في الأسابيع الأخيرة إلى درجة المبالغة، وإلى حدِّ مطالبتي بحَمْل كلِّ القضية الفلسطينية" [54].

قبل ذلك بنحو عام، طالب الجميع بالتعامل مع الأدب الفلسطيني انطلاقاً من معايير فنّيّة، وأطلق صرخته الشهيرة التي نشرَتْها الآداب "أنقذُونا من هذا الحُبِّ القاسي"، وأعادت مجلّة الطليعة في مصر نَشْرَها في أبريل/نيسان1969 .

على الرَّغْم من وعيه الحادّ بإثمان تلك اللحظة، فإنه حضَرَ إلى القاهرة، وقت أن كانت مصر بحاجة إلى صورته وسط رجال دولتها وبين مثقّفيها، لتُنجز خطّتها في "الدعاية السوداء" بتعبير السّيّد محمد فائق وزير الاعلام آنذاك، والذي ظَهَرَ إلى جوار محمود درويش في المؤتمر الصَّحَفِيِّ الذي عُقد بمناسبة وصوله، في مطار القاهرة، وبثّهُ التليفزيون العربي، وإذاعة صوت العرب إلى العالم.

---

(53) محمد العجاتي ورقة بعنوان: الناصرية والهزيمة: انتكاسة أم انهيار للمشروع العربي؟، ضمن كتاب "تشريح الهزيمة.. حرب يونيه بعد خمسين عاماً"، تحرير خالد منصور، دار المرايا، 2017، القاهرة، ص 81 .

(54) شربل داغر: مرجع سابق، ص 80.

الصورة من أرشيف الأهرام، تصوير: إميل كرم

يقول الناقد اللُّبنانيُّ شربل داغر في هذا السياق؛ كان من المؤكَّد أن كثيراً من أفراد النُّخبة المصرية السِّياسيَّة النشيطة من أمثال أحمد بهاء الدِّيْن ومحمَّد حسنين هيكل ولطفي الخولي وغيرهم، كانوا منتبهين لحاجتهم لدرويش في تلك السنوات، التي شهدت حرب الاستنزاف، فقد كان تلميع الشاعر يُسهِمُ، من دون شكٍّ، في هذه السياسة "الرَّمزيَّة" أي سياسة "الحرب بالصورة [55]".

***

لم يشأ السَّيِّد محمَّد فايق، وزير الإعلام، الذي استقبل درويش، وظَهَرَ إلى جواره في المؤتمر الصَّحَفِيِّ، في الاتِّصال الهاتفي الذي جرى بيننا؛ الحديث عن "صفقة مدبَّرة" في تجربة مجيء محمود درويش للعيش في مصر في فبراير/ شباط 1971، ورَفَضَ الخوض في التفاصيل مكتفياً

55) شربل داغر: المرجع السابق، ص 80.

وصــول درويــش إلى
القاهــرة في الأهــرام

خلاله (اعتزاز مصر مسؤوليها ومثقّفيها بالشاعر الكبير، وباختيار القاهرة مقرّاً لإقامته، وقاعدة لنضاله).

***

بدا لأيّ قارئ حصيف للصُّحُف المصرية خلال تلك الفترة، أن ثمَّةَ خطّة واضحة لوَضْع محمود درويش على مسرح "الأحداث"، وتجهيزه كـ "نجم"، فقبل وصوله كان قد التقى الشّاعر الفلسطينيُّ الراحل معين بسيسو في موسكو، وتوجَّه معه إلى نيودلهي لحضور مؤتمر أدبي، ومن موسكو، كَتَبَ بسيسو تغطية صَحَفِيَّة، ونَشَرَهَا على مساحةٍ كبيرةٍ في الأهرام، عنوانها: "القبَّعة هي الكأس، والحقيبة هي الوطن"، وهو عنوان مأخوذ من تصريح لمحمود درويش(57)".

في نيودلهي أيضاً تمكّن الكاتب الرِّوائيُّ بهاء طاهر، حين كان يعمل مخرجاً في إذاعة البرنامج الثاني، من حضور المؤتمر ذاته، والحصول على تسجيلات صوتية لقصائد، قدَّمها درويش هناك، من بينها قصيدته في رثاء جمال عبد الناصر التي أذاعتْها الإذاعة بصوته.

درويش في نيودلهي

في أسوان قبل القاهرة

الشائع في المَرويّات التي تناولت قصّة حضور درويش إلى القاهرة؛ أنه ظهَرَ لأوّل مرّة في مؤتمر صَحَفيّ، عُقد بالقاهرة عقب وصوله مباشرة، لكن الإذاعيَّ عبد الوهاب قتاية في مقال كَتَبَهُ عقب وفاة درويش بأسبوعَيْن، فجّر مفاجأة، لم يلتفت إليها أحد، وهي أن "المؤتمر الصَّحَفيَّ ليس هو بداية حياة محمود درويش في مصر، فـ "هناك صفحة لم يُعلَن عنها في المؤتمر أو بعده، ولم يعرفها سوى ثلاثة أشخاص، هم شهودها، ومحتوى هذه الصفحة المجهولة أن درويش وصَلَ إلى القاهرة قبل أسبوع كامل من المؤتمر الصَّحَفيّ[58]".

فما سرُّ هذا الأسبوع؟

وما الذي جرى فيه؟ وأين نزل أو أُنزل؟ وكيف قضى أيّامه؟ ومع مَنْ؟

يجيب قتاية عن هذه الأسئلة كأحد شهود العيان قائلاً: "كانت البداية في ضحى اليوم الخامس أو الرابع من فبراير/ شباط 1971، حين استُدعيتُ إلى مكتب مدير إذاعة صوت العرب الأستاذ محمّد عروق، ولاحظتُ وجود ضيف، لا أعرفه".

وقتذاك كان قتاية مديراً لمَا كان يُسمَّى بوحدة البرامج العقائدية، وله ميول أدبية معروفة، لذلك سأله عروق عن مدى متابعته لشعراء المقاومة في الأراضي المحتلّة؟ ولمّا أفاض في الإجابة، عاد وسأله عروق مجدّداً

58) صحيفة العربي الناصري: 28 أغسطس /2008.

من الأسماء التي يتابعها، فاختار قتاية اسم محمود درويش، وهنا قاطعهُ مديرَه، وقال مشيرا للجالس أمامه: إذنْ، سلِّمْ عليه!

كان الجالس في الغرفة هو محمود درويش بشحمه ولحمه. يقول قتاية "تعانقنا بحرارة. كان نحيلاً جداً، ورقيقاً كالطَّيف، حتّى إنني أشفقتُ عليه وأنا أعانقه أن تتكسّر عظامه بين ذراعَيَّ".

بتعبيره كان الموقف عاطفيّا جدّاً، وغامضاً، ومثيراً للتساؤلات، ولعلامات استفهام، وأفكار عديدة، قطع تداعيها الأستاذ عروق قائلا: الأستاذ درويش وصل أمس، وسيبقى معنا، لكننا لم نعلن وصوله، ولن نعلن ذلك إلّا بعد فترة راحة، يستجمع فيها قواه وأعصابه ونفسه المُرهقة، لذلك رتّبنا له رحلة استجمام في الأقصر وأسوان، وستكون أنت مرافقه في الرحلة، ومعك الزميل فؤاد فهمي من صوت العرب، وعبد الملك خليل مراسل الأهرام في موسكو الذي رافق درويش في رحلته إلى القاهرة.

***

تجوّل درويش في الأقصر بصحبة رفاقه، ذهب إلى مقابر وادي الملوك، ورافقتْهُ هيبة المكان، لكنه اعتذر عن عدم الهبوط إلى مقبرة توت عنخ آمون في جوف الأرض. وفي أسوان، كما يروي قتاية، نَزَل الوفد في فندق كتاراكت التّاريخيّ، وزار السّدّ العالي الذي ورد ذكْره في مرثيّته لجمال عبد الناصر.

يقول قتاية إنه همَس لدرويش قائلاً: لو كان عبد الناصر حيّاً، لاستقبلك الآن، كما فعل مع فدوى طوقان! فكان جوابه ليس أكثر من نظرة عميقة تقطر أسى.

من المواقف التي رواها قتاية في مقاله، موقف دالّ على "رعاية" الدولة المصرية ورجالها لدرويش حتّى قبل الإعلان رسْميّاً عن وصوله.

يقول الإذاعي الشهير: "دُعينا إلى حفل غداء، فلمّا دخلنا القاعة، فُوجئنا بالسَّيِّد شعراوي جمعة، وزير الدَّاخليّة - وكان في زيارة إلى أسوان - يقوم من مقعده حول المائدة، ليُرحِّب بشاعر المقاومة ترحيباً حانياً".

مثيرٌ هذا المشهد الذي يجعل وزير داخلية أكبر بلد عربي يقوم للترحيب بشاعر "ترحيباً حانياً".

هل هذا يؤكّد ما قالتهُ ليلى شهيد من أن درويش نال جوازَ سَفَر مصريّاً؟ حيثُ تتولّى وزارة الدَّاخليّة وحدها مهمّة إصدار جوازات السَّفَر!!

لا أحد يعرف بالضبط.

***

لم يتأثَّر درويش من "ترحيب شعراوي جمعة"، لأن ما أثَّر فيه أكثر، كانت زيارته إلى مدرسة ابتدائية متواضعة، مع مرافقيه، وفي أحد فصولها؛ استقبلهم مُعلِّم الفصل بحفاوة، ثمَّ أشار إلى تلاميذه، فغنّوا جميعاً قصيدة درويش "وطني يعلّمني حديد سلاسلي/ عنف النسور، ورقة المتفائل/ ما كنتُ أعرف أن تحت جلودنا/ ميلاد عاصفة وعرس جداول".

***

بعد رحلة الاستجمام بين الأقصر وأسوان، أعلنت صُحُف القاهرة رسْمياً عن وصول درويش (9 فبراير/ شباط 1971)، وظَهَرَ في المؤتمر الصَّحَفِيّ الذي عُقد خصِّيصاً لإعلان استقراره في مصر، لتبدأ بعد ذلك أيّامه القاهرية.

نَشَرَت الصُّحُف قرارَ محمّد فائق، وزير الإعلام، بتعيين درويش مستشاراً ثقافيّاً لإذاعة "صوت العرب" عقب وصوله، ونُشر القرار يوم 14 فبراير/ شباط 1971.

وحدة جديدة لرفع انتاج مصنع أبي زعبل الى ٢٠٠ الف طن سنويا

تعارف لطلاب مدينة البعوث الاسلامية

مؤتمر صحفي لمحمود درويش شاعر الأرض المحتلة

قضية فلسطين خنجر في ضمير الانسانية

حلمي السعيد يزور دول أوربا الشرقية واليونان

باتاكوس يزور السد والمنشآت الصناعية في أسوان

اتحاد المهندسين العرب يبدأ اجتماعاته اليوم بالقاهرة

استنكار لزو لاوس من المجلس القومي للسلام

واتحاد المحامين العرب

تغطية الأهرام للمؤتمر الصَّحَفِيِّ

من الشرفة التي سَكَنَهَا في فندق شيراتون، فوجِئ درويش بأن القاهرة أجمل ممَّا تصوَّر، تفتح قلبها بحنان لكلِّ زائر، بقَدْر ما هي عريقة وأليفة، وقال: "ثَمَّةَ مُدُن سرعان ما تملّها، وثمّة مُدُن تستعصي على المُداعبة في البداية، ولكنَّها إذا فتحتَ قلبَهَا أسَرَتْكَ، أمَّا القاهرة، فإنها سريعة الحُبِّ، ولكنَّ حُبَّها مقيم ودائم".

حـوار

«غيرت موقعى .. ولم أغير موقفى»

أول حديث مع محمود درويش - شاعر الارض المحتلة - فى القاهرة

أجرى الحوار
معين بسيسو

فى ذكرى ضرب مصنع ابو زعبل

مواقيت الصلاة

مقابلة مع معين بسيسو في الأهرام

أحببتُ القاهرة كما أُحبُّ حيفا، ووَجَدْتُ أن جمال القاهرة كان مشوباً بالحزن، كأنكَ تشعر أن في قلبها شيئاً مكسوراً (59)".

بعد عامَيْن من الوصول إلى مصر، أشار درويش في مقابلة، هي الأولى مع تليفزيون المغرب، أنه في أوَّل صباح له في القاهرة " نزل إلى الشارع، وطاف

59) مازن النقيب: حوار مع هؤلاء، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة 1996، الحوار بدون تاريخ، ص192: 209.

المدينة. واشترى صحيفة الأهرام التي نَشَرَت نبأ وصوله في صفحة مخصَّصة للأخبار الرَّسْميّة، تُسمَّى صفحة "الدولة". إلَّا أن ما أثاره أكثر من أيِّ شيء هو "أن الصُّحُف التي كانت موجودة على الرصيف كانت كلُّها عربية [60]".

ولأوَّل مرَّة رأى الصُّحُف والمجلَّات العربية، دون أن تكون بجوارها صُحُفٌ عبرية وأجنبية، وأحسَّ ساعتها ماذا تعني عبارة: " الأرض بتتكلّم عربي".

كانت القاهرة أوَّل مدينة عربية يدخلها، وظلَّ طويلاً يتذكَّر دهشته تلك، حين وَقَفَ لأوَّل مرَّة أمام فرشة الصُّحُف والمجلَّات عند مدخل مكتبة مدبولي في ميدان طلعت حرب.

تقول صديقته الكاتبة الصَّحَفِيَّة منى أنيس، التي تسكن على مقربة من الميدان: "لقد بُهِتَ درويش بهذا المشهد تماماً [61]".

أمَّا هو، فقال: "عندما دخلتُ القاهرة، سَحَرَتْني كأيِّ مواطن عربي، فقد رأيتُ مدينة بكاملها تتكلَّم العربية، ورأيتُ أسماء الشوارع باللغة العربية، فمسَّني ذلك مَسّاً عاطفيّاً، كان بعيداً عن كلِّ الضغوطات الوطنية والشَّخصيَّة. كان هناك تأهُّب نفسيٌّ للالتقاء بروحي العربية [62]".

***

نَشَرَت "الأهرام" بعد ساعات من إعلان وصوله حواراً معه، أجراه معين بسيسو بعنوان: "غيَّرتُ موقعي، ولم أُغيِّر موقفي". والأرجح أنه أُجرِيَ في موسكو، وليس في القاهرة.

وكرَّر الشاعر نفس الأفكار والآراء التي تضمَّنَتْها كلمته في المؤتمر الصَّحَفِيِّ الذي تمَّ تنظيمه عقب وصوله إلى القاهرة.

---

60) مقابلة في برنامج آفاق، محطَّة التلفزة المغربية، القناة الأولى، تقديم محمَّد مصطفى القباج.

61) حوار مع منى أنيس بشُقَّتها في وسط القاهرة.

62) محمود درويش، حاضر حضارك، إعداد وتقديم محمَّد شاهين، المؤسَّسة العربية للدراسات والنَّشر، عمَّان، الطبعة الأولى 2019، ص88.

عقاب الشاعر

في الأراضي المحتلّة لم يتمّ استيعاب صدمة المفاجأة، وصَدَرَ بيانٌ من سكرتارية منطقة حيفا، جاء فيه أنّ سكرتاريةُ منطقة حيفا للحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي بَحَثَتْ في أسباب تَرْكِ الشاعرِ محمود درويش - عضو الحزبِ الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي - البلاد وانتقاله إلى القاهرة، الأمر الذي جرى بدونِ معرفةِ الحزبِ.

وانتقد الحزب هذه الخطوةَ، واعتبرها غيرَ صحيحةٍ، ومخالفة لواجباته. وقرّرتْ سكرتاريةُ منطقةِ حيفا فَصْلَه، وقال البيان: "يُناضِلُ ضدَّ سياسةِ التمييزِ القوميِّ والاضطهادِ البوليسيِّ الذي تقومُ بِهِ الأوساطُ الحاكمةُ في إسرائيل والموجَّهة ضدَّ المثقَّفين العربِ الدِّيمقراطيّيْن، هذه السياسة التي قاسى منها محمود درويش بشكلٍ خاصٍّ، فلمدَّةٍ متواصلةٍ، فُرِضَ عليه الاعتقالُ المنزليُّ والإقامةُ الجبريَّةُ في حيفا، كما اعْتُقِلَ من وقتٍ لآخر، بشكلٍ تعسُّفيٍّ إلى حَدِّ عدم الاعتراف بأنّه ذو جنسيةٍ إسرائيلية. ولكنَّ هذه السياسةَ وهذه الإجراءات التَّعسُّفيَّة، التي تقومُ بها الأوساطُ الحاكمةُ لا تُبرِّرُ خطوتَهُ هذه، وهي هجر البلاد، وترْك ساحة النضال داخل إسرائيل". [63]

كما أحدثت مشاركة درويش ضمن وفد الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي

---

63) رجاء النَّقَّاش: محمود درويش شاعر الأراضي المحتلّة، دار الهلال، *القاهرة*، طبعة *1968* ، ص315.

برافدا: أميركا تريد إبقاء الاحتلال الاسرائيلي أطول مدة ممكنه

الاتحاد

المبادرة المصرية - لمصلحة السلام

غولده مئير: لن ننسحب من القناة قطعيا

محمود درويش في القاهرة:

غيرت موقعي ولم أغير موقفي

الصفحة الأولى من جريدة الاتِّحاد من أرشيف سهام داوود

في مهرجان الشبيبة (صوفيا) 1969 لَغَطاً، أحدثَ قراره بالسَّفَر إلى القاهرة لَغَطاً من نوع آخر.

وأثار سَفَره المفاجِئ إلى مصر انتقادات واسعة داخل الأراضي المحتلَّة وخارجها، وكَتَبَ الشاعر: "لم أكن أتخيَّل حتَّى في أشدِّ لحظات الخيال تحليقاً، أن قصَّة حياة شاعر ستتحوَّل إلى إحدى القضايا الرئيسية في حياة

غلاف مجلّة الحوادث

العرب. حَدَثَ ذلك في الجاهلية؟ فهل يُراد لنا أن نعود إلى الجاهلية؟! هذا هو السؤال".

كان أشرس ما تعرَّض له من مجلَّة الحوادث اللُّبنانيَّة التي وَضَعَتْ صورته على الغلاف في عدد 26 فبراير/ شباط، حيثُ كَتَبَ "ربيع مطر" مقالاً بعنوان: "ليته يعود إلى إسرائيل".

ما تشير إليه "الحوادث" في تبرير موقفها "أنها فُوجِئَت بقرار درويش إعلان هجرته لفلسطين، ولجوئه إلى القاهرة"، ليكون - حسبه - "أكثر قرباً من فلسطين بعدما أصبح مشلول الحركة والحُرِّيَّة من ضراوة الكَبْت والتَّعصُّب الإسرائيلي".

وقالت المجلَّة "إن غلافها (وعليه صورة درويش) كان قد أُعِدَّ لتصدر به المجلَّة عندما ينعقد المؤتمر الوطني الفلسطيني في القاهرة، ويُفاجَأ العالم بعضوية درويش ممثِّلاً عن عرب فلسطين المحتلَّة قبل 1948".

وأوضحت المجلَّة أنها كانت ولا تزال تعتبر محمود درويش "ظاهرة تألَّقت في أحلك لحظات اليأس، لتؤكِّد أصالة أُمَّتنا العربية وصلابة الشعب الفلسطيني الذي صَمَدَ بعروبته ضدَّ أبشع أنواع السَّحْق القوميِّ والعنصريِّ"، وقالت: "في أشعاره كان دائماً ضدَّ السَّفَر من فلسطين" بل نَشَرَت المجلَّة في العدد نفسه مقابلة، أجراها معه من موسكو الكاتب والناشر أحمد سعيد محمَّديَّة (وهو ناشر من أصل فلسطيني، ذَهَبَ سنة 1963 إلى بيروت، وانضمَّ إلى أسرة تحرير مجلَّة الحوادث محرِّراً لصفحتها الأدبية، ثمَّ انتقل إلى صحيفة الأنوار، وفي سنة 1970 ترك الوظيفة، وأسَّس دار العودة التي نَشَرَت الأعمال الأولى لدرويش، وأتاحتْها لكلِّ عربي.

في هذه المقابلة كان رأي درويش ضدَّ الهجرة من فلسطين.

تساءلت المجلَّة: "فلماذا غيَّر رأيه؟ واختار - على حَدِّ زعمها - "أن ينضمَّ لقافلة الذين يبتعدون عن وطنهم، ليكونوا أكثر قرباً منه".

ادب

آخر لقاء مع محمود درويش قبل ان يتخذ قراره بالهجرة!

رفض والدي أن يبيع أرضه وأبى ان يقبض حوالة وضعت باسمه في ... البنك !!

مقابلة اجراها في موسكو: احمد سعيد محمدية

امضيت في موسكو وبقية مدن الاتحاد السوفياتي ١٥ يوما مليئة ورائعة، وكان ابلغ تلك الايام في نفسي هو اليوم الذي احتشد القلب فيه بكل مشاعر البشر والوطن حيث التقيت محمود درويش شاعر المقاومة الفلسطينية، ذلك الفتى الحزين المبدع، الذي شحن بأحاسيس ابن الوطن المقهور الغريب في وطنه المحتل، بأحاسيس ابن المنفى المعذب بالمهاجر الغربية عبر اثنتين وعشرين سنة سوداء.

من حيفا حيث يسكن جاء محمود درويش... مسلم امانة جريدة «الاتحاد» التي يرأس تحريرها الى زميله سميح القاسم، وترك حيفا بعد مماطلة السلطات الاسرائيلية، وبعد ان كانت قد مورست عليه كل انواع المضايقات النفسية والفكرية والجسدية، لعل اقلها عدم السماح له بمغادرة حيفا، وعدم السماح له بالخروج من بيته اذا جاء الليل، وضرورة اثبات وجوده في المخفر كل ساعة.

وفي الساعة الخامسة طرق محمود باب غرفتي وطل علي بوجهه النحيل المجروح، وبرفقته ذلك الشاب النحيل الصامت الذي بدا اسمه يلوح على ارض الفن الفلسطيني في الوطن المحتل نبيل عودة.

اطلنا الشرود المديد عنقنا وحدقنا ولهفة... عناق المقاتلين الذي لم يعرف الا هم طعم الفراق ولون السنين العجاف السود... عناق السجين في وطنه مع ابن الوطن المنفي من ارض الوطن، ودموع الغريب مع الغريب في ارض الغربة، ولهفة وشوق الارض للارض... الارض المقهورة مع الارض المنثورة.

وتصورت نفسي ومحمود وكأننا نعيش ذروة من ذرى التفاعل بين الانسان والانسان من ابناء الوطن الواحد، واننا نحلل في تلك اللحظة الفارقة، الفاجعة الفلسطينية التي سلطت على طفولتنا وشبابنا حتى طلعت حياتنا بها وبأحزان البشرية كلها من خلالها.

قال محمود:

«صحيح ان قضية الوطن قضية كبيرة، وهي تظل وجود الانسان الفكري والنفسي والمزاجي، ولكننا احيانا نرى الوطن في الاشياء الصغيرة. يخيل لي ان العقيدة الثورية التي تظل رؤيانا للوطن تتوزع فوق مساحة كبيرة خارقة الاتساع، تبدأ من اعلى قمة يستطيع العقل البشري الوصول اليها تحليلا وتخطيطا وتنتهي عند البسائط من الامور.

ومضى الحديث بيننا وبين محمود ثم امسك بمجموعة من الكتب التي احضرتها له من بيروت، ومن بينها مجموعة دواوينه السبعة التي طبعتها «دار العودة»، وهزه هذا الاحتفاء الفني المتجسد بالدواوين وخاصة المجلد الكبير الذي يجمع شعره كله، وبدأ يمسك كل ديوان على حدة بلهفة وكأنه اب يأخذ بين يديه طفلا من اطفاله، وبدأ يتطلع في قصائد كل ديوان على حدة، وكأنه يتطلع في مرآة نفسه ليرى صورة هذه النفس.

وارتفع صوته فجأة ليقرأ شيئا من ديوانه «حبيبتي تنهض من نومها» «آت الى ظل عينيك»:

أنا آت الى ظل عينيك ... آت
من غبار الاكاذيب ... آت
من قشور الاساطير آت
انت لي. انت حزني وانت الفرح
انت جرحي وقوس قزح
انت قيدي وحريتي
انت طيني واسطورتي
انت لي. انت لي ... بجراحك
كل جرح حديقة!
انت لي. انت لي ... بنواحك
كل صوت حقيقة.
انت شمسي التي تنطفئ،
انت ليلي الذي يشتعل
انت موتي، وانت حياتي
وسأتي الى ظل عينيك ... آت!

● كل ما اكتبه الآن غزل ... انما مفهوم الغزل اتسع وتصل لاصبح يشمل كل ما في الحياة ... ان حبيبتي هي الارض، وانا اتغزل بها ... بالوطن والانسان والقيم.

● ان المرأة تجسيد لكل المعاني التي ذكرت، ولا يمكن فصل صورة الارض عن صورة المرأة ... اليست الارض هي الام وهي المعشوقة؟!

● ان تفاؤلي ليس تفاؤلا بروح المرحلة الراهنة ... تفاؤلي تاريخي ... انني مؤمن ان حركة التاريخ لا بد ان تتجه في مسارها الطبيعي، ولا بد بالتالي ان توضع الاشياء في مواضعها.

● صوتي ليس فريدا، وانما هو نغم واحد من جوقة الشعراء العرب الفلسطينيين، هذا بغض النظر عن بعض التفاصيل والملاحظات.

«كوني موجودا في صميم لحم الوطن فقد حرمني وحرم زملائي ايضا مما يسمى الوقوف طويلا امام موضة القلق العصري، والمناقشات الديوانية حول الشعر ورسالته.

نحن نكتب الشعر، وليس مهما كثيرا أن نعرف لماذا وكيف نكتب ... اننا نصرخ وننزف ... وليس لدينا وقت للسقوط او الانكسار او الانهزام النفسي ... اننا نخوض المعركة فان لم نتسلح بتفاؤل تاريخي وبحوافز تشد العقد في معركة التحدي لكيف نبقى ...

● التحدي الاول والاساسي هو ان ابرهن لنفسي، ولنفسي اولا: هل هذا هو وطني ام لا ...

كل يوم اواجه تحدي الايقاع بيني وبين وطني. انني انظر في كل شجرة وحجر وشارع وتلة ونلم فلا اجد نفسي ... لا اجد ماضي، ولا اجد شعبي، ولا اجد وجهي ولا اجد يدي، واحيانا لا اجد لساني.

لمن انا ... ان الهلاك بلادي، ولكن الواقع يحاول اقناعي بأن هذه الحقيقة تنتمي الى الماضي والمستقبل عندي الآن مليء بالوعود.

انا الآن واقف في هذه الدوامة، دوامة اصالة الماضي، وطراوة الجرح وخطر السكين، والعنف والتحدي والاختناق.

ان العالم يتحدث على الارض الفلسطينية اليوم. او ما اصطلحنا على تسميته فيما في ما يتعلق بالعمق والحق.

● التحدي هنا ليس سهلا ... ليس سهلا كما يبدو للوهلة الاولى ... السه في مكوى القسوة ... ان تكون حبيبتك خنجرا ليس سهلا، وان تختار الفلسطيني من الخناجر ستكون بلا وطن ولا هوية ولا انسانية.

وحتى يتخذ الشكل التالي: «انه سكين يحفر في داخلي للشعر بالالم واللذة، فالخطر ... اذا اردت التحرر من الالم بسحب السكين من لحمي فسأفقد اللذة، واذا حافظت على اللذة فسأرضى بالالم ... وهكذا يتزاوج الالم واللذة تزاوجا في عندي، ولكنه حتمي وليس لي منه مفر ... وهكذا ترى ان تفاؤلي ليس تفاؤلا ساذجا لاننا نعيش حالة تحد تاريخي وحضاري وسياسي واخلاقي.

● من الصعب ان اقول انني اتابع او انني امنح ولائي الكامل لشاعر عربي واحد ... انني شديد الاعجاب بأبي فراس الحمداني من الشعراء القدامى وببدر شاكر السياب من المعاصرين. ويعجبني شعر البياتي وصلاح عبد الصبور وخليل حاوي ونزار قباني ومحسن بسيسو ومعين بسيسو وسعدي يوسف، ولفتت نظري في المدة الاخيرة شعر امل دنقل وشعر فؤاد حداد. وانا مفتون ايضا بعبد الرحمن الابنودي.

— قلت: وادونيس؟

● لم اقرأه للاسف: وبودي لو اقرأ كثيرا من شعره.

— سألت محمود:

● هل تنوي الهجرة من فلسطين ... بعد

محمود درويش وأحمد سعيد محمدية في موسكو

الحوادث ٤٦

مقابلة في الحوادث مع أحمد سعيد محمَّديَّة

قالت المجلَّة موجِّهةً حديثها للشاعر: "نحن لا ندري ما هي المشاكل القانونية التي ترتَّبتْ عن قرارِكَ، لكنكَ ما زلتَ محتفظاً بجنسيَّتكَ "المترجمة" كما تصفها، ومن ثمَّ نقول لكَ من قلب يحبُّك ويعتزُّ بكَ: "نحن في مرحلة العودة والإصرار على البقاء، انتهتْ وإلى الأبد مرحلة

الهجرة، فليتك تعود إلى إسرائيل .. إلى السجن، ليتكَ تعود مهما كان الثمن الذي ستدفعه من حُرّيّتك، وحتّى من فنِّكَ وشِعْرِكَ .. مكانكَ إلى جانب "الطاحون" حتّى لو سجنوكَ في الصمت، فصمتُكَ في فلسطين أبلغ ألفَ مرَّة من شِعْرِكَ في سوق عكاظ العربي الذي سيقام لكَ.

عُدْ، فقد اخترتَ، وليس لكَ أن تتراجع.
فقد عيَّنْتَ نفسكَ مندوبَ جرح لا يُساوِم
علّمتْني ضربةُ الجلّاد
أن أمشيَ على جرحي
وأمشي.. ثمَّ أمشي وأقاوِم.
وفي مثل وظيفتكَ هذه الاستقالة ممنوعة".

***

ما طَرَحَتْهُ مجلَّة الحوادث كان هو النموذج المثالي للهجوم العنيف الذي عانى منه درويش نتيجة لموقفه بعد خروجه من إسرائيل، ووَفْقاً لرجاء النَّقّاش، فقد تردَّدت وجهةَ النظر هذه كثيراً في صفوف الرَّأي العامّ العربي والأدبي على وجه الخصوص.

ولأن انتقال درويش إلى مصر كان، على نحو ما، قراراً اتَّخذتْهُ الدولة المصرية، فقد بدا واضحاً جِدّاً أن الإعلام المصريّ جنَّد نفسه في جيش الدفاع عن درويش وقراره.

***

فازت الكاتبة صافي ناز كاظم بأوّل حوار يُجريه الشاعر محمود درويش، وكان لصالح مجلّة "المصوّر" التي يرأس تحريرها أحمد بهاء الدِّين، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد في هذا السَّبْق، لأن صافي ناز كانت واحدة من ألمع الصَّحفيّات في المجلّة، والأكثر اهتماماً بالشأن الأدبي.

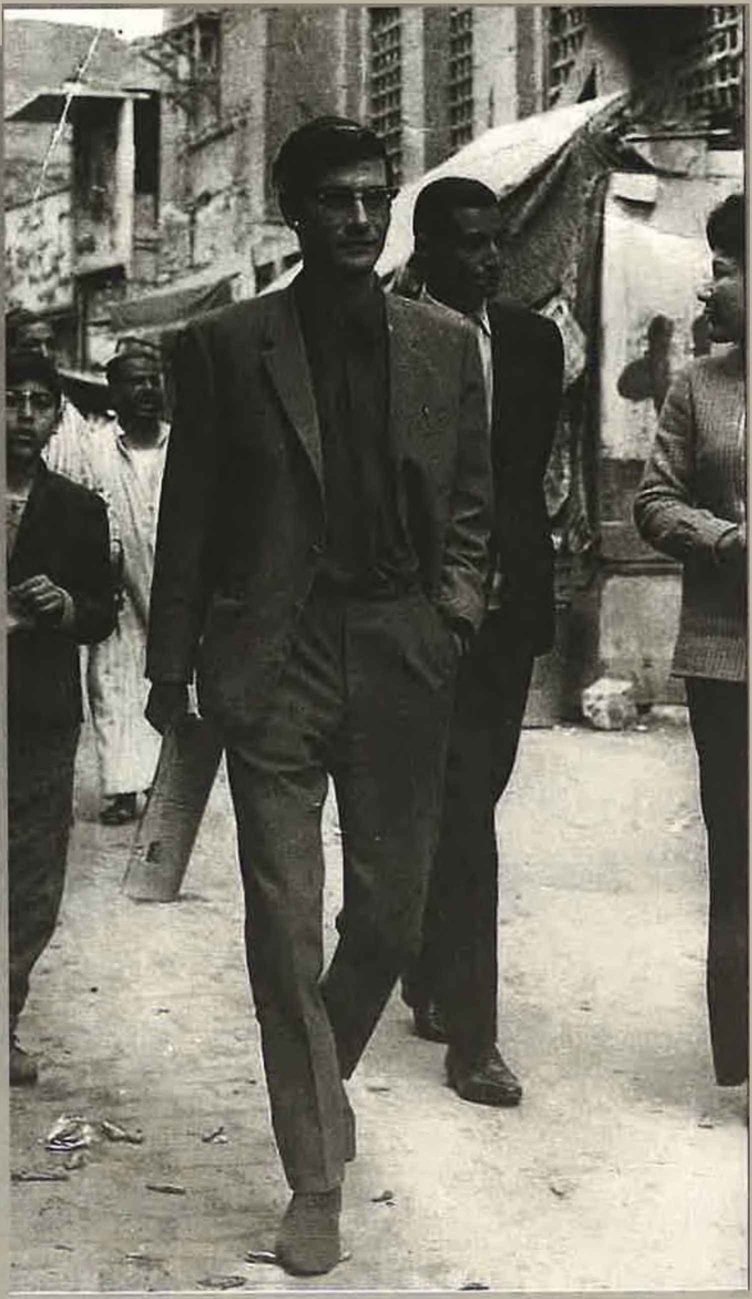

صافي ناز والأبنودي مع درويش في الغورية
(أرشيف دار الهلال، تصوير: محمود عارف)

صافي ناز والأبنودي مع درويش في الغورية

تقول صافي ناز: "التقيتُهُ، وكتبتُ موضوعاً عنوانه (قال للناس حوله كلّ شيء سوى الندم ...) ثمَّ أخذتُهُ، من نُزُله بفندق شبرد، ودعوتُ عبد الرحمن الأبنودي ليصاحبَنا إلى شارع الغورية، وزرْنا شوارع كثيرة، والتقطْنا له صوراً هناك، وكانت بعدسة محمود عارف، وانتشرت الآن على المواقع والمنتديات الإلكترونية.

***

كانت صافي ناز قبلها بشهور، قد كَتَبَتْ مقدِّمة في مجلَّة "الكواكب" لديوان الأبنودي "أحمد إسماعين .. سيرة إنسان"، أمَّا درويش، فقد تعرَّف على شِعْر الأبنودي عبر إذاعة صوت العرب التي كانت تبثُّ برنامجه "بعد التَّحيَّة والسلام". كان بثُّ الإذاعة يصل حيفا، لذلك تمنَّى درويش لو يلتقي بالأبنودي، فبادرت صافي ناز بترتيب اللقاء.

وقد زارتْهُ لأوَّل مرَّة في الفندق بصحبة الكاتب المسرحي ميخائيل رومان، وقالت لي: "كنتُ أتمنَّى أن أُلقي بمحمود في أحضان الشعب المصري، بعيداً عن الدائرة المغلقة التي حاولتْ أن تضربَ حوله سياجاً من العزلة، بزَعْم دوافع الحرص والحماية".

"قال للناس حوله كل شيء سوى الندم"

صافي ناز كاظم

محمود درويش في القاهرة : لأول مرة في مدينة تتكلم العربية .

عدسة: محمود عارف

أوَّل حديث صَحَفِيٍّ في مصر مع صافي ناز كاظم

وفي سياق الدفاع عن وجود محمود درويش في مصر أعادت مجلَّة "روز اليوسف (64)"، مقالًا، نَشَرَتْهُ صحيفة الاتِّحاد العربية التي تصدر في حيفا، وعنوانه "محمود درويش لم يرحل".

رجَّح رجاء النَّقَّاش أن كاتب المقال هو إميل حبيبي الذي كان بمثابة

64) روز اليوسف، عدد بتاريخ في عددها الصادر في 15 مارس 1971.

الأب الرُّوحيّ لدرويش حتّى خروجه من إسرائيل[65]، في حين توقّع أن يكون غسّان كنفاني هو "ربيع مطر" الذي كَتَبَ ليُهاجم قرار درويش بعدم العودة إلى الأراضي المحتلّة.

وكَتَبَ رفيق الدرب سميح القاسم لمحمود درويش رسالة على صفحات مجلّة الآداب، هذا هو نصُّها:

"عزيزي محمود .. الحرج قائم، سواء كتبتُ إليكَ أم لم أكتبْ، وحتّى لو كانت لديَّ طائرة فانتوم، فإنني لا أستطيع تحميلها هذه الرسالة إليكَ، فالخوازيق الجويّة المتربِّصة على ضفّة القناة الغربية جَعَلَتْ بريد الفانتوم في خطر شديد، ومن هنا فإن "الجديد" سليلة الحمام الزاجل خير رسول إليكَ، هناك في مصر الشجاعة واقعاً وأسطورة، أرضا وبشراً، وماضيا وحاضراً.

وبعد؛

أريد تقريعكَ على فعل ماضٍ أصبح أمراً واقعاً، فمن أين لنا القدرة على إعادة الرصاصة المنطلقة إلى فُوّهتِها الأمّ؟!

لكنني أريد مجاهرتكَ ببعض الخواطر التي آثارها فيَّ بيانكَ العاطفي المذاع من موقعكَ الجديد، وموقفكَ القديم.

ونعود إلى عملنا هنا ..

منذُ قيام إسرائيل، ومبارد العنصرية تنحتُ في لحم البقية الباقية من العرب الفلسطينيِّيْنْ في وطن آبائهم وأجدادهم، لكن القوى الوطنية والدِّيمقراطيّة، وفي طليعتها الشُّيوعيُّون، أدركتْ ما ترمي إليه السلطات الصِّهيونيَّة من وراء الاضطهاد والقَمْع والإرهاب.

أدركت أن الشعار الأوّل والرّئيسيَّ الذي رَفَعَتْهُ الحركة الصِّهيونيّة هو: المزيد من الأراضي، والأقلّ من العرب، ومَنْ كان منّا يؤمن بهذا الشعب،

---

65) رجاء النّقّاش: المرجع السابق، ص 315.

يحمل صليبه، وإذا كان هذا الشعب قد قرَّر البقاء على صدورهم، فعلى حاملي الصلبان ألّا يتزحزحوا، وإذا كان في تاريخ الشعراء والأدباء بعض أصحاب الصلبان الذين غيّروا مواقعهم، مثل ناظم حكمت وبرتولد بريخت، فذلك لأن أعداءهم أرادوا تجريدهم حتّى من الصليب ذاته. أمّا نحن، فإن صليبنا الكبير ما زال في أيدينا، وأنتَ تشهد في بيانك، بأن النضال "بطولي".

قلتَ إن وطننا لم يعد جبلاً وسهلاً، بل قضية، ولا أستطيع إلّا أن أختلف معك في هذا، فالوطن الميتافيزيقي، الوطن الفكرة، أو القضية، الوطن الذي ليس سهلاً ولا جبلاً هو وطن الحركة الصّهيونيّة! وطننا نحن، سهل وجبل وقضية في الوقت نفسه، وطننا فلّاحون يُعتدَى عليهم في أرضهم، تُجّار يُعتدَى عليهم في متاجرهم، بشر يتكلّمون ويأكلون ويفرحون ويحزنون وينزفون دماً في مُدُنهم وقُراهم. في غزّة وحيفا والخليل والرّامة والجديدة، وحتّى في البروة التي لم يبقَ منها سوى أطلال كنيستها، وأهلها!

في أيّام المغول والتتار كان المحتلّون يجهلون علم النّفْس، كانوا يبيدون ضحاياهم إبادة جسديّة، أمّا اليوم، فإن حضارة القرن العشرين علّمت المحتلّين أساليب الإبادة الفكرية ومناهج التدمير النّفْسيّ، إلى جانب التصفية الجسدية.

ابو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

وكثيراً ما يلجأ المُضطهِدُون - بكسر الهاء - المودرن، إلى القمْع النّفْسيّ لدفْع ضحاياهم إلى الهرب، في سبيل خلاص ذاتي موهوم. إنهم يمارسون الإرهاب السّيكولوجيّ، ليخلقوا في نفوس مضطهَدِيهم - بفتح الهاء - ما يُسمّى بالبارانويا، وهو مرض الخوف والملاحقة، أو البسيخوفرينيا، وهو ضرب من الهَلْوَسَة وفقدان السيطرة على الذات. فهل نسمح لحُكّام إسرائيل بأن يجعلوا منّا أرانب لتجاربهم؟

لا أشكُّ للحظة في حُبّكَ لشعبكَ ووطنكَ، ولا أشكُّ للحظة في حُبّكَ لرفاقكَ ومكتبكَ العتيق الصابر بين مكاتبهم العتيقة الصابرة، حيثُ العمل اليومي المتوتّر والمرهق، ولكنني أشكُّ في أن خطوتكَ كانت أمراً لا مفرَّ

مقال روز اليوسف كما نقلته عن صحيفة الاتِّحاد، وهو لإميل حبيبي

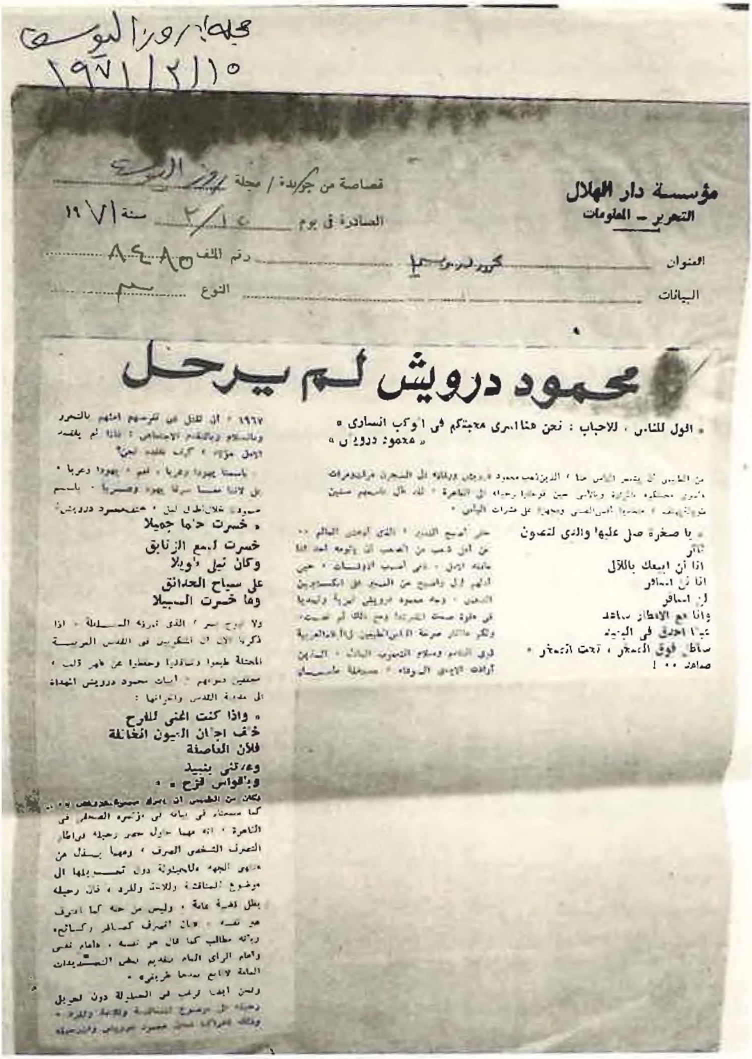

مجلة: روز اليوسف
1971/2/15

مؤسسة دار الهلال
التحرير - المعلومات

قصاصة من جريدة / مجلة روز اليوسف
الصادرة في يوم 15/2 سنة 1971
العنوان .... رقم الملف 8485
البيانات .... النوع ....

محمود درويش لم يرحل

« الول للناس ، للاحباب : نحن هنا اسرى محبتكم في ا وكب انسارى »
« محمود درويش »

« يا صخرة صلى عليها والدى لتصون
ثائر
انا لن ابيعك باللآل
انا لن اسافر
لن اسافر
وانا مع الاطفال ساعد
عبثا احدق في البعيد
ساظل فوق الصخر ، تحت الصخر
صامد .. !

« خسرت حلما جميلا
خسرت لسع الزنابق
وكان ليلي طويلا
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلا

« واذا كنت المغني للفرح
خلف اجفان العيون الخائفة
فلأن العاصفة
وعدتني بنبيذ
وبأقواس قزح » «

منه، وأخيراً، إليكَ هذا النبأ الشَّخصيّ، ديوانكَ الذي تركتَهُ في ذمَّتنا سيصدر قريباً، سيصدر في الناصرة، ولن أرسل إليكَ نسختكَ مع الصليب الأحمر الدّوليّ، سأحفظها لكَ هنا حتَّى تعود لرفاقكَ .. وستعود [66]

66) مجلّة الآداب، بيروت، عدد أبريل، 1971.

في مؤتمر صَحَفِيٍّ، وإلى جواره محمَّد عروق، مدير إذاعة صوت العرب، تصوير إميل كرم، أرشيف الأهرام

كما بدأ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي المواجهة بمقال نَشَرَتْهُ مجلَّة "روز اليوسف [67]"، جاء فيه "أنتَ تعلم، يا صديقي، أن كلَّ العيون الآن مفتوحة عليكَ، عيون شعبكَ العربي في كلِّ أقطاره، وعيون رفاقكَ في الأرض المحتلَّة، وعيون أعدائكَ أيضاً.

وأنتَ تعلم أيضاً أن الناس الذين طُعنوا بما فيه الكفاية، وخُدعوا بما فيه الكفاية، يحقُّ لهم أن يُشفقوا عليكَ وعلى أنفسهم من المصير الذي ينتهي إليه في العادة نضال اللَّاجئين السِّياسيِّيْن، وهو أن يقبعوا في ركن مقهى، بل لقد وُجِّهَت إليكَ أسئلة وملاحظات، توحي بهذه الشفقة، وربَّما قرأت في بعض صُحُف عواصم عربية أخرى تعليقات تُصرِّح بها".

يدافع حجازي في مقاله عن درويش (الشَّابّ) إذ اتَّهمه البعض آنذاك هو ورفاقه بأنهم "ظاهرة إسرائيلية" خصوصاً حين شارك هو وسميح القاسم في مهرجان الشبيبة في صوفيا، ويؤكِّد حجازي أن الوقائع تُكذِّب هؤلاء، ف

67) روز اليوسف، مجلَّة أسبوعية، 1971/2/22.

"الإسرائيليُّون" لم يُتيحوا لدرويش ورفاقه إلّا الاضطهاد والقَهْر، إلى أن يقول: "لقد قدّمت القاهرة ببالغ الإعزاز نصيبها في الحرص عليكَ حين هيّأت لكَ مكانكَ في "صوت العرب" وبقي أن تُواصِلَ أنتَ تقديمَ نصيبكَ".

***

هكذا يمكن أن نقف على بداية عمل درويش في القاهرة، وتحديداً في إذاعة "صوت العرب"، إذ يقترح حجازي في مقاله، الذي أشرْنا إليه، على درويش عدَّة مقترحات، أو يقدِّم له نصائحه: "أقترح عليكَ في البداية أن ينصبَّ نشاطُكَ في صوت العرب في مجال أساسيٍّ، هو البرنامج العبري الذي تستطيع أن تُسهم في التخطيط له، وفي تحريره، وهذا تخصُّصٌ نحن في أشدِّ الحاجة إليه. فأنتَ لا تتكلّم العبرية، كما يتكلّمها سُكّان "إسرائيل" فحسب، بل أنتَ أيضاً تفهم روح هؤلاء القوم، وتعرف ماذا يؤثّر فيهم ويثير انتباههم ويخاطب عقولهم".

ويواصل حجازي اقتراحاته: "أقترح عليكَ أيضاً أن تبدأ مشروعاً لترجمة الأدب "الإسرائيلي" الحديث إلى لغتنا العربية، إن أعداءنا يعرفوننا عن طريق كاتب مثل نجيب محفوظ أضعاف أضعاف ما يعرفوننا عن طريق أجهزة أمنهم وجواسيسهم".

ويقترح على درويش ترجمة شعراء معيَّنين، تحديداً أولئك الذين بدؤوا حياتهم الشّعْريّة بالرُّوسيّة، ثمّ تحوّلوا إلى الكتابة بالعبرية، وذلك لمعرفة كيف يستطيع الشاعر أن يُغيّر لغته في عشرين عاماً، ومع ذلك يظلُّ يكتب الشّعْر.

ويختتم مقاله قائلاً: "لقد قلت لي في حديث سابق إن الصراع سيكون طويلاً، لأنه صراع تاريخي معقّد. لن يُحسَم قبل أن ينضج، فلْندْخُلْهُ مسلّحين، والوقت أمامنا، ومنْ يدري، يا محمود، ألّا يكون مقامك في القاهرة بداية لأن تُشعل نشاطاً، وتثير روح العمل من أجل ما نطالبك بأن تقوم به وحدك؟!".

قصيدة لدرويش في مجلَّة سنابل التي أصدرها عفيفي مطر

مؤسسة دار الهلال
التحرير – المعلومات

قصاصة من جريدة / مجلة
الصادرة في يوم
رقم الملف ٨٤٨٥
العنوان محمود درويش
النوع
البيانات

الشعر كم من الغ
والالم والعجب ،
نزر مماورد في المعاجم
جبران خليل جبران

من شعر المقاومة

كبر الأسير

للشاعر الفلسطيني
محمود درويش

تموج الذكرى ، وبيارات اهلي
وص – تحت الرمل والبارود –
لن النوافذ اشرعت في ذات يوم
للعيون السود ، واحترق النهار
لها بساحتك الصغيرة
نا كبرت .. كبرت .. حطمت
ابا كلها ،
ضت أجنحة الغبار
جنة نبتت بصورة
ت وجهك في السنابل
بحر في سماء الضوء في فرح
الباقي على لحمي هلالا في
الى كل الجبال
يارات اهلي
صارت كلها .. صارت أسيرة!!
كبرت .. كبرت .. يا حبي
م مع الجدار
الاسير ،

أمَّا الشاعر محمَّد عفيفي مطر، فقد تضامن على طريقته بنَشْر قصيدة للشاعر محمود درويش، عنوانها "كبر الأسير" في مجلَّة "سنابل" التي كانت محسوبة على "الهامش الشِّعْريّ"، وليس في "المتن الرَّسْمِيّ" وكانت صوتاً طليعيّاً فاعلاً في المشهد الأدبي المصري.

***

قرأ محمود درويش كلّ تلك المقالات وغيرها، لكنه لم يفكّر ماذا يفعل في القاهرة، فقد ترَكَ نفسه تحت رعاية أحمد بهاء الدّين الذي ضمّه لهيئة تحرير "المصوّر".

وكانت "دار الهلال" بتعبير يوسف القعيد "الأرض العربية الأولى التي يعيش عليها، بعد أن أُجبرَ على ترْك فردوس عُمُره وقضية حياته فلسطين"[68].

غير أن علاقة محمود درويش بدار الهلال بدأت قبل حضوره إليها بكثير - كما سبق وأشرنا -

بعد وصوله إلى القاهرة، نَشرَ في مجلّة "المصور" مجموعة قصائد، منها: أغنيةُ حبٍّ فلسطينية (1971/3/19)، قصائد جديدة لمحمود درويش: عازفُ القيثار المتجوّل - عابرُ سبيل - خطواتٌ لا تصلُ - المدينةُ المحتلّة - رباعياتٌ (1971/4/16)، تقاسيمٌ على الماء (1971/6/18)؛ نُشرَت أغلبُ القصائد دُونَ رسومٍ، لكنَّ واحدةً منها (تقاسيم على الماء) صاحبتْها صورةُ محمود درويش.

وبسبب علاقته المتفرّدة مع درويش، التي لخّصها بهاء في تعبير (فلذة كبدي)؛ كان من الطّبيعيّ أن تكون دار الهلال، التي يرأسها، هي المحطّة الأولى في خيارات درويش للعمل من داخل مصر.

وبخلاف القصائد التي كانت تُنشَر له قبل وصوله إلى القاهرة (وبعضها في ملفّ الوثائق)؛ نَشرَت الهلال مقالاً في عدد مارس 1971 لخّص فيه دوافع حضوره إلى القاهرة، وهي نصُّ بيانه في المؤتمر الصَّحَفِيّ الذي بثّه التلفزيون العربي.

وكَتَبَ في "المصوَّر" في عددها الصادر يوم (9 أبريل/ نيسان 1971) أي بعد حضوره بشهرَيْن، مقالاً له بعنوان: هل تسمحون لي بالزواج؟

68) مقال في صحيفة الرأي العامّ الكويتية، 26 أغسطس 2008.

في المقدِّمة كَتَبَت المجلَّة التالي: (هذا هو المقال الأوَّل الذي يكتبه شاعر الأرض المحتلَّة بعد انضمامه إلى أسرة تحرير المصوَّر). ويبدو المقال كأنه وثيقة دفاع، أراد منها درويش تبرير اختياره للقاهرة مقرّاً لإقامته الجديدة، لكن الأهمَّ من وجهة نظري ما يشير إليه بشأن الوجود العربي في إسرائيل، إذ يقول: "لا يمكن مطالبة أقلِّية قومية مسحوقة بتحقيق ما عجزت عنه أُمَّة كاملة، وقدرة العرب على الفعل مرتبطة ومشروطة بقُدرة الشعوب العربية على هذا الفعل".

الكثير ممَّا طَرَحَهُ درويش، يبدو اليوم أقرب لإجابات عن أسئلة مطروحة،

محمود درويش :

لماذا خرجت من إسرائيل

« النص الكامل لبيان الشاعر محمود درويش فى المؤتمر الصحفى الذى عقد فى مبنى التليفزيون بالقاهرة فى ١١ فبراير ١٩٧١ »

■ اريد ان اعلن منذ البداية انى اعتبر مسالة وجودى الان فى القاهرة مس
شخصية اتحمل وحدى مسئولية اختيارها ، وسابذل منتهى جهـ
للحيلولة دون تحويلها الى موضوع للمناقشة والاخذ والرد ، وكان من الم
وربما من الافضل حصر المسالة كلها فى حدود ضيقة لولا ان الظروف ال
خلقتنى والقضية التى قدمتنى للناس قد ربطت اسمى بقضية عامة ، وه
القضية العامة هى العنصر الاساسى الذى دفعنى لاختيار موقع جديد فى الجب
التى احارب فيها ، ومن هنا ، لم يعد من حقى ان اتصرف كمسافر او سائح
ولهذا السبب اشعر باتى مطالب امام نفسى وامام الراى العام بتقديم بع
التحديات العامة لاتابع بعدها طريقى :

● اننى الح كثيرا على ان يكون مفهوما لجميع الناس ان الخطوة الخطيرة ا
اتخذتها نابعة من اعتبارات خدمة القضية من مواقع تبدو لى اكثر انطلاقا ر
وقد تمنحنى مزيدا من القدرة على التعبير والعمل اكثر مما كنت قادرا على
فى بلادى .. اننى اتقدم من منطقة الحصار والاسر الى منطقة العمل . ولا يسا

● محمود درويش.. بريشة الفنان اسماعيل شموط ●

مقال درويش هل تسمحون لي بالزواج؟

محمود درويش

هل تسمـ لى بالزواج

ومنها مدى جدِّيَّة الرهان على فُرص الحوار مع القوى التَّقدُّميَّة داخل إسرائيل، حيثُ يقول: "أنا يائس من قدرة العرب في إسرائيل المتحالفين مع القوى اليهودية التَّقدُّميَّة على إجراء أيِّ تغيير جوهري في الداخل طالما لم تُوفِّر الظروفُ العربيةُ الخارجيةُ قاعدةً ماديَّةً لهذه الإمكانية".

راهن درويش في تلك السنوات على ما تبذله القاهرة من جهود كمدخل للحلِّ أوّلاً، لحسم تناقضات الفضائل الفلسطينية بعد معركة أيلول الأسود، وثانياً إدارة الصراع العربي الإسرائيلي أو كما كَتَبَ: "لا يمكن بناء أيَّة حسابات جادَّة إلَّا على قلَّة من الدول العربية ذات الإمكانية والرغبة في العمل، وفي مقدِّمتها القاهرة.

ويمكننا القول: إن أحد مقاييس الوطنية الحقيقية هو الموقف الذي يتَّخذه المواطن العربي من القاهرة".

عَرَفَ درويش، وكَتَبَ أن أسباب الحملة التي انطلقت ضدَّه بعد أن قرَّر المجيء إلى مصر؛ سببُها الوحيد هو اختيار القاهرة كملاذ - وكَتَبَ بوضوح: "إن اختياري الإقامة في القاهرة هو من الأسباب الأساسية التي حرَّكت الحملة العنيفة عليَّ".

وتابع: "إنني أرث الأحقاد القديمة والقادمة على القاهرة، ولقد شعرتُ

في الطريق المؤدية إلى مسجد السلطان حسن

بالحاجة إلى حَكِّ دمي - لا جِلْدِي - في هزَّة الحُبِّ التي اجتاحتْني وأنا فوق الغيوم في الطائرة القادمة من بيروت إلى القاهرة، وأنا أقرأ موسوعة التحريض عليَّ، والمطالبة برأسي".

***

في إحدى المقابلات الصَّحَفِيَّة مع درويش، كَتَبَ الصَّحَفِيُّ اللُّبنانيّ فؤاد مطر في المقدِّمة: "لنفترض أن حمامة زاجلة حطَّت على محمود درويش وهو في القاهرة، فإلى مَنْ يبعث معها برسالة إلى فلسطين؟ فكَتَب الشاعر مباشرة رسالة مطوَّلة إلى والده، وكان الابن الثاني بين أربعة إخوة. جاء فيها: "أبي العزيز، تحيَّاتي، لا تحزنْ، يا أبي، فأنتَ لم تلدني لكَ، ولا تكنْ أنانيّاً. فلستُ ملككَ وحدَكَ، إنني ابن كلِّ الآباء الفلسطينيِّيْن وكلّ الأُمَّهات الفلسطينيات.

قلْ لأُمِّي التي لا تقرأ؛ إنني لستُ بعيداً عن خبزها وقهوتها، وقلْ لها إنها هي البطلة الحقيقية، ولكنْ، أرجو أن لا تسمح لها بالوقوف طويلا أمام صورتي المعلَّقة على الجدار"، ثمَّ يتابع: "في مطار موسكو، فوجئ أصدقائي بأنني أنفجر بالبكاء. لم يكن بكائي على أصدقاء أودِّعهم، لكن بكائي كان على الذين لم أكن عائداً إليهم. لم أكن عائداً إليكم، لم أكن عائداً إلى الوطن، كلُّكم وطني، أنتَ وطني، والصليب وطني، آه، يا وطن.

وأرجو أن نلتقيَ ولو في الموت في بقعة ما من هذا الوطن الضاري، وتحيَّاتي لكم واحداً واحداً، وأرجو ألَّا تسمحوا لهذه الحمامة التي تحمل رسالتي، أرجو ألَّا تسمحوا لها بالعودة [69]".

***

في حواره مع عبده وازن ضمن كتاب (الغريب يقع على نفسه) قال درويش: "قرار دخولي القاهرة أهمُّ أحداث حياتي الشَّخصيَّة، لم يكن القرار سهلاً. ففي القاهرة ترسَّخ قرار خروجي من فلسطين، وعدم العودة إليها.

كنتُ أصحو من النوم، وكأنني غير متأكِّد من مكان وجودي، أفتح الشُّبَّاك، لأتأكّد أنني في القاهرة".

---

69) شربل داغر: المرجع السابق، ص 82.

وفي كتابه (ذاكرة للنسيان) كتب: "إذا رأيتَ النيل، فهذا يعني أنك في القاهرة[70]".

وفي حواره الأوّل مع صافي ناز قال: "في القاهرة، ما زلتُ أحلم، مدينة بأكملها تتحدّث العربية، عقلي يعرف ذلك منذُ زمن بعيد، لكن شعوري الماديّ بالحقيقة أوّل مرّة، أريد أن أعرف الشوارع والوجوه والأصوات".

وَصَفَ نفسَهُ بـ "الطفل الجائع" الذي وَجَدَ أمامه دفعة واحدة طبقاً مليئاً بالحلوى واللحوم، وألف يد تُطعمه، متلبّكٌ، مزدحم، لا أعرف كيف أقول: هل تعرفين رغبة ضمِّ الأشياء حتّى لا تفقديها، لأن شعوركِ الراسخ أنك مهدَّدة بالفقدان.

قالت له صافي نازَ: "إنني قاهريّة"، وأخذتْهُ إلى الطُّرُقات التي تُحبُّها، وسألتْهُ: كيف تصوَّرتَ القاهرة؟

قال: إن المفاجأة أن القاهرة "جميلة"، وبها أشجار، وأنها خضراء وواسعة، والنيل عريض جدّاً، فقالت له "القاهرة ليست خضراء دائماً".

أمَّا هو، فردَّ عليها: "دعيني أتمتَّع بأن ما أراه خَذَلَ ما صوَّروه عنها".

***

ترى صافي ناز أن الدائرة الرَّسْمِيَّة التي أحاطت بالشاعر تسبَّبت في أن تُوغِرَ صدر بعض شعراء مصر النابغين المفلسين الجالسين على مقهى ريش، وأيّد هؤلاء منطق نجيب سرور الذي قال بنبرة ساخرة: "اشمعنى محمود درويش مدلَّل في فندق شبرد، طيّب ما إحنا كمان شعراء الأرض المحتلّة".

***

70) محمود درويش: ذاكرة للنسيان، طبعة دار الثقافة الجديدة، القاهرة، سلسلة الأدب الفلسطيني، بالتعاون مع منظّمة التحرير الفلسطينية، 1989، ص 74.

لم تتوقّف نشوة الشاعر لفترة طويلة، ووجد نفسه أكثر من مرّة محاطا بظلال البطل الرّومانسيّ المتورّط في مشاهد واقعية جدّاً، ضاعفت من مسؤوليته تجاه القضية وتجاه القاهرة "الجريحة" من مرار الهزيمة. وبالدلال الذي أفرطت في إظهاره، أرادت أن تذكّره كلّ يوم بدوره المنتظر.

ولكي نفهم الصورة أكثر، علينا أن نكون معه يوم أن زار السويس، وبصحبته رجاء النّقّاش وآخرون، واستمع إلى أشعاره التي تقدّمها "فرقة أولاد الأرض" التي كان يقودها المناضل "كابتن غزالي".

استقبلتْهُ الفرقة التي كانت تعمل بشكل بدائي، أمام السُّلّم المؤدّي إلى باحة الفندق، وهي تنشد بقوّة:

(أهلاً، يا درويش /كيف سميح؟ وإيش حاله؟ /وإيش حال عروبتنا؟ وكيف الأهل تعيش؟ / في القهوة اللي صابتنا / إحنا ولاد الأرض / للنصر غنوتنا / أهلاً، يا درويش، يا بلبل سهرتنا).

استعادت تلك السهرة في قلب الشاعر النقاشات والخلافات الفكرية التي دارت بين المثقّفين العرب على نطاق واسع، حول اختيارات سميح القاسم البقاء في داخل الأراضي المحتلّة، ورغبة درويش بمواصلة النضال من خارج رقعة الوطن، وقال أعضاء "أولاد الأرض" يومها رأيهم بوضوح. وانحازت الأغلبية لخيار سميح القاسم بالبقاء في قلب المعركة، ممّا أذهل درويش، وجعَلَهُ يتساءل بصوت عالٍ أمام الجميع موجّهاً حديثه لمنْ كانوا معه من المثقّفين: "كيف قلتُم إن هذه الفرقة شعبية؟ إنها تمتلك وعيا ثوريّاً ونضاليّاً عالياً، بل أكثر وعيا منّا".

وكانت الفرقة تعمل بفضل أدوار يلعبها محمّد عروق، مدير صوت العرب آنذاك، الذي كان وراء وجود محمود درويش في الإذاعة بعدها[71].

---

71) محمّد حسن مصطفى: " كابتن غزالي، شاعر المقاومة وذاكرة الوطن، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، سلسلة إصدارات خاصّة، ص 27.

من "صوت العرب" إلى "صوت نجاة"

اهتمَّت صُحُف القاهرة في تلك الأيَّام بأخبار محمود درويش، وكانت تضعها في الصفحة الأخيرة بين أخبار النجوم، فـ "الأهرام" نشَرت خبراً عن سَفَره في جولة للدول العربية بعد أيَّام من وصوله، ثمَّ نَشَرت في يوم 18 إبريل / نيسان 1971 (بعد شهرَيْن من وصوله) أنه يكتب الآن قصَّة سينمائية عن الأرض المحتلَّة، رشَّح لبطولتها سعاد حسني، ولإخراجها "شادي عبد السلام" الذي كان في أوج شهرته بعد احتفال العالم بعرض فيلمه الشهير "المومياء" 1969. يقول الخبر: إنه من المقرَّر أن يقوم درويش بكتابة أغاني الفيلم الذي لم يظهر للأسف.

تشير صافي ناز كاظم "شاهد العيان" على حياة الشاعر في تلك الفترة بحُكم اقترابها من "بهاء الدِّيْن" إلى أن "دار الهلال" احتضنتْهُ، ولم يكن وجوده فيها نتيجة "عقد عمل"، لكن وَفْق "صيغة" خَلَقَها "الأستاذ بهاء"، الذي وَضَعَ درويش في إطار خاصٍّ.

وإلى جانب ما كان يقدِّمه محمود درويش من كتابات في مطبوعات مؤسَّسة" دار الهلال " كان يقدِّم لـ إذاعة "صوت العرب" تقارير وبرامج عن الوَضْع في الأراضي المحتلَّة وسياسات إسرائيل من الداخل.

وفي 15 مايو/ أيَّار 1971 وإحياء لذكرى (نكبة فلسطين)، نَشَرتْ مجلَّة "المصوَّر" قصيدته (المزامير) أو مزامير 15 مايو، كما سمَّاها.

ولم يكن الإطار الذي أعدَّه بهاء الدِّين لمحمود درويش بعيداً عمَّا أرادتْهُ

الدولة التي لم تعتنِ مثلاً بشاعر آخر شهير، زار مصر قبل زيارة درويش بفترة وجيزة، وهو العراقي "مظفَّر النَّوَّاب" الشاعر الذي جاء في سبتمبر/ أيلول 1969، والتقت به صافي ناز، وأخذتْهُ معها إلى قرية كمشيش بالمنوفية، وشاهد قرية الشهيد صلاح حسين التي زارها أيضاً "تشي جيفارا".

كَتَبَتْ صافي عنواناً جميلاً لحوارها مع النَّوَّاب، وهو (لكني مثل بلادي .. لا أضحك من القلب، ولا أبكي من القلب، ولا أموت من القلب إلَّا فيها).

ولا تزال تتذكَّر "البهدلة" التي تعرَّضوا لها، والوقوف في العديد من الكمائن الأمنية، والمتابعة المستمرَّة بـ "بيان تحرُّكات".

وتُدلِّل صافي ناز على شكل الرعاية الخاصَّة التي قدَّمها بهاء لدرويش بحفل عيد ميلاد محمود درويش الثلاثين، وهو حفل دعا إليه بهاء الدِّين في بيته، واستقبل لأجله نخبة من مثقَّفي القاهرة، وقدَّم لهم "عاشق من فلسطين".

كانت الأمور في السهرة عادية - كما تروي صافيناز - حتَّى رنَّ جرس الباب، ودخلت "باقة ورد" مع حاملها، وداخل صحبة الورد وُضِعَت بطاقة، فيها ثلاث كلمات واضحة وغامضة، هي (إلى الشاعر، مع تحيَّاتي .. نونا)، وكان السؤال الذي شَغَلَ الجميع مَنْ هي (نونا)؟.

***

تشير صافي ناز كاظم إلى أن وجود بطاقة على "صحبة ورد " تصل إلى سهرة عيد الميلاد كان كفيلاً بفَتْح أبواب السخرية من الشاعر الذي لم يكن قد مرَّ على وجوده في القاهرة أكثر من 40 يوماً، لكنْ، فيما يبدو أن "نجاة" حاولتْ في تلك الفترة أن تكون في الدائرة القريبة من "درويش".

وفي هذا السياق، يشير الكاتب سعيد الشَّحَّات إلى حكاية، رواها

الصَّحَفِيُّ الفلسطيني عبد الباري عطوان، في مذكِّراته "وطن من كلمات"، وكان إصدارها محوراً لحوار أجراه معه الشاعر والإعلامي اللُّبنانيّ زاهي وهبي، في برنامج "بيت القصيد - قناة الميادين"، وفيه روى القصَّة، كما رواها له "درويش"، زاعماً وجود "علاقة حُبٍّ، جَمَعَتْ بين درويش ونجاة، ويقول: "هي قصَّة طريفة، رواها لي محمود، وأعتقد أنه رواها لأصدقاء آخرين، وهي، أنه بعد أن حَضَرَ إلى القاهرة قادماً من موسكو، أقام في فندق "شبرد" المطلّ على النيل، وفي كلّ يوم كانت تأتيه سلَّة ورد إلى غرفته، عليها كارت، يحمل توقيع: "مع تحيَّاتي، نونا [72]".

***

يعلِّق "عطوان": "كان درويش، شابّاً، دنجواناً، محبوباً من النساء"، ويضيف: "مع استمرار إرسال الورد، ذَهَبَ درويش إلى صديقه الكاتب الصَّحَفِيّ "أحمد بهاء الدِّيْن" وحَكَى له، متسائلاً: "مين نونا؟"، فردَّ "بهاء": "ممكن تكون ناعسة، ناريمان، نيللي، أنتَ وحظّك، وأنا مقدرش أتوقَّع مين نونا دي".

بقيت الحال على هذا النحو أيَّاماً أخرى، حتَّى تلقَّى "درويش" تليفوناً، وحسب "عطوان": كان الصوت ناعماً ورقيقاً، وسألتْهُ صاحبته: "أكيد أنتَ عايز تعرف مين نونا؟، بكرة الساعة 12 هحضر أمام الأوتيل بعربيتي".

وفي الموعد المحدَّد، وَجَدَ محمود درويش سيَّارة، تغطّي نوافذها ستائر سوداء في الخلفية، ولمَّا انفتح باب السَّيَّارة، فوجِئ بالفنَّانة نجاة تنزل منها، وكانت هي "نونا"، كما يزعم عطوان في مناسبة أخرى [73].

---

72) سعيد الشَّحَّات: سلسلة ذات يوم على موقع اليوم السابع الإخباري، القاهرة.

73) عبد الباري عطوان: مقال صحيفة "دنيا الوطن" بعنوان "محمود درويش الذي عرفتُ" - 11 أغسطس 2008.

بينما يؤكّد شربل داغر، انه سأل محمود درويش بشكل مباشر عن "أصل الموضوع" بعد سنوات طويلة، وكان إلى جواره سميح القاسم، فقال درويش: إن الخبر ذاع بعد أن دبَّجَهُ أحد الصَّحَفِيِّيْن ممَّنْ كانوا يعملون في نَشْر أخبار مدفوعة الثمن عن نجمات ونجوم مصريّيْن بعد العشاء الذي دعاه إليه أحمد بهاء الدِّيْن، أمّا تكملة الحكاية، فقد رواها القاسم قائلا: طَلَبَتْني حورية والدة محمود درويش، لأجيء إلى بيتها على عجل، وحين ذَهَبْتُ، إذا بها غاضبة، حانقة من تصرُّفات ابنها الرعناء، فقد بَلَغَ الأمَّ من جارتها التي تقرأ الصُّحُف المصرية: "أن ابنها مُقبِلٌ على زواج قريب من نجاة الصغيرة السَّيِّئة السُّمعة".

قال سميح: "لم يكن أمامي سوى التخفيف من صدمتها، والتأكيد على أن نجاة ليست سيِّئة السمعة، وأنها ليست مغنِّية في كباريه، بل "منشدة"، وقد ارتاحت عمَّتي حورية لكلامي، وعرفتُ بعد وقت أنها كانت تترك الراديو "شغَّال"، وعندما كانت تستمتع إلى نجاة، في حضور جيرانها، كانت تنهاهم عن التَّكلُّم، صارخة: اسكتوا،، اسكتوا هادي (الكنّة) المنشدة بتنشد [74]".

***

حسب إشارة مجلَّة المصوَّر في عددها الصَّادر في التاسع عشر من مارس/ آذار 1971، كان من المفترَض أن تغنِّي المطربة الشهيرة نجاة قصيدة لدرويش، "أُغنيَّة حُبٍّ فلسطينية"، وكانت حسب وَصْف المجلَّة "أوَّلُ قصيدةٍ لمحمود درويش، يكتبها في القاهرة".

وقالت في تقديمها: "هذه أوَّل قصيدة كَتَبَهَا شاعرُ المقاومةِ الفلسطينية

74) شربل داغر: مرجع سابق، ص 61.

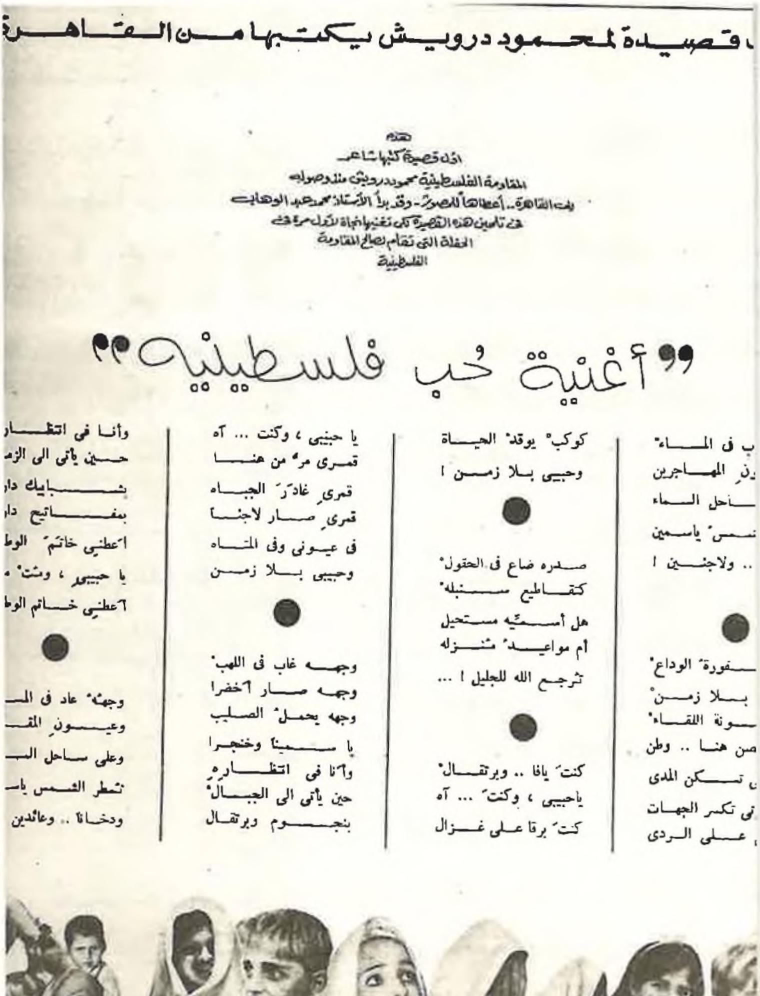

ن قصيدة لمحمود درويش يكتبها من القاهرة

هذه
أول قصيدة كتبها شاعر
المقاومة الفلسطينية محمود درويش منذ وصوله
إلى القاهرة.. أعطاها للمصور - وقد بدأ الأستاذ محمد عبد الوهاب
في تلحين هذه القصيدة لكي تغنيها نجاة لأول مرة في
الحفلة التي تقام لصالح المقاومة
الفلسطينية

"أغنية حب فلسطينية"

ب في المساء
ون المهاجرين
احل السماء
مس ياسمين
.. ولاجئين !

سفورة الوداع
بلا زمن
سونة اللقاء
من هنا .. وطن
ن تسكن المدى
تي تكسر الجهات
على الردى

كوكب يوقد الحياة
وحبيبي بلا زمن !

صدره ضاع في الحقول
كقاطيع سنبله
هل أسميه مستحيل
أم مواعيد منزله
ترجع الله للجليل ! ...

كنت يافا .. وبرتقال
ياحبيبي ، وكنت ... آه
كنت برقا على غزال

يا حبيبي ، وكنت ... آه
قمري مر من هنا
قمري غادر الجباه
قمري صار لاجئا
في عيوني وفي المتاه
وحبيبي بلا زمن

وجهه غاب في اللهب
وجهه صار أخضرا
وجهه يحمل الصليب
يا سمينا وخنجرا
وأنا في انتظاره
حين يأتي الى الجبال
بنجوم وبرتقال

وأنا في انتظار
حين يأتي الى الزم
شبابيك دار
بمفاتيح دار
أعطني خاتم الوط
يا حبيبي ، ومت
أعطني خاتم الوط

وجهه عاد في الم
وعيون المق
وعلى ساحل الب
تمطر الشمس يا
ودخانا .. وعائدين

قصيدة أُغنيَّة حُبٍّ فلسطينية

محمود درويش منذُ وصوله إلى القاهرة، أعطاها "للمصوَّر" وقد بدأ الأستاذ محمَّد عبد الوهاب في تلحينِ هذه القصيدة، لكي تغنِّيها نجاة لأوَّل مرَّة في الحفلة التي تُقام لصالح المقاومة الفلسطينية.

ويبدو أنّ محمّد عبد الوهاب لم يُتمّ اللّحن، أو يشرعَ في التلحين. وكانت رغبة منه أو أمنيّة لا أكثر، ولم تتحقّق[75]".

بدورها تشير منى أنيس إلى أن درويش كان بالفعل مُولَعاً بـ "نجاة". وتفسّر هذا الولع بأمرين. الأوّل: افتتانه بمصر ونجومها، كشابٍّ قادم من خارجها، فقد جاء إلى القاهرة، والمغنّية الشهيرة مُلاحَقَة بمزاعم، تصوِّرها كحبيبة للشعراء، وأوّلهم كامل الشّنّاوي الشاعر الرُّومانسيّ الشهير الذي تمّ اختزاله في كونه البطل الضّحيّة في قصيدة "لا تكذبي"، وهي شائعة. كان لها تأثيرها على شاعرشابٍّ مثل درويش، زاد منها: أن نجاة كانت تنشد قصائد نزار قبّاني، الذي كان شاعره المفضّل طوال مراهقته.

***

ظلّ نزار قبّاني في مكانة (الأب الشِّعْريّ) لأغلب شعراء هذا الجيل. وعندما تُوفيِّ وَصَفَهُ درويش بـ (شاعر الجميع). وخلال مشواره الإبداعي، سعى، على نحو ما، لفَهْم مكانته الجماهيرية، بل تمنّى بلوغها أيضاً، وتعقُّب أثرها، والبناء عليها، وإن كان بتبنّي المسار المغاير.

***

لم يكن لدى درويش آباء شِعْرِيُّون بالمعنى الذي يجعلهم في مكانة (المَثَل الأعلى)، باستثناء الشعراء الذين عَرَفَهُم داخل الأراضي المحتلّة، خصوصاً فدوى طوقان، وتوفيق زيّاد، وبعض الأصوات الشِّعْرِيَّة المصرية مثل صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي.

ولأسباب تخصُّ طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وحصار الأراضي المحتلّة في تلك الفترة، لم تكن المطبوعات العربية مسموحاً بوجودها

---

75) أحمد الشهاوي: مرجع سابق، مقال بصحيفة القدس العربي على الموقع الإلكتروني لمَتحف محمود درويش.

ودخولها إلى حيفا. لذلك لم يكن درويش حتّى ذلك الوقت طَرَفاً في أيّ نقاش مفتوح في بيروت أو غيرها حول الحداثة الشِّعْريَّة، فقد "جاء متأخِّراً" بتعبيره في حواره مع عبده وازن [76].

غيَّرت هزيمة يونيو/ حزيران 1967 مفاهيم مجلَّة "شِعْر" البيروتية التي كانت مَعنيَّة بهذا الموضوع، ومَنْ يطالع المجلّة سيجد أن درويش لم يُراسلْها، بينما اكتفت المجلَّة بإعادة نَشْر بعض قصائده من صحف الداخل الفلسطيني، ووَضَعَتْها ضمن تناوُلها لأدب الأرض المحتلَّة الذي كان "سلعة رائجة" في تلك الأيّام.

ومَنْ يراجع حواراته كلّها سيُلاحظ كيف اتَّخذ مسافة من مشروع مجلّة "شِعْر"، لأن ما أُتيح له معرفته عن الشِّعْر العربي حتّى وصوله إلى القاهرة كان "قليلاً جدّاً". وكان شِعْر نزار قبّاني الذي غنَّتْهُ نجاة أقرب إليه من أيِّ نصٍّ آخر، وكان مشدوداً للطاقة الغنائية فيه، إلى أن بَلَغ بشِعْره المسار الذي أراده.

---

76) عبده وازن: الغريب يقع على نفسه، سبقت الإشارة إليه.

في "الأهرام" بصحبة الخالدين

في 11 أكتوبر/ تشرين 1971 كَتَبَ مدير شؤون العاملين (إدارة الموارد البشرية) بمؤسّسة الأهرام، مذكّرة داخلية لمدير المراجعة، تضمّنت كلمات قليلة جداً، لا تزيد عن أربعة أسطر:

(بعد التحيّة. تقرّر التحاق الأستاذ /محمود درويش للعمل بمكافأة شهرية، قدرها 140 جنيهاً شهرياً (مائة وأربعون جنيها) للعمل بإدارة التحرير اعتباراً من 1أكتوبر/ تشرين أوّل 1971).

وهكذا انتقل محمود درويش من صوت العرب إلى (الأهرام).

ورَغْم شيوع معلومة عمله بالأهرام، فإن ظروف الانتقال من رعاية "بهاء الدّين" إلى "هيكل" بجبروته المؤسّسي، ظلّت غير معروفة.

* * *

كافحتُ مع قسم شؤون العاملين في مؤسّسة الأهرام للبحث عن ملفّ وظيفيّ لمحمود درويش. ولأنه لم يكن مصريّاً، كان من الصعب العثور على هذا الملفّ. لكن البيروقراطية المصرية لا تفقد أبداً أوراق الصرف المالي. ويمكن تتبُّعها في الأرشيفات منذُ عهد الفراعنة، وإلى الآن.

لذلك طلبْتُ كشوف المكافآت التي يحصل عليها العاملون في الأهرام أو المتعاملون معها. وكان الزملاء في شؤون العاملين عند حسن الظّنّ، حيثُ جاء الفَرج عند مراجعة كشوف المتعاملين مع "الأهرام" منذُ أن وصل درويش إلى القاهرة حتّى غادرها.

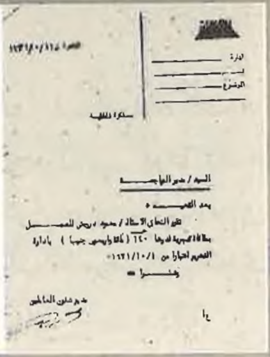

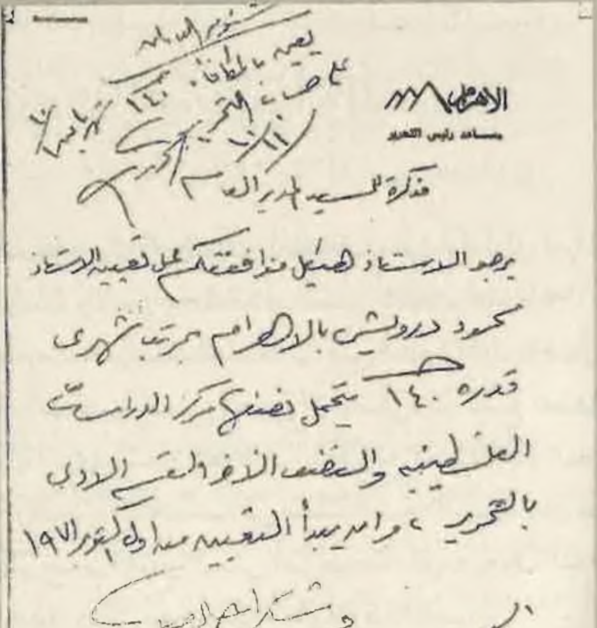

الأهرام
مساعد رئيس التحرير

مذكرة للسيد المدير العام

يرجو الأستاذ هيكل موافقتكم على تعيين الأستاذ
محمود درويش بالأهرام بمرتب شهري
قدره ١٤٠ يتحمل نصفه مركز الدراسات
الفلسطينية والنصف الآخر القسم الدولي
بالتحرير، على أن يبدأ التعيين من أول أكتوبر ١٩٧١

وشكراً لاهتمامكم

١٩٧١/١٠/٩

وثيقة تعيين درويش في الأهرام بقرار هيكل

وهنا اكتشفتُ أنه اعتباراً من أكتوبر/ تشرين 1971 أصبح من حَمَلة الجنسية "الأهرامية" في الصحافة العربية.

وفي أوراق الصَّرْف مذكِّرة داخلية أخرى موجَّهة للسَّيِّد رشاد الحدَّاد، مدير شؤون العاملين بالأهرام، كان نصُّها على النحو التالي: "يرجو الأستاذ هيكل موافَقَتكُم على تعيين الأستاذ محمود درويش بالأهرام بمرتَّب شهري قدره 140 جنيهاً، سيتحمَّل نصفها مركز الدراسات الفلسطينية، والنصف الآخر القسم الأدبي بالتحرير، وأن يبدأ التعيين من أوَّل أكتوبر 1971.

وشكراً خالصاً

د. عبد الملك عودة (6 أكتوبر/ تشرين/1971).

***

لمَنْ لا يعرف، فإن مركز الدراسات الفلسطينية هو نواة أولى لمركز الدراسات السِّياسيَّة والاستراتيجية الذي تأسَّس بالأهرام عام 1969. واستمرَّ يحمل اسم مركز الدراسات الفلسطينية حتَّى العام 1972، واختصَّ في بداياته بدراسات قضية الصراع العربي الإسرائيلي، ثمَّ توسَّع بعدها للبحث في قضايا أخرى، تشمل العلاقات الدَّوليَّة والإقليمية، وهو اليوم في طليعة المراكز البحثية المتخصِّصة في منطقة الشرق الأوسط، ومن ثمَّ كان وجود درويش ضمن الفريق البحثي أمراً طبيعيّاً، لكونه يعرف اللغة العبرية معرفة دقيقة، وعلى معرفة جيِّدة بطبيعة هذا الصراع.

ولنتذكَّر هنا الوصايا والنصائح التي قدَّمها أحمد عبد المعطي حجازي في المقال الذي رحَّب فيه بوجود درويش على أرض مصر.

لكنَّ ما لَفَتَ نظري في أوراق الملفِّ الماليِّ لمحمود درويش داخل مؤسَّسة الأهرام، مذكِّرة أخرى، تخصُّ نظام (التأمين) الماليّ، وتشير إلى

القاهرة في أول ديسمبر ١٩٧٢

السيد / مراقب الحسابات
اتحاد الإذاعة والتليفزيون (الإذاعة)

تحية طيبة وبعد ، ...
... بمبلغ ٣٤٫٢٩٠ ... المسحوب على بنك
القاهرة - رمسيس - قيمة سلفة السيد / محمود درويش (الشاعر) على ذمة
بدل السفر في المهمة التي أوفد من أجلها إلى بيروت وقبرص .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،،

مدير شئون العاملين

شارع الجلاء - القاهرة
إيصال ٦١٧٩
القاهرة في
بيان المبالغ الموردة من
المورد

مستندات أهرامية أخرى ومذكِّرات صرف مالية

أن درويش كان يعمل بإذاعة (صوت العرب)، حيثُ يطالب اتِّحادُ الإذاعة والتليفزيون الشاعرَ بتسديد سلفة مالية، قيمتها (34،290) جنيه، كان قد حَصَلَ عليها على ذمَّة بدل السَّفَر في المهمَّة التي أُوفد من أجلها إلى كلٍّ من بيروت وقبرص طبقاً للقرار الوزاري رَقْم 190 لسنة 1971.

وفي مذكِّرة أخرى نعرف أن الأهرام قامت بتسوية السلفة، وتحويلها لحساب الاتِّحاد على بنك القاهرة - رمسيس - بتاريخ 20-10-1971.

***

هكذا وَصَلْنا إلى رَقْم القرار الوزاري، الذي يؤكِّد أن درويش لم يعمل في مصر إلَّا في إذاعة صوت العرب، ومن بعدها (الأهرام)، في حين كانت علاقته بدار الهلال كما قالت "صافي ناز كاظم"، "صيغة خاصَّة" ابتكرها أحمد بهاء الدِّيْن، لكنها لم تكن بصفة "تعيين".

***

لا يمكن فَهْم انتقال درويش من صوت العرب أو حتَّى من الهلال إلى الأهرام إلَّا على ضوء التَّحوُّل الكبير الذي مرَّ به النظام السِّياسيُّ عقب أحداث 15 مايو/ أيَّار 1971، التي سمَّاها السادات (ثورة التصحيح)،

وكان الكاتب محمّد حسنين هيكل أحد مهندسيها الكبار الذين شاركوا السادات في التخطيط لها، ونجح عبرها في التّخلُّص من الرجال المقرّبين لعبد الناصر.

هؤلاء الذين اتّهمهم السادات بتدبير مؤامرة للاستيلاء على السلطة، وقام بالقبض عليهم، وهم: علي صبري، نائب رئيس الجمهورية، وشعراوي جمعة، وأمين هويدي، والفريق محمّد فوزي، وزير الدفاع، رئيس المخابرات العامّة أحمد كامل، ووزير الإعلام، محمّد فائق. ورئيس البرلمان محمّد لبيب شقير، والوزير سامي شرف، مدير مكتب جمال عبد الناصر للمعلومات.

خلال أقلّ من 6 أشهر، تولّى فيها السادات حُكْم مصر، اكتشفت هذه المجموعة أنه يسير في طريق يخالف معتقداتهم ورؤاهم في السياسات الدّاخليّة والخارجية، وعكست أجواء اجتماعات الاتّحاد الاشتراكي ملامح هذا الخلاف.

ومن ناحية أخرى، أُخذت على بعضهم تسجيلات، قدّمتها أجهزة الأمن، تضمّنت بعض الأقوال التي تدلُّ على الرغبة في التّخلُّص من السادات، وكان سلوك بعضهم في ممارسة السلطة قد جلب الكثير من عدم الرضا الشّعبيّ، ذلك على الرّغم من وجود شعبية لدى آخرين مثل محمّد فائق وشعراوي جمعة. لكن هيكل الذي كان إلى ذلك الحين قريباً من السادات، ابتكر ببلاغته المعتادة تعبير التّخلُّص من "مراكز القوى"، و"زُوّار الفجر". واستطاع السادات القبض عليهم، والسيطرة على زمام الأمور. وكما يقول المثل الشّعبيُّ "اتغدّى بيهم قبل ما يتعشُّوا بيه".

* * *

وفي تلك الأجواء القلقة، نظر درويش حوله، فلم يجد مَنْ جاؤوا به إلى القاهرة، وأقنعوه بمخاطبة العالم، لأنهم، ببساطة، صاروا في السجون،

وبدا واضحاً أن النظام في طريقه لتبنّي نهج آخر، يختلف عمّا خطّط له مَنْ أصبحوا في وسائل الإعلام "مساجين ومتآمرين".

هكذا فَهِمَ درويش أنه جاء إلى القاهرة في "الوقت الخطأ"، وأن موت جمال عبد الناصر الذي وجّه له الدعوة أفسدَ كلّ شيء.

وأدرك الشاعر بحساسيّته المعهودة تغيُّر الصورة تماماً، فلم يكن ما جرى سوى "انقلاب شامل" في أعلى السلطة، أنهى الوجود السِّياسيَّ لأغلب رجال جمال عبد الناصر الأقوياء.

تغيَّرت خريطة مصر التي أمسك بها درويش وهو في موسكو، وتغيَّرت إحداثيَّاتها بالكامل، وذَهَبَ أغلب مَن التقى بهم إلى السجون، وأوّلهم الوزير محمَّد فايق ومحمَّد عروق وبقية مجموعة صوت العرب، وانتهت الصيغة المعلَنة عن عمله بتلك الإذاعة التي كان لها تأثير سِحْرِيٌّ.

لم يبقَ أمام الشاعر من العالم الذي كان يعرفه سوى مراد غالب الذي ظلَّ في مكانه بموسكو قبل أن يُسند إليه السادات وزارة الخارجية بعدَها بقليل.

وبين يوم وليلة، وَجَدَ درويشُ نفسَهُ في "الظِّلِّ"، لا يعرف ما الذي ينبغي أن يفعله؟ وما هي خطوته المقبلة؟

وحدهُ ظلَّ أحمد بهاء الدِّيْن من الوجوه الأليفة التي كان يعرفها، ويطمئنُّ لها، ولم يكن بهاء محسوباً بشكل مباشر على جمال عبد الناصر، لأنه لم يكن في الدائرة الصَّحَفيَّة القريبة منه، رَغْمَ أنه كان يتولّى إدارة دار الهلال ورئاسة تحرير مجلّة "المصوَّر"، كما كان نقيباً للصَّحَفيّيْن، فإنه لم يقابل الرئيس عبد الناصر إلّا في اجتماعات عامّة، وعلى العكس كانت علاقته بالرئيس السادات وثيقة وممتدَّة، واعتقد كثيرون أن موقع "بهاء" لن يختلف، لأنه، ببساطة، خارج دوَّامات الصراع.

لم تكن معاناة الأستاذ بهاء مع اللحظة الجديدة أقلّ من معاناة "فلذة كبده"محمود درويش، فقد بدأت الخريطة الصَّحَفيَّة تتغيَّر بطريقة أسرع من ملاحقتها، وكان التغيير "العاصف" آتياً، لا محالة.

قاد مجيء السادات إلى السلطة بهاء إلى موقع مختلف، فبعد شهور، تمَّ نَقْله تعسُّفيّاً من دار الهلال، التي حقَّق فيها نجاحات كبيرة، إلى مجلّته القديمة "روز اليوسف"، حيثُ قرأ بهاء قرار النَّقْل في الصُّحُف.

وعلى الرَّغْم من علاقته الشَّخصيَّة الوثيقة بالسادات، فقد أصدر قرار نَقْله دون علْم مُسبَّق، وهو أمر احتجَّ عليه بهاء الدِّيْن عَلانية، وخلال شهور قليلة، تمَّ فَصْله من العمل الصَّحَفيِّ مرَّة، وتمَّ وَقْفه عن الكتابة مرَّتَيْن [77].

وكما يشير الراحل مصطفى نبيل، فقد بدا واضحاً أن الرئيس يريد تطويع الصحافة في ظلّ العهد الجديد عن طريق الصدمات الكهربائية التي كان يجيدها.

كَتَبَ بهاء إلى السادات بعد أن قرأ في الصُّحُف قرار نَقْله من دار الهلال، وإعادته إلى "روز اليوسف" قائلاً: لقد اخترعت الثورةُ صَحَفيِّيْن وكُتَّاباً ودكاترة في كلّ مجال، لكنني لستُ أحد اختراعات الثورة، وقد كنتُ رئيساً لتحرير أكبر جريدة في مصر، وهي أخبار اليوم، وأتقاضى أعلى حَدٍّ للمُرتَّب، وقد نُقلْتُ إلى دار الهلال مَنْفِيّاً في حقيقة الأمر، وبالتالي فإن من حقِّي أن يُؤخَذ رأيي في أيِّ أمر يتَّصل بي شخصيّاً، فلا أقرؤه في الصُّحُف دون سابق علْم، ولا أتحرَّك كقطعة شطرنج من مكان إلى مكان، وبلا رغبة [78]".

بسرعة بدأت محنة أحمد بهاء الدِّيْن مع السلطة، وهو الذي حافظ

77) مصطفى نبيل: مقال بمجلّة الهلال، أكتوبر 1996.

78) أحمد بهاء الدِّيْن: محاوراتي مع السادات، طبعة دار الهلال، القاهرة 1987، ص 24.

دائماً على استقلاليّته عنها، إلّا أنه تلقّى اتّصالاً في اليوم نفسه الذي كتب فيه هذه الرسالة من محمّد حسنين هيكل، يدعوه للقاء في مطعم جريدة الأهرام، وهناك تلقّى منه عرضاً بالكتابة والعمل في "الأهرام"، وتولّى هيكل، بناءً على اقتراحه، مهمّة الحصول على موافقة السادات على العرض الذي قدّمه.

ربما خاف بهاء في تلك الأيّام العاصفة على درويش أو "فلذة كبده"، فصنَعَ له الجسر الذي عبره باتّجاه ضفّة أخرى على نهر الصحافة المصرية، اسمها محمّد حسنين هيكل.

***

قامت علاقة بهاء وهيكل على أُسُس فريدة ومثالية، كان فيها الكثير من التقدير المشترك، وخَلَتْ من المنافسة المهنية، لأن كلّ طرف أدرك قيمة الطرف الثاني، وبينهما نمَت العلاقة بسرعة، على الرَّغْمِ من أنها لم تكن علاقة "قديمة"، لكنّها كانت مثمرة.

وفي كتابه "محاوراتي مع السادات" يروي بهاء الدِّيْن كيف تعرَّف إلى هيكل في آخر رحلة قام بها جمال عبد الناصر إلى سوريا، إحياء للذكرى الثالثة للوحدة قبل إعلان فشلها، وكانت في 20 فبراير/ شباط 1961، حيثُ سافرا معاً بصحبة الرئيس ضمن مجموعة من الصَّحَفيِّيْن، طافت مع الرئيس مُدُن (حماة وحمص والحكسة ودير الزور والبوكمال).

وكان من بين هؤلاء الصَّحَفيُّون هيكل وكامل الشناوي والفلسطيني ناصر النشاشيبي وإحسان عبد القدُّوس ومصطفى أمين ومصطفى المستكاوي وأحمد بهاء الدِّيْن، الذي أُتيح له هناك التواصل المباشر مع هيكل، والنقاش معه في أمور كثيرة، وبتعبيره "كنّا نجد دائماً ما نتحدَّث فيه معاً، وأينما كنّا".

وفي كلِّ مناسبة أو أزمة كان هيكل يعرض على بهاء الدِّيْن العمل معه في الأهرام مراراً، لكنه كان يعتذر، ويُفضِّل البقاء حيثُ يكون.

بتعبير بهاء "وثَّق هذا علاقتنا، فقد كنتُ أُفضِّل البقاء حيثُ أكون، وفي تقديري، فقد كان أسهل وأكثر راحة له أن يكون له صديقاً شخصيًا خارج مكان عمله، يتحدَّث معه بحُرِّيَّة".

ويضيف: "كانت شماتة هيكل كبيرة عندما ذهبتُ إلى الأهرام في الظروف التي ذكرتُها (بعد أزمة رَفْض قرار النَّقْل من الهلال إلى روز اليوسف) حين قال لي ضاحكاً: ألم يكن أحسن أن تأتيَ إلى الأهرام بالذوق لا بالعافية؟

وهكذا لم يعمل بهاء مع هيكل في الأهرام إلّا في السنوات الأولى من رئاسة أنور السادات، وكانت العلاقة بين هيكل وبين السادات لا تزال دافئة، ولا تقلُّ في مستواها عن علاقته مع جمال عبد الناصر [79].

لذلك كان انتقال درويش إلى الطابق السادس في الأهرام "خطوة ضرورية". ليطمئنَّ بهاء الأب على درويش الابن وسط العواصف السِّياسيّة التي كانت تعيشها القاهرة، وربَّما كان أيضاً تعبيراً موضوعيّاً عن دفء حقيقيٍّ، عاشتْهُ العلاقات المصرية الفلسطينية، وقت أن تولّت مصر تعبئة العرب للثأر من إسرائيل في معركة استرداد الأرض والكرامة.

انتقل درويش أوّلاً إلى مكاتب مركز الدارسات الفلسطينية في الطابق السادس بمبنى الأهرام الشهير في شارع الجلاء بالقاهرة قريباً من مكاتب "مَتْحف الخالدين" ، وكان هذا الطابق منصَّة "النجوم"، ودولاباً وظيفيّا كبيراً، اعتنى هيكل بأن يجمع فيه كلّ مقتنيات العقل المصري، حيثُ ضمَّ توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وحسين فوزي وزكي نجيب محمود وعائشة عبد الرحمن والدكتور بطرس بطرس غالي ولويس عوض.

79) أحمد بهاء الدّيْن، محاوراتي مع السادات، ص 40.

وفي "الأهرام" حَصَلَ درويش على راتب كبير، هو 140 جنيهاً مصريّاً، في حين كان راتب هيكل حين تَرَكَ منصبه في فبراير من العام 1974 ما قيمته (286) جنيهاً [80].

وعلينا أن نتخيّل الآن الصورة التي كانت عليها "أهرام هيكل"، حيثُ تحوّلت الصحيفة إلى واحدة من أكبر صُحُف العالم، تصنع الخبر، وتقود الاتّجاهات الرّئيسيَّة للرأي العامّ في العالم العربي، والأهمّ أنها تحوَّلت إلى منبر ثقافي، وجَمَعَتْ في الطابق السادس في ظاهرة غير مسبوقة نجوم الأدب والثقافة.

ذات مرَّة قال هيكل لعبد الناصر: "ما الذي أريده من كلّ هذا الحشد لقادة الفكر والمثقَّفين، إنهم ليسوا مجرَّد حلى ذهبية، ولكنهم دَوْر لا غنى لمصر عنه[81]".

ولا بأس أن يكون درويش هو الإضافة العربية الشّابّة للمؤسَّسة التي كانت تعيش عصرها الذَّهبيّ، فقد أراد هيكل بوجود هؤلاء المبدعين أن يؤسِّس لما سمّاه "صحافة القيمة والارتفاع بمستوى الحوار العامّ، وأن يكون المثقَّفون والأدباء والمفكِّرون في قلب المشهد، يتابعون ما يجري، ويكتبون عن معرفة [82]".

***

بالإضافةً إلى قصيدة "غزَالٌ ودم"، نَشَرَ محمود درويش في الأهرام، وبالتحديد من الفترة من 12 نوفمبر/ تشرين الثاني 1971، إلى 5 أكتوبر/ تشرين الأوّل 1973، تسع قصائد، هي: 4 مزامير (وكانت الرسوم بريشة

80) أنور عبد اللطيف :هيكل الوصية الأخيرة، دار بتانة، القاهرة، 2016، ص110.

81) عبد الله السناوي: أحاديث برقاش، هيكل بلا حواجز، دار الشروق، طبعة 2017، ص 121.

82) عبد الله السناوي: المرجع السابق، ص 121.

كأني أحبك
شعر: محمود درويش

يوسف فرنسيس)، أُغنيَّة البطل اليائس (بريشة يوسف فرنسيس)، سرحان يشربُ القهوةَ في الكافتيريا (بريشة يوسف فرنسيس)، عودةُ الأسيرِ المصري - إلى الأسيرِ الشهيدِ سعيد نصَّار (بريشة مكرم حنين)، حوارٌ مع مدينةٍ (بريشة مكرم حنين)، الخروجُ من ساحلِ المتوسِّط (دون رَسْمٍ)، كأنيِّ أُحبُّكِ (بريشة مكرم حنين)، تأمُّلاتٌ في لوحةٍ غائبةٍ (بريشة مكرم حنين)، النهرُ غريبٌ وَأنْتِ حبيبتي (بريشة مكرم حنين).

شهد العام 1973 قفزة في معدَّلات إنتاجه الشِّعْرِيِّ أيضاً.

فبخلاف القصائد، نَشَرَ عشرات المقالات والتقارير الصَّحَفِيَّة والمتابعات والتغطيات، وكلُّها تُنشَر في ملاحق هذا الكتاب لأوَّل مرَّة.

المرجَّح أنَّ هذه القصائد (الأهرامية) أو (المصرية) كَتَبَهَا - جميعها - في القاهرة. وقد توفَّرت ريشتان لرسَّامَيْن من الأهرام لتجسيد شِعْره، وَهُما: يوسف فرنسيس ومكرم حنين[83].

لكن البحث في مصادر أخرى يُشير إلى أن بعض تلك الرسومات رُسم بريشة الفنَّان محمَّد حجي، كما أنَّ (غزال ودم) ليست هي أوَّل قصيدة نَشَرَهَا محمود درويش في مصر، إنَّما أوَّل قصيدة تنشرها جريدة الأهرام.

83) أحمد الشهاوي: مصدر سابق.

الأهرام - ٧١/١٢/٣ - ٥

...ار مجلــــس الأمــــن

غـــــزة كل يـــــوم

غزة لا تواصل انفجارها اليومي، لنقول لها: شكراً!

وغزة لا تواصل ... اليومي على الموت الذي نطلب منها ...

وغزة لا تجد ... من الموت لكي نقرأ ...

ولا يريد أن غزة لأنها محاصرة بالأهل والأعداء!

...

شـــكراً يا غزة

ونحيـــة يا غزة!

محمود درويش

اجتماعيات

الخطبة

برنامج رقم ٧١/١١

الجمعية العربية للتكاليف

الحادي عشر لعام ١٩٧١

محاسبة التكاليف لغير التجاريين

فقد نَشَرَ قبل المجيء إلى مصر العديد من القصائد في مطبوعات "دار الهلال" خصوصاً المصوَّر والكواكب والهلال التي نَشَرَتْ له أيضاً مقاله الشهير "لماذا خرجتُ من إسرائيل" في عدد مارس/ آذار 1971، بعد شهر واحد من مجيئه القاهرة، وكانت معه لوحة بورتريه بديعة للشاعر، رَسَمَهَا الفنَّان الفلسطيني الشهير إسماعيل شمُّوط".

إضافة إلى القصائد، كما ذكرْنا، وَاصَلَ درويش عمله في مركز الدراسات الفلسطينية (مركز الدراسات الاستراتيجية الآن)، ونَشَرَ على صفحات الأهرام مجموعة من المقالات التي تتحدَّث عن الشَّأن الفلسطيني، ومنها مقال عنوانه: "غَزَّة كلّ يوم" نُشر في 2 ديسمبر/ كانون الأوَّل 1971.

كما نَشَرَ بعدها بأسبوع تعليقاً على انعقاد (مؤتمر الأدباء العرب في دمشق) بتاريخ 9 ديسمبر / كانون الأوَّل 1971. كان درويش من بين الكُتَّاب الرَّئيسيِّيْن في الملحق الأدبي الذي كان يحرِّره آنذاك لويس عوض، وكَتَبَ

إلى جواره العديد من الموادّ منها: (عزف منفرد فوق القانون 31-03-1972، و(ضاع الشِّعْر في البصرة 21 أبريل/ نيسان 1972).

كَتَبَ، كذلك، تغطيةً صحَفيَّة من بيروت عن الخوف من الشِّعْر، وعن تراجع أرقام النَّشْر. بعنوان (نحن نستمع ولا نقرأ). وفي الفترة نفسها، كَتَبَ مقالاً مُهمّاً عن رواج الكُتُب الإسرائيلية المترجمة إلى العربية، عنوانه (ظاهرة تثير القلق .. من الانغلاق التّامِّ إلى الانفتاح التّامِّ)، ومن بيروت أيضاً كَتَبَ رسالة، بعنوان (حتَّى تصبح يا وطني وطني) نُشرَت بتاريخ 14 يوليو/ تمّوز 1972.

بعدها، وتدريجيّاً، بدا واضحاً تراجُع نشاطه الصَّحفيِّ، بسبب كثرة تنقُّلاته من القاهرة إلى عواصم أخرى، أبرزها بيروت. ففي مارس/ آذار 1972، يظهر له مقال وحيد ضمن صفحة تيَّارات عربية، وإلى جواره كاريكاتير صلاح جاهين، عنوانه: (شباب عربي وإسرائيلي في قفص اتِّهام واحد .. مقاومة لا تجسُّس)، ومن هولندا كَتَبَ رسالة، عنوانها "الشِّعْر يعلن حضوره"، لكنه، مع ذلك، واصل نَشْر قصائده، ومنها (تأمُّلات في لوحة غائبة، النهر غريب وأنتِ حبيبتي).

واعتباراً من 28 يناير/ كانون الثاني 1972، ركَّز اهتماماته أكثر على الشأن الفلسطيني، ونَشَرَ مقالاً مهمّاً، عنوانه (صورة إسرائيلية)، ضمن سلسلة حول الصورة التي خَلَقَتْها إسرائيل عن مواطنيها أمام الغرب، كما نَشَرَ دراسة مهمَّة، عنوانها (معنى القلق في الأدب الإسرائيلي)، بدأها بـ "أنا وأنتَ والحرب القادمة" 25 فبراير/ شباط 1972.

لعلَّ ما يُفسِّر قلَّة كتاباته في تلك الفترة داخل الصحيفة اليومية، هو انتقاله للعمل في مجلَّة الطليعة التي كان الكاتب لطفي الخولي، أسَّسها في العام 1966، داخل الأهرام منبراً للفكر اليساري، وظَهَرَ اسم محمود درويش في هيئة تحرير ملحق الفنِّ والأدب؛ عند ظهوره لأوَّل مرَّة في العام

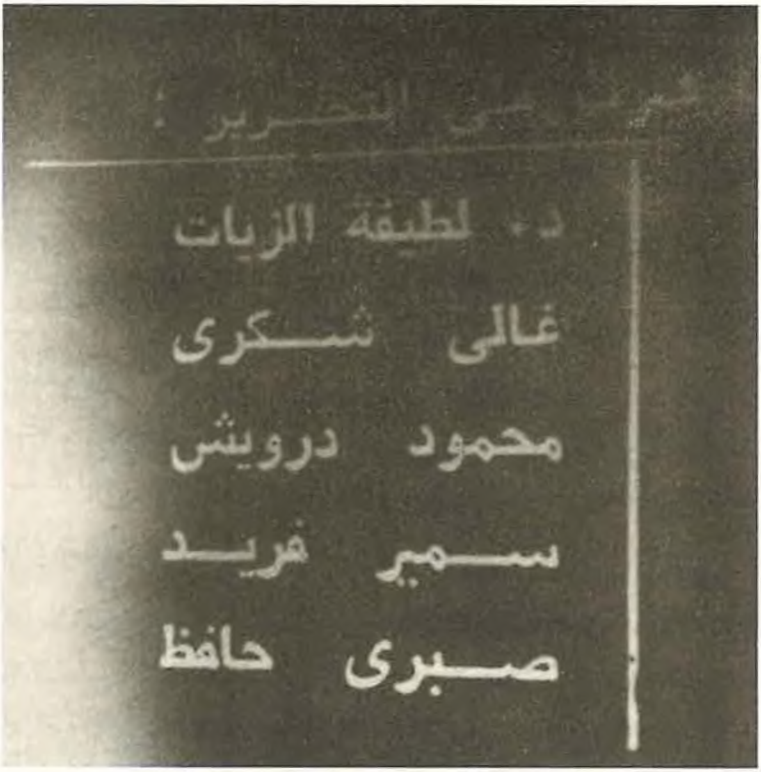

1972 إلى جوار الدكاترة: لطيفة الزَّيَّات، غالي شكري، صبري حافظ والناقد السِّينمائيّ سمير فريد.

مَنْ يُراجع أعداد المجلَّة في تلك السنوات، لا يفوته أوّلاً أنّ نكسة العام 1967 كانت ذات أثر عميق في تعاطي المجلَّة مع قضايا الأدب والثقافة بوجه عامٍّ، حيثُ كان ممكناً في هذا المجال بالذات، أن يظهرَ وعيُ الطليعةِ بالشَّرخ الذي أصاب الزعامة النَّاصريَّة.

وبدأت المجلَّة نَشْر سلسلة، تكفَّل بكتابتها غالي شكري عن "أدب المقاومة" نَقَلَ فيها سَعْي المجلَّة لتهميش "البطولة الفَردية [84]".

84)82. الطليعة، مجلَّة، مؤسَّسة الأهرام، عدد ديسمبر 1969.

وبَرَزَ في المجلّة الاهتمام الواسع بـ "الشأن الفلسطيني"، ويتّضح لاحقا عملها على رَبْط تطورات القضية بمركزية الدَّوْر المصري. كما حاولت المجلّة مساعدة قُرَّائها على فَهْم الصِّهيونيَّة والأوضاع داخل إسرائيل كضرورة لازمة في أيّة مواجهة قائمة عقب نكسة العام 1967، حيثُ سَعَت المجلّة إلى تكريس المقاومة، ودَعْم خطِّ الكفاح المسلَّح. بل الاحتفاء بدَوْر تنظيم "فتح" رَغْمَ هواجس النظام المصري القديمة تجاهه، وكان هذا مرتبطا بتطوُّر رؤية عبد الناصر إيجاباً للتنظيم في إطار رهانه على العمل الفدائي الفلسطيني [85].

أبدت المجلّة، قبل أن ينضمّ درويش إلى هيئتها التَّحريريّة، اهتماما بالمقال الذي كَتَبَهُ ونَشَرَتْهُ مجلّة الآداب، بعنوان "خطابٌ مفتوحٌ إلى النُّقَّاد والأدباء العرب - أنقذونا من هذا الحُبِّ القاسي [86]"، وأعادت نَشْره.

جاء التحاق درويش بالمجلّة في سياق، شمل زيادة في أعداد الأسماء الفلسطينية التي انتظمت في الكتابة للمجلّة وملحقها الأدبي، مثل سعيد حورانية، صديقه الذي صَنَعَ له حفل الوداع في موسكو، فقد كان يكتب من هناك رسائل منتظمة، كما نَشَرَ الشاعر مريد البرغوثي قصيدته "سادت في الأُفق طيور عمياء"، ونَشَرَ الشاعر معين بسيسو الذي استقبل درويش بحوار أجراه معه في "الأهرام" يوم وصوله؛ قصيدة " آخر القراصنة"، وكذلك ظَهَرت قصصٌ لمحمود الريماوي، وآخرين.

***

شواهد كثيرة تدلُّ على فاعلية وجود درويش داخل المجلّة. فقد كَتَبَ الناقد السِّينمائيُّ الراحل سمير فريد، شهادة عن تلك الفترة قائلاً:

---

85) أحمد صلاح الملاّ: - أحمد صلاح الملاّ: اليسار المصري بين عبد الناصر والسادات (مجلّة الطليعة 1965 - 1977، دار الكُتُب والوثائق القومية، سلسلة مصر النهضة، 2014، ص 347.

86) مجلّة الطليعة، مؤسّسة الأهرام، عدد ديسمبر 1969.

"اقتربتُ من محمود درويش عندما عملْنا معاً في مكتب واحد في مجلَّة "الطليعة" بالأهرام لإصدار "ملحق الأدب والفنّ" الذي صَدَرَ عدده الأوَّل في يناير 1972، وكانت أوَّل قصيدة اختارها درويش للنَّشْر هي "اشتهاء الملكة" للشاعر الشَّابِّ آنذاك "محمَّد عفيفي مطر[87]".

وتُبدِّد هذه المعلومة ما أُشيع عن عزلة درويش في القاهرة، لأن الطليعة آنذاك كانت هي المنبر الأهمَّ الذي يكتب فيه أهمُّ أدباء ونُقَّاد مصر القدامى والجدد، ويبدو أن اختيار درويش لقصيدة عفيفي لم يكن فقط دليلاً على وعي بأهمِّيَّة تجربته، إنما إشارة لتقدير شعْريٍّ متبادَل، حيثُ نشرَتْ مجلَّة "سنابل" التي كان يصدرها عفيفي مطر في فبراير 1971 قصيدة لدرويش بعنوان (كبر الأسير).

في هذا المناخ، انغمسَ درويش في النصوص الأدبية التي كان يقرؤها ويُعجَب بها، فكان - كما وصف نفسه مراراً - أحد أبناء الثقافة المصرية تقريباً.

في تلك الأيَّام، كانت "الطليعة" تضع جدول أعمال الثقافة المصرية عبر فصيل تقدُّمي، يخوض صراعاً ضدَّ اليمين الثَّقافيِّ الداعي لعزلة مصر، وكان غالي شكري على صفحاتها يواصل التمهيد لما سمَّاه أدب الموجة الجديدة، ويراهن على صوت "أمل دنقل" بالتحديد، ويقدِّم فاروق عبد القادر الإشارات الأولى عن جيل السِّتِّينيَّات، ويدشِّن سمير فريد ميلاد فيلم "المومياء" لشادي عبد السلام".

* * *

في "الأهرام" وخارجه التقى درويش برموز الثقافة المصرية المعاصرين، وكان يعدُّهم "آباء روحيِّيْن"، كما التقى بالمبدعين العرب الذين كانوا يفدون

87) عزمي عبد الوهاب: : كتاب "وجوه تطلُّ من مرايا الروح" دار بتانة، القاهرة، 2018، ص 54.

إلى القاهرة، ومن بين هؤلاء الشاعر العراقي الكبير محمّد مهدي الجواهري الذي زار الطليعة، والتقى هناك بمحمود درويش ويوسف إدريس ومعين بسيسو، و"أخذوا جميعاً يترنّمون بشعْره القديم وذكرياتهم مع هذا الشّعْر"[88].

بعد أكثر من 35 عاماً، قال درويش لعبده وازن: "من سوء حظّي أنني لم ألتق طه حسين، كان في وسعي أن ألتقي به، ولم يحصل اللقاء، وكذلك أمّ كلثوم لم ألتق بها، وحسرتي الكبرى أنني لم ألتق هذه المطربة الكبيرة. كنتُ أقول إنني ما دمتُ في القاهرة، فلديّ متّسع من الوقت لألتقي مثل هذه الشّخصيّات".

أمُّ كلثوم بالذات وصَفها بـ "متنبّي الغناء العربي". وكتَب عنها نصّاً فريداً، بعنوان (إدمان الوحيد) في كتابه (أثر الفراشة).

وفي الحديث ذاته عبّر درويش عن سعادته بالوجود في طابق الكبار، وقال: "عيّنني محمّد حسنين هيكل مشكوراً في نادي كُتّاب الأهرام، وكان مكتبي في الطابق السادس، وهناك مكتب توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وبنت الشاطئ، وكان توفيق الحكيم في مكتب فردي، ونحن البقية في مكتب واحد، وعقدتُ صداقة عميقة مع محفوظ وإدريس، الشّخصيّتيْن المتناقضتيْن، محفوظ شخص دقيق في مواعيده، ومنضبط، يأتي في ساعة محدّدة، ويذهب في ساعة محدّدة، وكنتُ عندما أسأله: هل تريد فنجان قهوة، أستاذ نجيب؟ كان ينظر إلى ساعته قبل أن يجيب، ليعرف إن كان وقت القهوة قد حلّ أم لا، أمّا يوسف إدريس، فكان يعيش حياة فوضوية وبوهيمية، وكان رجلاً مشرقاً[89]".

ظلّت علاقة درويش مع هيكل قائمة حتّى أيّامه الأخيرة، وكانت زيارة

---

88) غالي شكري: من الأرشيف السِّرّيّ للثقافة المصرية، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2015، ص89.

89) عبده وزان: الغريب يقع على نفسه، ص 36.

يوميات

تذكرت نفسى الى واقعة لى مع مسلسل زيارة مكتبة فلان فى مجلة صباح الخير كان الاستاذ توفيق الحكيم مشهورا بالبخل وبالتالى كان لا يحب ان يزوره احد فى منزله لشدة حرصه على خصوصية حياته ولم يكن يعرف مكان مسكنه الا القليلون وفى الاسكندرية حين كنت اوصله بسيارتى من مقهى بترو الى بيته كان لا ينزل ابدا امام بيته . انما يقول لى اتركنى هنا لاننى احب ان اتمشى قليلا - حتى لا اعرف اين بيته . وحين وجدنى فى مدخل مسكنه فى القاهرة صعق ورأيته متضررا لاننى صاعد اليه . حتى طمأنته الى اننى صاعد الى مسكن الشاعر محمود درويش . وان كان اكتشافه ان اديبا معروفا آخر يسكن فى نفس عمارته قد ازعجه

ولكن لابد ان اجرى معه حلقة عن زيارة مكتبة توفيق الحكيم - ويوم نشرت تلك الحلقة فى مجلة صباح الخير كان اول من حدثنى تليفونيا فى الصباح الباكر المرحوم كامل الشناوى صائحا متعجبا كيف حققت هذا السبق العالمى ودخلت بيت توفيق الحكيم وبقيت فى حجرة مكتبه حتى اصفها هذا الوصف الدقيق المفصل ؟ واين يقع بيت توفيق الحكيم ؟ .

ورويت له القصة الحقيقية ! واننى لم ادخل بيت توفيق الحكيم - ما الذى حدث ؟

كان توفيق الحكيم قد طلب منى ان ازوره فى مكتبه فى المجلس الاعلى للفنون . ومنه املى على وصفا كاملا لمكتبه . وكتبه - واثاث الغرفة وافاض يسرد فى كل ما تصور انه قد يهمنى من كتب ويعلق عليها . وكيف يرتبها . ومواقع الادب الروسى من الادب الفرنسى او الادب الانجليزى بطريقة شيقة مفصلة احسن مما يمكن ان يصفه اى صحفى محقق . وقد كان [illegible] بتحقيق [illegible] واستبعد [illegible] عن كل سؤال .

ولم يكن امامى إلا ان اكتب ما املاه على دون اى تعديل : وقد اجاب على كل الاسئلة التى كانت فى ذهنى حتى دون ان استفسر : وذلك لكى يوفر على مشقة الاستجابة لى لو طلبت منه ان ازور بيته او مكتبه .

ولم يصدق المرحوم كامل الشناوى روايتى : وقال انه متأكد ان توفيق الحكيم اتفق فى هذه الرواية وجعلنى اقسم على المصحف الا اقول غيرها والا سوف يتكاثر الزوار .

وروى لى كامل الشناوى وقتها نكتة من نكاته الشهيرة كما قال لى : ان [illegible] مستترا . قليلا زار بيت توفيق الحكيم فخرج منه مستغربا .

[illegible]

أحمد بهاء الدين

عمود بهاء الدِّيْن، ويشير لعنوان السَّكَن

عنوان توفيق الحكيم

بيته، والغداء معه؛ واحدة من طقوس درويش الثابتة عند كلِّ زيارة، وكما لاحظ الصَّحَافيُّ النَّاصريُّ عبد الله السّناويّ، المقرَّب من هيكل، "فقد كانت علاقته مع درويش أقرب إلى التقاء أرواح [90]".

كان "هيكل"- بالنسبة لدرويش - من أكثر الشّخصيّات التي يُغدق عليها الصفات الحَسَنَة لذكائه، ولحُسن اطّلاعه الواسع على مصادر المعلومات، ولموقفه القومي "السليم" و"لنباهته وظَرْف مجلسه [91]".

***

ما لم يذكره درويش، أنه سَكَنَ في البناية ذاتها التي يسكنها توفيق الحكيم، وهي البناية رَقْم 1095 بشارع كورنيش النيل جاردن سيتي، وتولّى محافظ القاهرة وقت مجيئه السِّيِّد وجيه أباظة، تدبير هذه الشُّقَّة، كما شَرَحَ لي صديقه "نبيل درويش" المدير السابق لمكتب إذاعة مونت كارلو في القاهرة.

وهذه الشُّقَّة كانت بغرف كثيرة، وتدفع كثيرين لطَرْق أبوابه في الليل والمبيت عنده، لكنه بعد فترة بدَّلها بشُقَّة أصغر من "غرفة نوم واحدة، لكي لا يهبط عليه أحد، يُقلِق وحدته [92]".

***

صادَق درويشُ الشعراءَ الذين كان يحبُّهم: صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، وعبد الرحمن الأبنودي، وصلاح جاهين، وأمل دنقل، (كَتَبَ مَرثيَّة للأخيرَيْن؛ واحدة نَثْراً والثانية شِعْراً) ووَصَفَهم بـ "القريبين جدّاً".

وكما قال: "كانت القاهرة من أهمّ المحطّات في حياتي".

---

90) عبد الله السّناويّ: أحاديث برقاش، دار الشروق، القاهرة، طبعة 2017، ص 161.

91) شربل داغر: مرجع سابق، ص 79.

92) فيصل حوراني (لقاء مسجّل).

حكاية أخيرة عن العزلة

واصَلَ درويش عمله في الأهرام، وأنتجَ بغزارة تقارير صحفيَّة حول الوَضْع الفلسطيني، وكَتَبَ رسائل تُغطّي مؤتمرات أدبية، كان يحضرها، بخلاف قصائده التي كانت تُنشَر في ملحق الأهرام الأدبي، الذي يشرف لويس عوض على تحريره، إلى جانب قصائد، كانت تظهر في مطبوعات أخرى، ومع انتقاله إلى "الطليعة" لم تنقطعْ مساهماته في "الأهرام"، وإن بدا واضحاً أنه يهتمُّ أكثر بعمله في "الطليعة"، التي أتاحت له الوقت للسَّفَر والتجوال في عواصم أخرى داخل العالم العربي وخارجه.

كانت مصر تموج بالغضب، بسبب الإرجاء المتكرِّر وغير المبرّر لقرار الحرب، وظلّ السادات يخطب باستمرار متحدّثاً عن المعركة، مع شعور الناس بأنه لا يوجد شيء يدلُّ على الاستعداد لأيِّ معركة، وانتهى العام الذي سمّاه السادات "عام الحَسْم"، ودخلت مصر العام الذي سمّاه الناس "عام الضباب"، وعلى سبيل الاحتجاج، صَعِدَت الحركة الطُّلّابيَّة، ولعب اليسار بتنظيماته دوراً فاعلاً في تنظيمها، إلى أن بلغت ذروتها في اعتصام ميدان التحرير الشهير، الذي خلَّده الشاعر أمل دنقل في قصيدته الشهيرة "أُغنيّة الكعكة الحَجَريَّة".

بدا واضحاً أن الأُغنيّات الداعية للثورة لا يمكن تفاديها، حيثُ ارتفعت في الشارع نبرة الهجوم على الرئيس السادات ومؤسَّسات الدولة الأساسية، وصَدَرَ بيان مجموعة من كبار المثقَّفين، تصدَّرَهُم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ للتضامن مع الحركة الطُّلّابيَّة، وقَّع عليه مائة صَحَفِيٍّ، وعارض

الاتّجاه الرّسْميّ الذي يجرّم قياداتها [93]، وكانت فيه فقرة، لم ينسه السادات أبداً للحكيم، تقول: "لقد كثر الكلام عن المعركة دون معركة حتّى صارت المعركة مضغةً في حلوقنا، لا نستطيع أن نبتلعها، ولا نستطيع أن نلفظها"، وبسببها كان دائماً يصف الحكيم بـ "العجوز المخرّف [94]".

في تلك الأجواء المشتعلة، فكّرت مجموعات طلّابيّة في دعوة درويش ليقدّم أشعاره خلال فترات الاعتصام داخل الجامعات، كشكل من أشكال التضامن مع أهداف الحركة الطُّلّابيّة، وتطوّعت منى أنيس لزيارة محمود درويش، ولم تكن تعرفه إلّا من أشعاره، وتأخّرت المعرفة الفعلية حتى العام 1995.

ذهبت أنيس ومعها زميلها في الحركة سمير غطّاس (النائب البرلماني في مصر، حيثُ لا يزال يستعمل اسماً حركيّاً، هو محمّد حمزة) بتكليف من زملائها لإقناع الشاعر بالمشاركة في أُمسيّة شعْريّة، لدعْم الحركة الطُّلّابية باعتباره أيضاً من "أيقونات النضال لأجل تحرير فلسطين"، حيثُ كان التلاحم قائماً بين الطُّلّاب المصريّيْن وقضية فلسطين.

كانت أشعار محمود درويش واحدة من علامات مجلّات الحائط الجامعية، إلى جانب أشعار أحمد فؤاد نجم، وأمل دنقل، وفؤاد قاعود، ونجيب شهاب الدّيْن، التي تغنّى بها الشيخ إمام، الذي أصبحت أُغنياته عنواناً من عناوين تلك المرحلة التّاريخيّة.

في اللقاء الذي تمّ في فندق شبرد، قريباً من بيته في "جاردن سيتي" سأله غطّاس بعنف، كما حكَتْ لي منى أنيس: "لماذا تركت المقاومة

93) أحمد عبد الله (دكتور) الطّلبة والسياسة في مصر، ترجمة إكرام يوسف، دار سينا للنشر، القاهرة، طبعة أولى 1991 - ص 239.

94) أحمد بهاء الدّيْن: مرجع سابق، ص 27.

بنت مصر؟". ويبدو أن درويش انزعج بشدّة من صيغة السؤال وطريقة طرحه، وأشعل سيجارة مارلبورو، و"حَمَلَ أوراقه ومضى".

تقول منى أنيس: كان صمته متعالياً، لكنه منسجم مع نبرة تلك الأيّام، حيثُ المبالغة في تقدير كلّ الأدوار[95].

---

95) لقاء مع منى أنيس بمنزلها، وسط القاهرة، يوليو 2018.

نداء بيروت

في صيف 1972، حَضَرَ محمود درويش، لأوّل مرّة، اجتماعاً استثنائياً للمجلس الوطني الفلسطيني، عُقِد في مبنى جامعة الدول العربية في القاهرة، وكان هو "النجم بلا منازع"، كما يصف الكاتب اللُّبنانيُّ طلال سلمان ظهوره في المشهد.

تَدافَعَ الكلُّ إليه، يُحيُّونه بالقبلات والدموع، يرمونه بألف سؤال في الدقيقة، يقفون إلى جانبه لأخذ صورة تذكارية، يشكون إليه هموم واقعهم "العربي" بمرارة، تكاد تفوق مرارته من واقع أهله تحت الاحتلال الإسرائيلي، ما دَفَعَهُ إلى اتّخاذه قراره الصعب بالخروج.

يحاولون أن يعرفوا موقفه من ياسر عرفات، ومن التنظيمات الفلسطينية المعارضة، ومن أنور السادات ونظامه وهل هو ناصري فعلاً أم لا.

قرَّر محمود درويش أن يسمع فلا يُعلّق، وأن يتكلَّم إذا ما تكلَّم عن إسرائيل، مجتمعاً وأحزاباً وقادة سياسيِّيْن وتنظيمات، وعن جيشها بحدود ما يعرف عنه. وبطبيعة الحال عن "الفلسطينيِّيْن" فيها، الذين أُنكِرَت عليهم "فلسطينيَّتهم" وجَعَلَتْهُم "عرب إسرائيل".

والمؤكَّد أنه تلقَّى خلال تلك الاجتماعات عرضاً بالانتقال إلى "بيروت" التي كانت تبدأ عهد "يوتوبيا، المدينة المثقَّفة" بتعبير خالدة سعيد، وهو عهد يُغري شاعراً لديه الطموح الذي كان لدى درويش.

وكما يحكي أنيس صايغ[96] مدير مركز الأبحاث الفلسطينية، في مقال نُشر في كتاب (عَصِيّ على النسيان)، فقد قابل درويش مرّتَيْن بالقاهرة خلال انعقاد اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني (صيف العام 1972) في المرّة الأولى دعاه محمود درويش لحضور أوبرا موسيقية، وَضَعَهَا الفنّان الفلسطيني ثيودور عرنيطة، ملحّناً به قصيدة "سجِّلْ، أنا عربي" وكان معه في الحفل الشاعر صلاح جاهين وزوجته الفنّانة مُنى قطّان.

في المقابلة الثانية قدّم صايغ لدرويش عرضاً للعمل معه في المركز، وفي مجلّة "شؤون فلسطينية" التي صَدَرَتْ في مطلع العام 1971. وكانت أوّل مجلّة عربية شهرية متخصّصة بالمسألة الفلسطينية. يقول صايغ: "إن درويش قبل فوراً بعرض العمل في بيروت، وبراتب شهري متواضع، وردّ قائلاً: أنا جاهز للمجيء إلى بيروت فوراً"، وترَكَ لي التفاصيل، وتحديد الموقع.

96) أنيس صايغ مقال بعنوان "ذكريات" منشور في كتاب "محمود درويش عصّي على النسيان، مرجع سابق، ص-108

النيل ليس النيل

كَتَبَ طلال سلمان عن المرّة الأولى التي التقى فيها مع محمود درويش بالقاهرة، وقال إنه "جال مع الأصدقاء الجدد عبر المقاهي التي كان يحفظ أسماءها وأسماء زبائنها من الشعراء والكُتّاب غيباً: مقهى ريش، بار الأنجلو، سيسيل بار ... لكنه كان شديد الحساسية تجاه الغبار و"الشّعبويّة"، لذا فقد قرّر أن تكون لقاءاته في بعض مقاهي الفنادق الكبرى، حيثُ تُضمن، على الأقلّ، (نظافة المكان[97])".

في مقابل ذلك، تنفي منى أنيس فكرة (العزلة التي عاشها) درويش في مصر، وتشير فقط إلى "طابعه المتحفّظ"، وتقول: كانت لديه طلّة متحفّظة، يمكن "نافرة" شوية، وتعطي بعض الانطباعات غير الحقيقية عن شخصيّته.

ودائماً يتحاشى التعامل مع شخص لا يُحبُّه أو "ربّما يعامله بوقاحة". لذلك كان دقيقاً في اختياراته للناس.

وهكذا تجنّب درويش (الفضاءات الثّقافيّة الشّعبويّة) ليتفادى بعض الاحتكاكات مع المثقّفين الذين لم يقبلوا برعاية الدولة لـ (موهبته)، لكنه، في المطلق، لم يحرم نفسه من بناء صداقات مع بعض وجوه الحركة الطّلّابيّة والشباب المبدعين الذين كانوا بمثل عُمُره، إلّا أنه تعرّض كذلك لبعض ردود الأفعال التي تكشف عن توتّرات تلك السنوات، فقد كان

97) طلال سلمان: محمود درويش: لماذا تركتُ الحصان وحيداً؟ كتاب غصّ على النسيان، مرجع سابق، ص63.

نجيب سرور يهتف كلَّما رآه "إحنا كمان شعراء الأرض المحتلَّة، عايزين نسكن في شبرد[98]".

كما راجت أُغنيَّة للثُّنائيِّ الشهير أحمد فؤاد نجم، والشيخ إمام، في أوساط المثقَّفين، يزعم البعض أنها كانت تسخر من محمود درويش مباشرة، ومن الإمعان في تدليله[99].

تبدأ الأُغنيَّة بمقطع: "سَلِّمي، يا عزيزة، على الأستاذ"، وممَّا جاء فيها:

أنا رأيي، يا سيِّد محمود / وبرَغْمَ الصمت المقصود
إنكَ فنَّان المستقبل / ونشيد العصر المنشود
قرّبي، يا عزيزة، من الأستاذ / محمود ما بقاش محمود الباز /
محمود بقى منّا خلاص
ولا فيش
يا عزيزه النيزه كوا النيزه / كان لازم تطلعي مركيزه
ترالم ترالم ترالم / لم لم
العود النود / بيزيح الهمّ، ترالم ترالم ترالم / لم لم
محمود بقى منّا خلاص ولا فيش / قرّبي، يا عزيزة، ما تتأخّريش
يا عزيزة النيزه كوا النيزه / أنا رأيي إنك مركيزه
هلالم هلالم هلالم لم لم لم / محمود النود بقي نازل هم / هلالم
هلالم..

***

ما يمكن فَهْمه من شهادات المحيطين: أنّ درويش كان مُتحفظاً في

98) شهادة صافي ناز كاظم.

99) يؤكّد الدكتور عصمت النمر، أحد وجوه الحركة الطُّلابيّة في السّبعينيّات، وأدقّ مؤرّخي أُغنيّات نجم والشيخ إمام هذه المعلومة، ويقول إن الأُغنيّة كانت تستهدف محمود درويش.

علاقته مع الناس، وانشغل بصورته العامّة، لذلك تجنّب الانخراط في علاقات واسعة داخل القاهرة.

وهناك سبب موضوعي آخر يتعلّق بالفوارق بين العلاقات الاجتماعية التي وَجدهَا في مصر وخلفيته كوافد من مدينة فلسطينية صغيرة.

الأمر المؤكّد، أن درويش كان، بشكل عامّ، يتضايق من الحفلات العامة الواسعة التي يفرض عليه بعض أصدقائه حضورها. وما أكثر ما كان يأتي إلى الاحتفال، ثمّ في مصر قرّر درويش أن يرضى بـ"العزلة الرّسْميَّة المفروضة عليه"، وتصرَّف كشاعر، وانخرط في الدوائر التي تُنمِّي قصيدته، وتُطوّرها فنياً، كما نفهم من رسالة كتبهَا إلى الشاعر سميح القاسم، يستعيد فيها علاقته مع الشاعر الفلسطيني الراحل راشد حسين، يشير إلى أنه حين دعاه إلى زيارة القاهرة، تمَّ إيقافه بالمطار لنحو أربع ساعات، وحين خرج عانقه مداعِباً، قال له: "اسمعْ، واقف كُلّي مَذَلّة في مطار القاهرة/ ليتني كنتُ طليقاً في سجون الناصرة". لكنه يشير إلى أنه أرشد راشد حسين إلى العالم الثَّقافيِّ للقاهرة، ورتَّب له لقاءات، جَمَعَتْهُ مع أدباء مصر، فرح بهم، وفرحوا به، قرأ شِعْره على جمهور، وأدلى بأحاديث صَحَفيَّة، أعادتْهُ لسياقه الأدبي، ودعاه محمَّد حسنين هيكل للعمل في الأهرام، وقرّر الإقامة، لكنه سافر إلى دمشق[100].

تعطي هذه الإشارات معلومات، تكشف انخراط الشاعر في الأوساط الأدبية المصرية، واتّصاله الحميم - على الأقلّ - مع رموزها بحُكْم عمله في "الأهرام"، وبالتحديد خلال العمل في القسم الثّقافيِّ لمجلّة "الطليعة" التي كانت تستقبل في مقرّها يومياً عشرات الأدباء والمثقّفين.

من ناحية أخرى، ظلّ درويش بمَعِيَّة المجموعة الفلسطينية الموجودة

100) محمود درويش: الرسائل، دار العودة، ص 81.

في مصر، ومن بين أفرادها لاعب كرة القَدَم الشهير مروان كنفاني (شقيق غسّان كنفاني) الذي حَضَرَ المؤتمر الصَّحَفِيَّ حينما تمّ الإعلان عن وصول درويش للقاهرة.

كانت فرصة درويش سانحة للتواصل مع شقيق غسّان، الذي كان من أوائل من تحمَّسوا لقصائد درويش. وأكّد لي مروان كنفاني: "أن اللقاءات بينهما كانت شخصية دائماً وفي بيت درويش الذي كان يتحسَّس من الظهور الإعلامي إلى جوار لاعب كرة". لكن ظروف استشهاد غسَّان زادت من فرص التقارب بينهما [101].

***

لم يمرّ خبر استشهاد غسّان كنفاني في أوساط مثقّفي القاهرة بشكل عابر. فقد جاء في ظلّ توتُّر سياسي، أعقب أحداث اعتصام الطُّلَّاب في ميدان التحرير، وما نَتَجَتْ عنه من تطوُّرات سياسية، أدَّت إلى مَنْع عدد من كبار الصَّحَفِيِّيْن من الكتابة، وكان من بين هؤلاء أحمد بهاء الدِّيْن، ونجيب محفوظ وأكثر من مائة كاتب آخر.

ينقل الدكتور غالي شكري تفاصيل ردّ فعل المثقّفين على نبأ الاغتيال قائلاً: "في ظُهْر التاسع من يوليو / تمُّوز 1972، فُوجِئْتُ في أهمِّ الشوارع الرَّئيسيَّة في القاهرة بخروج مظاهرة صامتة لعدد من الكُتَّاب، يحمل بعضهم لافتات وباقات من الورد. لُفَّت في شرائط زرقاء، وكَتَبَ عليها "جنازة غائب". خَرَجَتِ المظاهرة من قلب القاهرة ومن مقهى "ريش" بشارع طلعت حرب إلى مقرِّ نقابة الصَّحَفِيِّيْن بشارع عبد الخالق ثروت (أقلّ من نصف كيلو متر)، وصَدَرَ عنها بيان، وقَّعه 73 كاتباً مصريّاً، منهم لويس عوض، ولطفي الخولي، وصلاح عيسى، ويوسف إدريس، وسليمان فيَّاض،

101) اتّصال هاتفي مع مروان كنفاني، القاهرة، يوليو 2018.

ومحمَّد عودة، ونجيب سرور، والفنَّانون محيي اللَّبَّاد، وحسن سليمان، ومصطفى رمزي. وبعد مفاوضات مرهقة، منعت قوى الأمن "إقامة المأتم"، ومَنَعَتِ الأهرام نَشْر بيان الكتاب، كما مَنَعَتْ بعدها نَشْر مقال للدكتور لويس عوض عن غسَّان كنفاني أو مؤلَّفاته دون سبب واضح.

ويستطرد غالي شكري: "فيما بعد عرفْنا أن الموقف الرَّسْمِيَّ للنظام من المُنظَّمة الفلسطينية التي ينتسب إليها غسَّان كنفاني يحول دون هذا المقال أو غيره [102]".

بدا جَلِيّاً للجميع أن خيارات السادات في إدارة موضوع الصراع العربي الإسرائيلي تختلف كُلِّيّاً عن خيارات عبد الناصر.

***

102) غالي شكري (دكتور): الثورة المضادّة في مصر، طبعة الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة، 1997، ص145.

بطاقة المغادرة

من الصعب الوصول إلى تفسير مقبول لمغادرة محمود درويش القاهرة، إلّا أن المؤكّد أنه غادر منتصف العام 1972، حيثُ نَشَرَتْ مجلّة الطليعة في عددها الصادر في يونيو من العام نفسه إشارة واضحة تشير إلى اعتذار الشاعر عن عدم الاستمرار في هيئة تحرير ملحق الثقافة والفنّ لسَفَره إلى بيروت، مؤكِّدة التحاقه بمركز الدراسات الفلسطينية هناك.

وعلى الرَّغْم من وضوح صيغة هذا الاعتذار، فإن علاقة درويش مع القاهرة استمرَّت لما بعد حرب أكتوبر/ تشرين 1973، بدليل أنه نَشَرَ في الأهرام بعدها (6) مقالات وتغطيات لمؤتمرات شارك في حضورها أو لقصائد، كَتَبَها خلال تلك الفترة، أمّا خلال العام 1973، فقد نَشَرَ في الأهرام4 موادّ صَحَفيّة، منها 3 قصائد شِعْريّة ومقال وحيد. ويبدو أن محمَّد حسنين هيكل وافق على سَفره إلى بيروت، وأصرَّ على أن تظلَّ العلاقة بينه وبين "الأهرام" قائمة.

***

قبل يوم واحد من إعلان نبأ عبور القوّات المصرية لقناة السويس، أي في يوم 5 أكتوبر/ تشرين الأول 1973 نَشَرَتِ الأهرام قصيدة للشاعر في ملحقها الأدبي، الذي كان يصدر يوم الجُمُعة من كلِّ أسبوع، ويحرِّره الدكتور لويس عوض.

ونعرف ممَّا كَتَبَهُ أحمد بهاء الدِّيْن في كتابه "محاوراتي مع السادات" أن

محمود درويش

يعز على هيئة تحرير « الملحق » الا ييسر للزميل الشاعر محمود درويش استمراره في العمل معنا ، وذلك بانتقاله الى مركز الدراسات الفلسطينية في بيروت . واننا اذ نعتز بالفترة القصيرة التي امضاها معنا نرجو له في عمله الجديد كل تقدم وازدهار .

« هيئة التحرير »

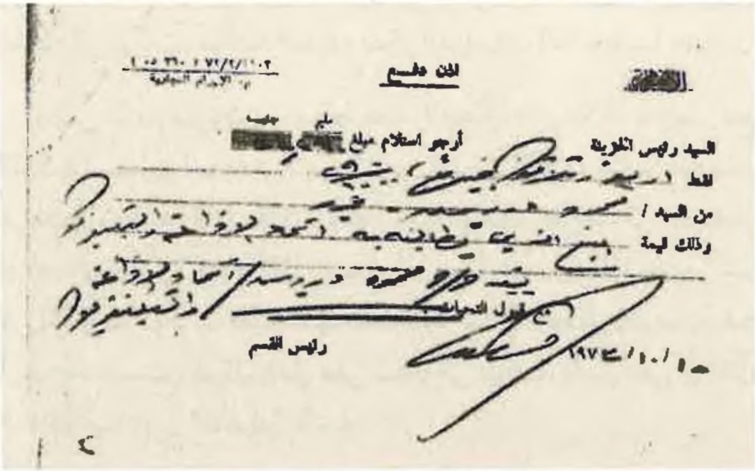

الى قسم

السيد رئيس الخزينة أرجو استلام مبلغ [redacted]

فقط

من السيد /

وذلك قيمة

رئيس القسم

/ ١٠ / ١٩٧٣ م

اعتذار الطليعة ومستند تسوية مالية

درويش كان في بيروت بالفعل يوم العبور، وكان إلى جوار بهاء الدِّيْن وزوجته في الفندق، وكانا عائدَيْن من بغداد بعد ختام مؤتمر اتِّحاد الصَّحَفِيِّيْن العرب، وزارا لبنان وهما في طريقهما إلى القاهرة، ولأن "محمود درويش كان يعرف العبرية جيِّداً، فقد جَعَلَهُ بهاء الدِّيْن يستمع إلى الإذاعة العبرية في إسرائيل، ويترجم له [103]".

---

103) أحمد بهاء الدِّيْن، محاوراتي مع السادات، ص 28.

عودة الأسير المصري

قصيدة للشاعر
محمود درويش

الى الاسير الشهيد
سعيد نصار

النيل ينسى .
والعائدون اليك ، منذ الفجر ، لم يصلوا ..
هناك حمامتان بعيدتان
ورحلة اخرى
وموت يشتهي الاسرى
وذاكرتي قوية .
والآن الفظ — قبل روحي — .
كل ارقام النخيل
وكل اسماء الشوارع والازقة سابقا أو لاحقا
وجميع من ماتوا بداء الحب ، والبلهارسيا ، والبندقية .
ما دلني احد عليك ؟
وانت مصر .
قد عانقتني نخلة ..
لتزوجني
شكلتني
لتجيئني الحب ، والوطن المعذب ، والهوية .
ما دلني احد عليك ،
وجـدت مقبرة .. فنمت
سمعت اصواتا .. فقمت

رأيتك حربا .. فاحتلمت
وما عرفت الابجدية .
قالوا ؟ اعترف
قلت : اعترفت
يامصر ! لا كسرى سبك ولا الفراعنة اصطفوك اميرة وسيدة ..
قالوا : أعترف
قلت : اعترفت
وتوازت الكلمات والصلات ..
كانوا يقلعون اظافري
وينشرون انامل
ويبعثرون مفاصلي
وينشون اللحم عن اسرار مصر ....
وتفلتت مصر البعيدة من جراحي
فاقتربت ...
ورأيت مصر
وعرفت مصر .
ما دلني احد . خناجرهم تفتشني .. لتخرج شكل مصر
يا مصر ! لست خريطة ..
قالوا : اعترف
قلت : اعترفت .
واصلت يا مصر اعترافاتي —
دمي غطى وجوه الفاتحين
ولم يخط دمي جبينك . واعترفت ..
يا مصر ! هل أحللت حبي ، ام جنيت ؟

وحائط الاعدام يحملني اليك .. اليك
انت الآن تقتربين ، أنت الآن تعترفين
فامتشقي دمي ! .
والنيل ينسى ..
ليس من عاداته ان يرجع الغرقى
والالف العرائس من تقاضى اجرها ؟
والنيل ينسى ..
والقرى رفعت مآذنها وشكواها
وخلت صدرها في الطين
والمدن استراحت في مهب الشمس ،
سبحان الذي يعطي ويأخذ ....
ليس من عادات هذا النيل ان يصغي الى احد ،
كأن النيل تمثال من الماء استراح الى الابد .
ماذا يقول النيل
لو نطقت مياه النيل !
يسكت مرة أخرى
وينساني ..
لتسكت جوقة الانشاد حول جنازتي
وخذي من الجثمان احلام الوطن
يا مصر — تحيا مصر .. تحيا مصر —
غطي حفنة من رمل سيناء التي ابتعدت من العينين
والتجأت الى الرئتين ،
وامتشقي دمي !
وخذي من الجثمان احلام الوطن
سيناء ليس لها كفن ،
والنيل ينسى ..
ماذا يقول النيل ، لو نطقت مياه النيل !
يسكت مرة اخرى
ولا يستقبل الاسرى ،
ليسكت ، ههنا ، الشعراء والخطباء
والشرطي والصحفي ....
ان جنازتي وصلت ، وهذي فرصتي يامصر ....
اعطيني الامان
يا مصر ! اعطيني الامان
لاموت ثانية .. شهيدا لا اسير
السد عال شامخ — وانا قصير
والمنشآت كبيرة — وانا صغير
والاغنيات طليقة — وانا اسير
يا مصر ! اعطيني الامان
اني حرستك ، كانت الاشياء آمرة وآمنة ،
وكان المطرب الرسمي يصنع من نسيج جلودنا وتر الكمان
ويطرب المتفرجين
قد زيفوا — يا مصر — حنجرتي
وقامة نخلتي ..
وانا حرستك ، فاستباح المطرب الرسمي جلدي ،
يا مصر ! اعطيني الامان
لانجر القلب المهدد بالتملص ؟
والنيل ينسى
والعائدون اليك ، منذ الفجر ، لم يصلوا ...
ولست اقول يا مصر الوداع
ثبت خيول الفاتحين
كثرت اغاني الفاتحين .
زرعوا على فمك الكروم .. فاينعت
قد طاردوك — وانت مصر
وحاصروك — وانت مصر
وصلبوك — وانت مصر
يا مصر ! ماذا تصنعين ؟
يا مصر ! ماذا تصنعين ؟
أتصدرين القطن والأسرى وأمجاد السنين
لتصدرين القطن والاسرى وصوت المطربين
هل انت مصر
هل انت مصر
هل انت مصر !!

لم تغبْ عن درويش فكرة التفاعل مع النصر، فقد نَشَرَ نَصَّيْن مهمَّين، يمكن إدراجهما في إطار أدب الحرب بعنوان "أزرق أزرق"، "نَشَرَتْهما مجلة الهلال في عدد توثيقي عن الحرب [104]. وكان قبل ذلك قد نَشَرَ قصيدة عن عودة الأسير المصري بعد شهور من استقراره بالقاهرة في 28 أبريل/ نيسان 1972.

***

جاء انتصار القوَّات المصرية على إسرائيل في أكتوبر/ تشرين الأول 1973، ليعطي الرئيس السادات شَرْعيَّة جديدة، تضاف إلى شَرْعيَّته كوريث للنظام الذي جاء به جمال عبد الناصر والضُّبَّاط الأحرار في يوليو/ تمُّوز 1952، وامتصَّت نشوةُ النصر الغضبَ الشَّعبيَّ العامَّ، وضغوط حالة الاحتقان التي تنامت من وقت وقوع نكسة يونيو/ حزيران 1967، إلى أن حَدَثَ النصر، وبعده تزايدت الخلافات في دوائر الحُكم حول طُرُق "استثمار" ذلك النصر سياسيّاً.

كان محمَّد حسنين هيكل، الراعي الجديد لموهبة درويش، من الفريق الذي رأى أن "السياسة خَذَلَتِ السلاح"، لذلك تَرَكَ رئاسة تحرير جريدة الأهرام في فبراير/ شباط من العام 1974، بأمرٍ من السادات بعدما تفاقمت الخلافات حول طريقة الإدارة السِّياسيَّة لمكاسب نصر أكتوبر.

وتدريجياً أدرك درويش أن السادات لا يستهدف تحرير الأراضي المحتلة بالهجوم العسكري المباشر، وإنما يُفضِّل أن تقوم خطَّته على تحقيق الحلّ السِّلْميِّ، والدخول في مسار جديد للتفاوض برعاية أمريكية.

وفهم الشاعر أن إبعاد هيكل عن الأهرام وعن المجال العامِّ في مصر لا يعني فقط أنه أصبح بلا غطاء أو سند، بل قدَّم دلالة واضحة على أن

---

104) مجلّة الهلال، عدد أكتوبر 1975.

مرحلة جديدة ستبدأ في مصر، وأنه لم يعد في المكان الصحيح. لذلك كان قرار السَّفر إلى بيروت التي ذَهَبَ إليها بغير إعلان.

قبل أن يرحل، لم يفُتْهُ أن يُعاتِبَ مصر، لم يقلْ صراحة إنها خَذَلَتْهُ. لكنه كان عتاب المحبِّ لمحبوبته التي كان يعلم أنه لا يزال لديها الكثير الذي يمكن أن تقدِّمه للقضية الفلسطينية، فكَتَبَ قصيدته: "رحلة المتنبِّي إلى مصر[105]".

105) محمّد بغدادي، مقال (الصوت الصارخ)، مجلّة الدوحة، قطر، عدد نوفمبر، 2008.

القاهرة الحاضنة الشِعْرِيَّة

أكثر من مرّة قال درويش: "القاهرة من أهمّ المحطّات في حياتي".

وأزعم أنها لم تكن كذلك فقط في إطار النظر إليها كـ "حاضنة" سياسيـ إنما هي أيضاً "حاضنة فنّيّة" بمعنى أنها أحدثت الطفرة الأهمّ في المسا الشّعْرِيّ لمحمود درويش، أو كما يقول شربل داغر، فقد كان انتقاله مـ الأراضي المحتلّة إلى موسكو انتقالاً شِعْرِيّاً أيضاً [106].

ذات مرّة قال درويش: "مدين في تطوُّري وتحوُّلاتي الشّعْرِيّة لخروجي. فقد خَرَجْتُ إلى أُفق أوسع، وإلى تجربة أغنى، هي تجربة الواقع المعقّ الغني بالتناقضات والمفارقات والروح الشّعبيّة التي لم تُعبِّر عن نفسها".

وجاء اختلاطه أو ذوبانه في العالم العربي، ليُثري تجربته، ويُحوِّلها من القصيدة الغنائية إلى القصيدة المركَّبة [107].

شِعْرُ محمود درويش - كما يقول أحمد عبد المعطي حجازي - "كشعـ سواه ليس ماءً واحداً، وليس أرضاً مستوية، وإنما هو ماء وماء، وتلال ووهاد وقِمَم [108]".

---

106) شربل داغر: السابق، ص 115.

107) محمود درويش، حاضر حصارك، إعداد وتقديم محمّد شاهين، المؤسّسة العربـ للدراسات والنّشْر، عمّان، الطّبعة الأولى، 2019، ص78 .

108) أحمد عبد المعطي حجازي، مقال، بعنوان "قلب الشاعر وقاموسه"، صحيفة المصر اليوم، القاهرة، عدد 6 أكتوبر، 2008.

هناك الكثير من الدراسات حول شعْره سَعَتْ للكشف عن العلاقة بين المكان والهُويَّة، وركَّزت على أثر المكان في بلورة الهُويَة الفلسطينية ضمن مشروعه الشّعْريّ.

تشير ليانة بدر، في دراسة حول هذا الموضوع، إلى أن المكان هو المعنى الملازم للهُويَّة، ولذا فإن تغيُّراته سوف تنعكس حتماً على النصوص بكلّ ما يعنيه هذا من أبعاد ودلالات. فالمكان يكتسب معاني وجودية أكثر تعدُّديَّة، وعمقاً في حالة تهديد الهُويَة.

ويكمن سرُّ محمود درويش الشاعر في أنه تعامل مع المكان، ليس فقط بمعناه الضّيّق، وبما تعرّض له من فقدان وسطو وعدوان، بل تجاوز ذلك إلى أن جعَلَهُ واسطة للهُويَّة التي تحمل مجاز الوجود والحُرِّيَّة [109].

ومثَّلت الدواوين الأولى للشاعر تصوُّرات الزمن البكْر، واتَّسمت بكلّ ملامح القصيدة الغنائية، وإلى حَدّ لم يستجب الشاعر - مثل معاصريه - لمغريات النمط الفنِّيّ الاحتجاجي أو الأيديولوجي تماماً. وحاول تدريجيّاً الخلاص من ضغوط القضية والتَّصرُّف بشكل فنِّيّ.

***

في القاهرة بدأ الشاعر المرحلة التي يُسمِّيها الناقد صبحي حديدي، مرحلة "البحث الجمالي"، وأنتج فيها الأعمال التي تشمل دواوينه (العصافير تموت في الجليل، حبيتي تنهض من نومها، وصولاً إلى محاولة رَقْم 7) المنشور عام 1973. وفيها أيضاً بدايات بيروت، أي ما قبل العام 1977. [110]

---

109) ليانة بدر: تغريدة الشاعر، أثر المكان على الهُويَّة في أعمال محمود درويش، رام الله، دار الناشر، ص97.

110) ليانة بدر: السابق، ص 107.

عايش درويش خلال وجوده في القاهرة ذروة إنتاج شاعرَيْن رائدَيْن من شعراء التفعيلة، هما صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، فضلاً عمّا تابعه من تحوُّلات أخرى، حقّقها شعراء الموجة الثانية من جيل السِّتّينيّات الذين حسموا خياراتهم بالانحياز التّامِّ لشِعْر التفعيلة.

وشأن كلِّ شعراء العالم، وَقعَ في بداياته تحت تأثير الأصوات الشِّعرية التي سَبَقَتْهُ، ومنها نزار قبّاني، وبدر شاكر السَّيّاب، وعبد الوهاب البيّاتي، فضلاً عن صلاح عبد الصبور، لكنه نجح تدريجيّاً في التّخلُّص من تأثير هؤلاء، في سبيل تأكيد "صوته" الخاصّ.

عند تحليل نصوصه الأولى، من الطّبيعيّ أن نلمح تأثُّراً واضحاً بتجارب الشعراء المصريِّيْن، وبشِعْر صلاح عبد الصبور بالتحديد، وهو ما لفت نظر أحمد عبد المعطي حجازي ورجاء النّقّاش في مقالات، أظهرا فيها ملامح هذا التّأثُّر.

حين نقرأ مثلاً قصيدة "الموعد الأوّل" في ديوانه الثاني "أوراق الزيتون" الصادر عام 1964، ويقول فيها:

شدَّت على يدي/ ووشوشتني كلمتَيْن/ أعزّ ما ملكته طوال يوم، "سنلتقي غداً"، ولفهّا الطريق /حلقتُ ذقني مرّتَيْن/ مسحتُ نعلي مرّتَيْن أخذتُ ثوب صاحبي وليرتَيْن/ لأشتريَ حلوى لها/ وقهوة مع الحليب.

لا بدَّ أن تتذكّر صلاح عبد الصبور في ديوانه الأوّل "الناس في بلادي" فالعالم هو العالم، واللغة هي اللغة بصورها ومفرداتها وقربها من لغة الحياة اليومية، والأوزان هي الأوزان، والقوافي هي القوافي.

يقول صلاح في قصيدته "الحزن":

(يا صاحبي، إني حزين / طلع الصباح فما ابتسمتُ، ولم ينر قلبي

الصباح /وخَرَجْتُ من جوف المدينة أطلب الرزق المتاح / وغَمَسْتُ في ماء القناعة خبزَ أيّامي الكفاف / ورَجَعْتُ بعد الظهر في جيبي قروش / فشربْتُ شاياً في الطريق / ورَتَقْتُ نعلي / ولعبتُ بالنرد الموزَّع بين كفّي والصديق / قل ساعة أو ساعتَيْنْ / قلْ عشرة أو عشرَتَيْنْ).

وجَدَ حجازي في قصيدة درويش "وعاد في كَفَن" ما يذكّر بقصيدة صلاح عبد الصبور "نام في سلام"، أمّا رجاء النَّقّاش، فقال: "في قصيدة "اه .. عبد الله" وهي من ديوان "العصافير تموت في الجليل"، نحسُّ في بعض الأبيات صوت صلاح عبد الصبور أكثر ممّا نحسُّ صوت محمود درويش الذي تأثَّر بقصيدة "شَنْق زهران"، وجاءت الفكرة العامَّة في القصيدَتَيْن متشابهة [111]".

ويُسمّي النَّقّاش هذا التَّأثُّر بأنه "تعبيري" لأن تجربة الشاعرَيْن مختلفة كلّ الاختلاف، وإن كان الشاعران يستمدَّان صورهما من الاهتمام بالحياة اليومية، وهو اهتمام شائع في الشِّعْر الجديد [112].

تطوَّرت قصيدة درويش في مصر، وصَنَعت قفزتها الكبرى التي تجلَّت بعدها في قصائد مرحلة بيروت، وأخذت مساراً آخر، يعتبره عبد الإله بلقريز "مكاناً ثانياً لولادة القصيدة الدَّرويشيَّة [113]".

خلال إقامته في مصر، فكَّر مليّاً فيما يُنجزه الشعراء الأقرب إلى عُمُره، وكان من الصعب عليه، وهو الشاعر الذي بدأ مسيرة رَفْضه لأن يكون منشداً للجماعة أو يتبنّى خيار "الشاعر الرائي" الذي سَلَكَهُ الشاعر أمل دنقل بعد أن نصَّبَتْهُ الحركة الطُّلَّابيَّة المصرية أميراً لشعراء الغضب بعد قصيدة "الكعكة الحَجَريَّة".

---

111) رجاء النَّقّاش: محمود درويش، شاعر الأرض المحتلّة، طبعة دار أطلس للنَّشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص243.

112) رجاء النَّقّاش، المرجع السابق، ص246.

113) ليانة بدر: المرجع السابق، ص *100*.

ومن ثمّ لم يشأ أن يخوض في هذا المسار الاحتجاجي، لأن الإشكالي المتكرِّرة في تناول شعْره كانت هي ارتباطه بالسّياسيِّ أكثر من الفنّي. ولذلك سعى للتّحرُّر الجزئي من تلك القيمة المعيارية التي طاردتْهُ عقب خروجه من الأراضي المحتلّة (114).

بدأ درويش تطوير قصيدته الغنائية في اتِّجاه آخر، وراحت تبني قانونها الخاصّ. فقد كان من الصعب عليه أيضاً أن يذهب مثلاً في الاتِّجاه الذي سَلَكَتْهُ قصائد عفيفي مطر بالاتِّكاء على شبكة العلامات الأسطورية، مغلقة الدلالة أو الرِّهان على الرّمزيّة.

وأفضت به قصيدته في زمن قياسي، بعد تجاوُز هذا المنعطف، إلى القصيدة الدّراميّة المرُكَّبة كما في (سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا) التي يمكن اعتبارها النموذج الفارق لهذه النقلة النَّوعيّة التي عاشها شعْره، تأثُّراً بالمناخ الشِّعْريِّ الغنيِّ والمتنوِّع في مصر، وقد نُشرت القصيدة لأوّل مرّة في الملحق الأدبي لجريدة الأهرام 21/ يناير كانون الثاني 1972.

كانت القصيدة فارقة، وذات بناء مختلف عن شِعْر درويش كلّه. اعتمدت على النَّظْم السَّرْدِيّ، حيثُ تبدأ القصيدة بالسَّرْد مع صوت راوٍ غير معروف (115).

وهذا الناظم السَّرْدِيُّ شكَّل سابقة بنائية في شِعْر درويش، وتمثّل بناء تحويليّاً في شِعْره، ذَهَبَ في اتِّجاه ميلاد القصيدة الدّراميّة متعدّدة

---

114) غالي شكري: افتتاحية العدد الخاصّ من مجلّة القاهرة حول محمود درويش بعنوان "عصفور الجنّة أم طائر النار"، العدد 15، يونيه 1995.

115) يعتقد شربل داغر أن القصيدة نقطة تحوُّل رئيسية في شعْر درويش، راجع تحليله المسهب للنّصّ في كتابه "محمود درويش يتذكّر في أوراقي، ص 125 وما بعدها -.

٦ - الأهرام - ٧٢/١/٢١

سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا

للشاعر: محمود درويش

ريشة: يوسف فرنسيس

قصيدة سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا – الأهرام

الأصوات، وهي القصيدة التي نَجَحَ صلاح عبد الصبور وشعراء الموجة الثانية لقصيدة التفعيلة في ترسيخها.

في القصيدة حَدَثٌ واقعيٌّ بامتياز، يرشِّح نفسه بقوَّة للغناء، لكن الذي غادر أرضه كان يعي تماماً أن الرحلة ذاتها من الأرض المحدودة إلى أرض بلا حدود هي عمل درامي على الصعيد الشَّخصيِّ، وسرحان في القصيدة يشاغب الشِّعْر شَغَباً دراميّاً مفضوحاً، فهو نفسه يختزل "رحلة" أو عنواناً أو مغامرة، بل إنه رمز لحَدَثٍ عينيٍّ - هو الشتات الفلسطيني - مضادٌّ لرمز اليهودي التائه، كما يشير إلى ذلك غالي شكري في قراءته البديعة للقصيدة.

يؤرِّخ فعل القَتْل في القصيدة لسيرة حياة وموت، ويظهر الفلسطيني وهو يقف عارياً على مسرح السياسة الدَّوليَّة.

لم يلجأ في "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا" كما فَعَلَ في قصائد سابقة إلى ارتداء القناع، بل رأى أن مهمَّة سرحان هي خَلْع الأقنعة، وبالتالي

كانت هذه القصيدة "فاتحة الفضاء الجديد" الذي داهم درويش خارج الديار[116].

وبدأ معها في بلوغ "الدِّيناميَّة الدَّرويشيَّة" (بتعبير صبحي حديدي) التي سَمَحَتْ له أن يُواصِلَ مشروعه في إبراز التلاحم العسير بين شعره والذاكرة الجَمْعِيَّة، فاعتباراً من المرحلة التي جاءت بعد الخروج من بيروت، بدأ ذهاب الشاعر إلى السيرة، وسيرة المكان التي تنقلب إلى محطات للجسد، وعلامات للروح، لتصنع، بالتالي، صيغة مَلْحَمِيَّة فريدة لسيرة ذاتية من نوع خاصٍّ[117].

الشاهد أن قصائد المحاولة رَقْم (7) تُغلق قوس تجربة الخروج أو تجربة القاهرة بعد انسحابه الهادئ منها، لكنها وهي تحفل بأسماء الأمكنة تبدو محمَّلة بمعانٍ سلبية، تُؤَشِّر للتشاؤم والانقباض[118].

(ماذا يقول النيل، لو نَطَقَتْ مياه النيل؟ ..."قد زيَّفوا، يا مصر، حَنْجَرَتي") فيها يقرن المكان التَّاريخيَّ بما يعكسه من زيف وسرقة لصوته من قِبَل النظام العربي الرَّسْمِيِّ حين كان في مصر تحديداً آنذاك[119].

فهل كانت الإشارات في تلك القصيدة كاشفة عن رغبته في الخروج؟

---

116) غالي شكري: السابق.

117) إدوارد سعيد: في عدد القاهرة، يونيه 1995 مقال بعنوان "تلاحم عسير المشّعْر والذاكرة الجمْعيَّة"، ترجمة صبحي حديدي. (راجع مقال صبحي حديدي في العدد نفسه عن :خ... السيرة واستراتيجية التغيير)

118) ليانة بدر: السابق، ص 128.

119) ليانة بدر: السابق، ص 129.

ملفُّ الوثائق

(جميع هذه المقالات تنشر لأول مرة في كتاب)

- المقالات التي نشرها في الأهرام حسب موضوعاتها:

• مقالات في التحليل السياسي

• مقالات حول الشخصية الاسرائيلية

• تغطيات لمؤتمرات ومشاركات ادبية حول الشعر

قائمة بالموادِّ التي وَرَدَ فيها اسم محمود درويش بالأهرام خلال الفترة من 1971 - 1973

(عام الوصول 1971).

10 فبراير (شباط) 1971 إعلان وصوله إلى القاهرة.

11 فبراير (شباط) 1971 حوار مع الشاعر معين بسيسو بعنوان (غيَّرتُ موقعي، ولم أُغيِّر موقفي).

12 فبراير (شباط) تغطية الأهرام للمؤتمر الصَّحَفِيِّ المنعقد في مبنى التليفزيون العربي مع وزير الإعلام، محمَّد فايق، والسَّيِّد محمَّد عروق، مدير إذاعة صوت العرب.

24 فبراير(شباط) خبر في الأهرام (الصفحة الأخيرة) عن جولة عربية، يزور الشاعر خلالها عدَّة دول، منها ليبيا والكويت.

12 نوفمبر (تشرين ثاني) نَشَرَ قصيدة بعنوان 4 مزامير.

26 نوفمبر (تشرين ثاني) 1971 نَشَرَتْ الأهرام قصيدة للشاعر بعنوان "أُغنيَّة البطل البائس".

2 ديسمبر (كانون الأوَّل) 1971 نَشَرَ الشاعر مقالاً بعنوان: (غَرَّة كلّ يوم) إلى جوار كاريكاتير للشاعر والفنَّان صلاح جاهين.

في 9 ديسمبر (كانون الأوّل) نَشَرَ مقالاً بعنوان: أسئلة بريئة إلى الأدبا. العرب على هامش مؤتمر الأدباء في دمشق.

الموادُّ المنشورة في الأهرام خلال العام 1972.

21 يناير (كانون ثاني) 1972 قصيدة سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا، رسوم يوسف فرنسيس.

28 يناير (كانون ثاني) 1972 ظهور مقالاته السِّياسيّة في صفحة شؤون عربية (زاوية بعنوان صور إسرائيلية) 1 - (الأبيض والأسود).

4 فبراير (شباط)1972 (صور إسرائيلية -2 (لماذا انتهى المؤتمر الصِّهيونيّ بالانشقاق والتضارب؟).

25 فبراير شباط 1972 صور إسرائيلية -3 مقال معنى القلق في الأدب الإسرائيلي (أنا وأنتَ والحرب القادمة).

31 مارس/ آذار 1972 مقال في الملحق الأدبي بإشراف لويس عوض بعنوان: "عزف منفرد فوق القانون".

21 أبريل/ نيسان 1972 مقال في الملحق الأدبي للأهرام بعنوان "وضا الشِّعْر في البصرة".

28 أبريل/ نيسان 1972 قصيدة بعنوان: "عودة الأسير المصري" إلى الأسير سعيد نصّار، رسوم مكرم حنين.

19 مايو (أيّار)1972 رسالة من بيروت (تغطية) نحن نستمع ولا نقرأ.

3 يونيو/ حزيران 1972، رسالة بيروت (صفحة تيّارات عربية) ظاهرة تثير القلق من الانغلاق التّامِّ إلى الانفتاح التّامِّ.

9 يونيو (حزيران)1972 مقال تنويعات على سورة القدس (أعاد نشْره في كتابه (يوميات الحزن العادي / بيروت 1973).

12 يوليو (تمُّوز)1972 مراجعة كتاب بعنوان (حتّى تصبح يا وطني وطني) الملحق الأدبي (مراجعة كتاب).

27 أكتوبر (تشرين أوّل) 1972 قصيدة بعنوان: "حوار مع مدينة" الملحق الأدبي، رسوم يوسف فرنسيس.

24 نوفمبر (تشرين ثاني) 1972 قصيدة بعنوان (الخروج من ساحل المتوسّط).

في عدد يونيو(حزيران) 1972من مجلّة الطليعة الشّهريّة التي كانت تصدر عن الأهرام إعلان من هيئة تحرير المجلّة عن اعتذار محمود درويش عن عدم الاستمرار ضمن هيئة تحرير ملحق الأدب والفنون نظراً لسَفرها للعمل في بيروت.

الموادُّ المنشورة في الأهرام خلال العام 1973

2 فبراير (شباط) 1973، باب تيّارات عربية مقال تحليلي بعنوان: "شباب عربي وإسرائيلي في قفص اتِّهام واحد .. مقاومة لا تجسُّس" مجاور لرسم كاريكاتوري لصلاح جاهين.

6 يونيو/ حزيران 1973 قصيدة بعنوان : "كأني أحبُّك" (الملحق الأدبي) رسوم مكرم حنين.

10 أغسطس/ آب قصيدة بعنوان "تأمُّلات في لوحة غائبة" (الملحق الأدبي) رسوم مكرم حنين.

5 أكتوبر/ تشرين أوَّل 1973 قصيدة بعنوان : (النهر غريب وأنت حبيبتي) الملحق الأدبي، رسوم مكرم حنين.

أيَّام بلا تاريخ!
التجارة بشعراء الأرض المحتلَّة

أحمد بهاء الدِّيْن

اكتشف النُّقَّاد والقُرَّاء العرب، متأخِّراً، أن هناك حركة فنِّيَّة وأدبية قوية، تتركَّز أساساً في الشِّعْر، تزدهر بين العرب المقيمين في إسرائيل ..

ورَغْمَ أن هذه الحركة القوية يزيد عُمُرها على السنوات العشر، فإننا لم نعرف، إلَّا من سنوات قليلة قبل يونيو/ حزيران 1967، أسماء محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زيَّاد وغيرهم.

وأُسجِّل للتاريخ فضل كاتب فلسطيني معروف، الأستاذ غسَّان كنفاني، في هذا المجال، إذ كان أوَّل مَن اهتمَّ بالبحث والتنقيب عن الأدب الفلسطيني في إسرائيل، ونَشَرَ عنه، وأذاعه، وتركُّز الحركة الأدبية والفنِّيَّة في الشِّعْر بالذات، أمر مفهوم تماماً، في ظروف العرب المقيمين في إسرائيل.

فالعرب في إسرائيل يعيشون في ظلِّ أحكام عُرْفِيَّة دائمة. وقُراهم معزولة محاصرة. وفرص التعليم أمامهم نادرة. والتعليم العالي بالنسبة إليهم معدوم. فهم مرغمون إرغاماً على أن يعيشوا حياة شبه بدائية، حياة لا يمكن فيها وجود وسائل التعبير الأخرى التي تحتاج إلى حُرِّيَّة تعبير أكبر .. وطباعة .. ونَشْر .. وجمهور كبير قارئ.

فالملجأ والملاذ هو الشِّعْر. لما فيه من شحنة عاطفية عالية. ولسهولة

نَقْله وتداوُله. ولقدرته على التركيز والتلخيص والاختصار. ولأنه فنٌّ عربي أصيل قديم، ينبت مع العربيّ - حين يُحرَم من سائر الأشياء - كما تنبت أعشاب الصحراء، حيثُ لا ماء.

وليس هذا هو الموضوع. الموضوع أنه بعد اكتشاف هذا الشِّعر، وبعد 5 يونيو/حزيران بالذات، أصبحت الجماهير العربية من الخليج إلى المحيط تتلهّف على قراءة هذا الشِّعْر، كما يتلهَّف الظمآن على شربة ماء .. أو كأن هذه الجماهير، بهذا الشِّعْر، تمدُّ أيديها عبر الأسلاك، وتصافح أولئك المنزرعين هناك .. يحملون جذوة التراث العربي، حيثُ حاولت الصِّهيونيّة أن تخمدها بالطَّرْد والتهجير والاضطهاد والمذابح والنابالم!

وفجأة، وقد وَجَدَت السوق الواسعة، نشأت التجارة الواسعة ..

ظَهَرَ عشرات من الناشرين يجمعون هذه الأشعار، ويتلقّفون الدواوين التي تتسرَّب منها .. ويطبعونها، ويبيعونها في عشرات الطبعات.

وكوَّن البعض من شِعْر هؤلاء أرباحاً تصل إلى آلاف الجنيهات!

وليست هناك - طبعاً - حقوق نَشْر! إذ لا يتصوَّر أن يتلقَّى الشاعر العربي المقيم في إسرائيل مالاً عن حقّ نَشْر دواوينه في البلاد العربية!

ولا أعتقد أن هذا الوضْع عادل، أو حتّى مهذَّب! فليكسب الناشر من عمله كما يشاء. فله على أيِّ حال فضل إيصال هذا الشِّعْر إلى أكبر عدد من القُرَّاء العرب، ولكنْ، أين حقوق النَّشْر؟

إن أصحاب الشِّعْر لا يفكِّرون في حقوق النَّشْر. سعادتهم لا تُقدَّر، لأن العالم العربيّ عرفهم، وسمع أصواتهم، وشمّ من خلالهم رائحة الربع مليون عربي الذين بقوا صامدين في داخل إسرائيل.

ولكنْ، ألَا يجب، على الأقلّ، أن يوجّه الناشرون - وقد كسبوا والحمد لله - الجزء الخاصّ بحقوق النَّشْر، إلى باب يخدم قضية فلسطين، قضية هؤلاء الشعراء؟

إنني أطالب مُنظَّمة التحرير الفلسطينية، ببيان بسيط في الصُّحُف، أن تعلن أنها تنتظر أو تتلقَّى حقوق النَّشْر عن هذه الدواوين، وأن تُحوِّلها إلى باب محدَّد من أبواب العمل الفلسطيني ..

وأطالب الناشرين ألّا ينتظروا هذا النداء، حتّى يبدؤوا بإرسال حقوق النَّشر إلى مُنظّمة التحرير، أو إحدى منظّمات المقاومة الفلسطينية، حتَّى تكون تجارتهم بريئة، ومشروعة!

(مجلّة المصوَّر 24 أغسطس 1968)

القدِّيس المقاتل

صلاح عبد الصبور

ديوان محمود درويش يتحدَّث للمرَّة الأولى بلهجة المشارك، لا بلهجة "المشاهد"، وينسخ بذلك كلَّ ما سَبَقَ أن قيل، ويضع علامات الطريق لمَنْ يريد أن يقول بعده، الكلمة التي حيَّرتْنا منذُ عشرين عاماً قالها محمود درويش.

كنَّا نتساءل: كيف نُعبِّر عن القضية؟ وبأيِّ كلمات نستطيع أن نخاطب بالمأساة قلبَ الإنسان، وأن نخلق للجرح فماً ولساناً فصيحاً؟ وكانت تُثقلنا في بعض الأحيان بأغلال عنتريَّتنا الجوفاء، فنصرخ ونتوعَّد، ونكذب حتَّى على أنفسنا، وكانت تُثقلنا، أحياناً، بُكائيَّات رحيلنا الحزين، فنتألَّم ونتعذَّب ونجهش بالبكاء.

كان شِعْر فلسطين - في معظمه - ضائعاً بين العَنْتَرِيَّة الجوفاء والبكاء الذابل، حتَّى كَتَبَ محمود درويش ورفاقه، لقد تكلَّموا، فحسب، كلمة صادقة حزينة حُزن الرجال، فأثبتوا أن الشِّعْر هو صوت الإنسان حين يتكلَّم، وحين يتكلَّم من قلبه، وبصوته الخاصِّ، لا بأصوات الآخرين. والمجموعة الباذخة التي نَشَرَتْها مجلَّة "الهلال" في عدد مايو الأخير من شِعْر محمود درويش، هي في رأيي حَدَثٌ فنِّيٌّ من أحداث حياتنا. ولو استطعتُ أن أتجرَّد من ظلال قضيتنا المصيرية، وتذرَّعتُ بالحسِّ النَّقْديِّ وحده، لما تغيَّر رأيي قليلاً أو كثيراً، فهي شِعْر، وشِعْر عظيم، بشتَّى المقاييس.

وتأتي مجموعة محمود درويش بعد مخاض طويل لشِعْر النكبة، في مرحلتها الحالية، بعد أن أسهم في هذا المخاض عشرات الشعراء العرب

الذين اجتهدوا أن يقولوا كلمتهم التي تحمل رائحة الصِّدْق والشَّاعريَّة معاً، ومثلما كان عام 1948 منحنى واضحاً في القضية ذاتها، كان منحنى واضحاً أيضاً في التعبير عنها. فقبل هذا العام الفاصل كانت أصوات إبراهيم طوقان وأبي سلمى وعبد الرحيم محمود تُجَلْجِلُ في سماء الأرض الفلسطينية، وتصنع للمقاتلين شعاراتهم وبيارقهم، كانت تتَّجه إلى الفلسطيني العربي، تُناشدُه الثبات والصلابة، ولكنها لم تكن تُعْنَى بأن تخاطب الإنسان في كلِّ مكان، لأننا كنَّا نتصوَّر في ذلك الوقت أن قضيتنا هي قضية مواجهة رجل لرجل، ولم يكن يدور بخَلَدنا أن أعداءنا لوَّنوا الرأي العامَّ العالميَّ بلون العداوة للعرب، والمودَّة لليهود، وبعد كارثة 1948، زلزلت مفاهيمُنا عملَها، وأدركْنا كم كنَّا مقصِّرين في حقِّ القضية الكبرى، وتلمَّسْنا الأبعاد الجديدة، وطَمَحْنا أن نخاطب الإنسان في كلِّ مكان، فلم يعد من المجدي أن نخاطب العربي وحده. فقد كَفَتْنا الأحداث الأليمة مؤونة هذا الخطاب. ولستُ أشكُّ في أن هذا جرح فلسطين كما كان هو - على الصعيد السِّياسيِّ المحرِّك لمعظم الانتفاضات السِّياسيَّة في عالمنا العربي، والباعث الأوَّل لنا على مراجعة أساليب حياتنا ونُظُم الحُكْم في أوطاننا، فقد كان إلى ذلك - في المجال الأدبي والثَّقافيِّ - من أكبر العوامل على تمزيق الأسلوب الشَّكليِّ التَّقليديِّ لفنوننا، كما كان هذا الجرح هو الينبوع الأوَّل لهذا المزاج الحزين الذي ساد أدبنا وشِعْرنا، على التحديد في خمسينيَّات هذا القرن وستِّينيَّاته، لأن هذا الجرح كان يمثِّل خيبة وسائلنا التَّقليديَّة إزاء تحدِّيات العصر.

وربَّما كانت القصائد التي كَتَبَهَا شعراء العربية المحدثون عن قضية فلسطين محدودة قليلة، لا تعدو بضع قصائد لكلٍّ منهم، ولكن الدارس يستطيع أن يحسَّ بظلال هذه القضية في كلِّ ما كتبوا، متمثِّلة في هذا المزاج الحزين القلق، وفي هذه النبرة الواضحة من الندم والألم، ولو تجاوزْنا ذلك المزاج إلى تلك القصائد بالتحديد، لَوَجَدْنَا أن معظمها قد وَقَعَ في خطيئة المبالغة العَنْتَرِيَّة، إذ جَنَحَ إلى الخطابية، وابتعد عن التعبير الفنِّيِّ

إلى التعبير السِّياسيِّ. وإن قليلاً منها قد استطاع أن يُعبِّر عن جوانب إنسانية من القضية، ولكنْ، ظلَّ ينقصه عنصر مهمٌّ، وهو أن يتحدَّث بلهجة المشاهِد، لا بلهجة المشارِك.

وديوان محمود درويش الجديد يتحدَّث للمرَّة الأولى بلهجة المشارك. وينسخ بذلك كلَّ ما سَبَق أن قيل، ويضع علامات الطريق لمَنْ يريد ا يقول بعده.

***

ينقلنا هذا الديوان شأن الأعمال الفنِّيَّة الكبيرة إلى عالمه، وتدخا بنا قصائده، قصيدة بعد قصيدة من أبواب مدينة، قد لا نعرف اسمها، ولكننا نستطيع أن نعرف ملامحها .. إنها مدينة قد أُرغمت على خَلْع ثيابها الخالدة، خَلْع اسمها وطابعها، لكي تكتسي ثياباً جديدة أو اسماً جديدا ا طابعاً جديداً. مدينة كانت عربية، فتهوَّدتْ، واغترب فيها أبناؤها. وأصبح الغريب فيها سلطاناً، طَبَعَ رَسْمه على ظَهْر كلِّ بطاقات البريد، وأطلق اسمه على الطُّرُق والأبنية، ولكنْ، هناك أشياء لا يستطيع السلطان أن يمنعها أو يُغيِّرها. إنه لا يستطيع أن يمنع القصيدة، ولا يستطيع أن يُغيِّر الأرض.

ويتقدَّم لنا من خلال الديوان هذا الشاعر شابٌّ، اسمه محمود درويش. يؤمن بكلِّ ما يؤمن به الرجال .. الأرض والوطن والحُبّ والشجاعة، ويؤمن أيضاً بالمستقبل، ويريد أن يغنِّي له، ولكن السلطان يمنع أُغنيَّته، ويعتقله، ويعذِّبه، فلا يذلّ جبينه، ولا يموت غضبه.

ورَغْمَ أن محمود درويش يتحدَّث لصوته الخاصّ، فإن مدينته كلَّها تعيش في شِعْره، أسرته ورفاقه، وسجَّانه وجلَّاده، وفتاة يهودية، اسمها "ريتا" تقف بينها وبينه بندقية ومقاتل يحدِّثه عن قتلاه، ويحلم بالسلام ورجال الصليب الأحمر، ومشرَّدي المخيَّمات، حتَّى البيوت والشجر والأقمار.

هنا في هذا الشِّعْر يلتقي الإنسان بالإنسان، أيّاً كان اسمه أو لونه أو دينه. لا بدَّ أن نتعاطف معه كما نتعاطف مع الأبطال في محنتهم، وأن نتعاطف مع مدينته، كما نتعاطف مع المُدُن المقهورة الصادمة، وأن نُحبَّه ورفاقه كما يحبُّ الرجالُ الرجالَ، فإن الأمر ليس أمر بلاغة، ولكنه أمر صِدْق، ومن الذي لا يتعاطف مع هذه الأسرة الكاملة التي رَسَمَهَا محمود درويش في اقتدار في القصيدة.

"القتيل رَقْم 48":

وَجَدُوا في صدرِهِ قنديلَ ورد
وفخر
وهو مُلقَى ميتاً فوقَ حَجَر
وَجَدُوا علبةَ كبريت
وتصريحَ سَفَر
وعلى ساعدِهِ الغضِّ نقوش
*
قبَّلَتْهُ أُمُّه
وبَكَتْ عاماً عليه
بعدَ عام
نَبَتَ العوسجُ في عَيْنَيْه
فاشتدَّ الظَّلام
*
عندما شَبَّ أخوه
ومضى يبحثُ عن شُغلٍ بأسواق
المدينة
حَبَسُوه
*

لم يكنْ يحملُ تصريحَ سَفَر
إنهُ يحملُ في الشارع
صندوقَ عُفُونة
وصناديقَ أُخرى
*
آه، أطفالَ بلادي
هكذا ماتَ الفخر!

***

هذه صورة لأسرة عربية، صريعة للفقر والاضطهاد وتصاريح السَّفَر من مدينة إلى مدينة، يموت شبابها موتاً مجّانيّاً كلّ يوم. وتضمحلُّ ذِكْراهم كما يضمحلُّ القمر، يواريه التراب، فينبت الشوكُ في عيونِهم المذعورة. ليست هنا كلمة صارخة أو عالية النبرة، لكنَّ قدرة هذه الصورة على بَعْث الأوجاع النائمة لا تُقاوَم، فإذا استمعْنا إلى قتيل آخر، يتكلّم في القصيدة "القتيل رَقْم 18" وَجَدْنا صورة أخرى للمأساة .. إنه يتحدَّث إلى حبيبته، فيقول:

لكَ منّي كلُّ شيء
لكَ ظلٌّ لكَ ضوء
خاتمُ العرسِ، وما شئتَ.
وحاكورةُ زيتونٍ وتين
وسآتيكَ كما في كلِّ ليلة
أدخلُ الشُّبَّاكَ، في الحُلْم
وأرمي لكَ فُلَّة
لا تَلُمْني إن تأخَّرتُ قليلاً
إنهم قد أوقَفُوني
غابةُ الزيتونِ كانتْ دائماً خضراء
كانتْ، يا حبيبي

إن خمسين ضحيَّة
جعلتهَا في الغروب
بركةً حمراء .. خمسين ضحيَّة
يا حبيبي
لا تَلُمْني
قَتَلُوني
... قَتَلُوني
... قَتَلُوني

***

إن هذه القصيدة صوت عامل عربي طيِّب، مُحبٌّ، يتمنَّى لو بنى مع محبوبته بيتاً وأسرة، يعود في سيارة العُمَّال مع خمسين من رفاقه بعد يوم من العمل الشَّاقِّ، وهو يحلم بالراحة والدفء، ولكن الطُّغاة يديرون السَّيَّارة إلى الشرق، وهم هادئون، ثمَّ يقتلون العُمَّال، ويُلوِّثون خضرة البركة الزاهرة بدمائهم. إن هذا القتيلَ مجرَّد رَقْم .. الطغيان جَعَلَ منه رَقْماً في حياته ورَقْماً في مصرعه، ورَغْمَ ذلك، فمازالت الحياة تتنفَّس، ومازال يحلم بأن يعود ليُلقيَ بفُلَّة من شُبَّاك حبيبته. إن الحياة أقوى من الموت والطغيان، وهذا هو النَّغَم الذي يتماوج في قرار شِعْر محمود درويش كلّه.

شعراء الأرض المحتلَّة .. تحيَّة لكم، فقد فَتَحتُم طريقاً جديداً للكلمة العربية.

تعليق نَقْدِي، نَشَرهُ صاحب (أحلام الفارس القديم) حول ديوان (آخر الليل) نُشر بمجلَّة المصوَّر 24 مايو 1968.

مقال : موسكو بعد 15 سنة

أحمد بهاء الدِّين

في هــذا المقــال يــؤرخ الأســتاذ أحمد
بهـــاء الدِّيْـــن لأوَّل لقـــاء مـــع محمــود
درويـــش في موســـكو

شيء آخر تغيَّر في موسكو، تلحظه العين كذلك من الوَهْلَة الأولى. لم تعد موسكو عاصمة الاتِّحاد السُّوفييتيّ، أو كبرى عواصم المعسكر الشَّرقيّ، وأكبر مراكزه. لكنها أصبحت "مدينة عالمية" بالمعنى الواسع لهذه الكلمة. وهذا، بغير شكٍّ، يعكس تغيُّر وَضْع الاتِّحاد السُّوفييتي الدَّوليّ تغيُّراً شاسعاً خلال الخمس عشرة سنة الماضية.

لم تعد أكثر الوجوه الأجنبية والزائرة من دول المعسكر الشَّرقيّ، ومن أعضاء الأحزاب الشُّيُوعيَّة في العالم. لقد سَقَطَتْ محاولات العزل والحصار. وأصبح للاتِّحاد السُّوفييتيّ فوق وزنه العسكري والسِّياسيِّ وزن آخر اقتصادي وسياحي وتجاري وحضاري بوجه عامٍّ.

الآن تمتلئ موسكو كلّ يوم بالناس من كلّ مكان. من كلّ القارَّات، ومن كلِّ النُّظُم، ومن كلِّ المعسكرات. الآن تأتيها وفود العُمَّال، كما يأتيها هنري فورد. ويتردَّد عليها زعماء المعسكر الاشتراكيِّ وقادة العالم الثالث، كما لا بدَّ أن يزورها كلُّ مرشَّح أمريكي لرئاسة الجمهورية، حتَّى يُثبتَ للناخبين في بلاده أنه "رجل دولة"، وأنه قادر على أن يتحدَّث مع "الطرف الآخر" الذي لم يعد وجوده وضرورة "التفاهم" معه محلَّ أيِّ شكٍّ مثل "موسكي" الطامح الجديد إلى رئاسة أمريكا، والذي كان في موسكو خلال وجودي

هناك. الآن أصبح الاتّحاد السُّوفييتيّ ينطوي على جاذبية شديدة لسيّاح البلاد الرّأسماليّة والغربية ذاتها. وَغدَت الرحلة الرُّوسيّة بالنسبة لهم تجربة مثيرة. فالطائرات دائماً مكتظّة، والفنادق ليس فيها مكان، والمطاعم ليس فيها مقعد خالٍ، والأجانب في كلّ مكان.

وهذا التَّحوُّل كان، بالطبع، ذا اتّجاهَيْن. فكما جاء العالم إلى الاتّحاد السُّوفييتيّ، ذَهَبَ الاتّحاد السُّوفييتيّ إلى العالم، وعرف السُّوفييتيّ كما لم يعرف من قبل تجربة السَّفر والإقامة والعمل والاختلاط في شتَّى أطراف الأرض. العلاقات السِّياسيّة والاقتصادية الواسعة. والاتّفاقات التّجاريّة، والمعونات الفَنّيّة التي تخطَّت حدود القارّات وحدود النُّظُم السِّياسيَّة والاجتماعية .. كلُّها أدخلت في حياة السُّوفييتيّ تجربة الحياة في أسوان وفي كوبا وفي أدغال إفريقيا وأطراف آسيا وأمريكا وأوروبا. وهذا أيضاً أمرٌ لم تعرفْهُ روسيا التّاريخيَّة، عبر كلّ تاريخها الطويل .. إذ كانت، على الدوام، حبيسة أطراف أوروبا، ووحشة سيبيريا، وثلوج الشّمال.

إن هذا الوضْع الجديد هو الذي يتأمّله المعسكر الغربي الآن ذاهلاً، وتتحدَّث صحافة الغرب عنه كلّ يوم، وتحاول أن تحسبَ نتائجه.

راحت أيّام حصار جون فوستر دلاس حول الاتّحاد السُّوفييتيّ، وانعكست الآية. أصبح الاتّحاد السُّوفييتيّ دولة "موجودة" في كلّ مكان ..

تقول مجلّة "نيوزويك" الأمريكية منذُ أسبوعَيْن: إن الـ 15000 باخرة تجارية التي مرّتْ حول رأس الرجاء الصالح السنة الماضية، كان من بينها 3900 باخرة، تحمل العَلَم السُّوفييتيّ، أي حوالي الربع. وكمّيّة الأسماك التي صادتْها سفن الصيد الرُّوسيّة من المحيط الهندي خلال السنة نفسها تصل إلى مليونَيْ طن، و80% من الحديد والخشب الذي تستورده الكويت روسي. وسيّارات الموسكوفيتش الرُّوسيّة الصُّنع لها الآن وكلاء ومشترون في الخليج العربي. وفي بعض الأحيان، يصل عدد قطع الأسطول السُّوفييتيّ

الحربي إلى 60 قطعة في البحر الأبيض، و25 قطعة في المحيط الهندي. رَغْمَ إغلاق قناة السويس .. غير الغوّاصات التي تتجوّل حول كوبا وأمام الشواطئ الأمريكية.

وقد استطردت في الاستشهاد بقول المجلّة الأمريكية، استكمالاً للصور السريعة عن وَضْع الاتّحاد السُّوفييتيّ في العالم، وأعود إلى الانطباعات السريعة التي أُحبُّ أن أُسجّلها عن اليومَينْ اللّذَيْن قضيتُهُما في موسكو

قضية الشرق الأوسط تشغل الرأي العامَّ السُّوفييتيّ إلى حَدٍّ بعيد. وفي إيجاز شديد. يريد الاتّحاد السُّوفييتيّ في هذه القضية أمرَيْن: الأوّل ألّا ينهزم أصدقاؤه، بأيِّ شكل من الأشكال. والثاني ألّا تتفاقم القضية، بحيثُ تجر العالم إلى انفجارات أكبر وأوسع مدى، ويُدهَش المرء حين يقابل روسيا عاديّاً، فيسأله عن تفاصيل الموقف في الشرق العربي، ويذكر له أسماء الأفراد والزعماء والبلاد. كأنه يقرأ الصُّحُف العربية كلّ يوم. وفي محاضرة ألقاها "ليرسكي" أستاذ العلوم الدّوليّة عن الموقف الدّوليّ، جاءتْهُ كل الأسئلة المكتوبة بعد المحاضرة - أكثر من مائة سؤال - عن مصر، وعن الشرق الأوسط.

إسرائيل والصّهيونيّة الدّوليّة أصبح الاتّحاد السُّوفييتيّ يشعر بخطرها المباشر عليه.

أوّلاً: لِمَا يتجلّى كلّ يوم من أن أمريكا لا تُسلّح إسرائيل وتدعمهما لقهر العرب وإذلالهم وإرغامهم على الركوع فحسب.. ولكنْ، لكي تجعلها القوة الضاربة المسيطرة في المنطقة. فالواضح أن ما تُزوِّد أمريكا به إسرائيل يفوق بكثير المهمّة المزعومة له، وهي "حماية أمن إسرائيل" خصوصاً نوع الطائرات الفانتوم البعيدة المدى والأسلحة الإلكترونية المتقدّمة.

فكما أن أمريكا تؤسِّس، وتُكوِّن جيش فيتنام الجنوبية، لا لكي يدافع عن

حكومتها، لكنْ، لكي يمارس الحروب المحلِّيَّة لحساب أمريكا في المنطقة كلّها، الأمر الذي يتجلّى لي المهمَّات التي يقوم بها هذا الجيش في كمبوديا ولاوس .. فهي تعدُّ إسرائيل - استراتيجياً - لتكون القوّة المحلِّيَّة الضاربة لحسابها في المنطقة.

ثانياً: لأن أمريكا بدأت تستخدم الصِّهيونيَّة العالمية في نَقْل المعركة إلى قلب المعسكر الشَّرقيِّ، وإلى قلب الاتِّحاد السُّوفييتيّ ذاته.

فالحملة الصِّهيونيَّة المدعَّمة في أمريكا، التي تحاول أن تخلق قصَّة عن اضطهاد اليهود في الاتّحاد السُّوفييتيّ، المقصود بها في الدرجة الأولى تشويه سمعة المجتمع السُّوفييتيّ، ردّاً على ما تنشره الصُّحُف في العالم كلّ يوم عن وجود التفرقة العنصرية والاضطهاد العنصري في أمريكا، وتحاول أن تخلق به بذور انقسامات وتخلخلات داخلية في المجتمع السُّوفييتيّ.

إن الصحافة الغربية ذاتها تعترف بأن اليهود في روسيا وَضْعهم لا يختلف عن وَضْع أيِّ ديانة أخرى أو أيِّ قومية أخرى، وأن هناك يهوداً في أعلى المناصب السِّياسيَّة والحزبية والعلمية والفنِّيَّة والأدبية. ولكن خطَّة الصِّهيونيَّة التي طبَّقَتْها طوَالَ نصف قرن في كلِّ البلاد، وهي إشعار اليهودي بالغربة والخطر، وتعميق إحساسه بأنه مختلف، وأنه عُرضة للاضطهاد في أيِّ وقت، هي سلاح الصِّهيونيَّة الأساسي في دَفْع الناس للهجرة إلى إسرائيل.

وقد جاءت هذه الخطَّة الآن تناسب عداء إسرائيل للاتِّحاد السُّوفييتيّ، بسبب موقفه إلى جانب العرب، وتناسب أمريكا في معركة الحرب الدّعائيَّة بين المعسكرَيْن.

وكانت زيارتي لمعهد آسيا، ولقسم الشؤون العربية والشَّرقيَّة فيه بالذات، زيارة مفيدة جدّاً.

فقد اجتمعتُ بأسرة التدريس والبحث في القسم. كلُّهم يتكلَّمون

العربية بشكل أو بآخر، وهم مشتغلون ببحوث علمية ممتازة في شتّى الفروع عن العالم العربي. بحوث تاريخية وأدبية وسياسية واقتصادية. وقد تحدَّثتُ معهم عن مشكلة عدم ترجمة هذه الأعمال إلى لغتنا .. وشكوا إليَّ من البيروقراطية الثقيلة البطيئة في عملية النَّشْر التي لا تؤدِّي إلى طبْع هذه المؤلَّفات والبحوث في الوقت المناسب.

ولكنني أقول هنا في مصر - بعد أن عاتبتُهم هناك على هذا عتابا شديداً - إن علينا أيضاً دَوْراً في هذا المجال. وأن لدينا الآن شباباً كثيرين يعرفون اللغة الرُّوسيّة، ويمكن أن نقوم نحن أيضاً بمجهود في انتقاء وترجمة ما نراه مفيداً ممّا يُنتجون ويُؤلِّفون. إذ لا يجب أن ننتظر حتَّى يأتيَ إلينا كلُّ شيء سهلاً.

على أن مفاجأة الرحلة الجميلة، كانت ذلك اللقاء المؤثِّر بشاعر حيفا والأراضي المحتلَّة وفلسطين الشهيدة .. محمود درويش.

إنه في منحة دراسية في موسكو منذُ سنة، وعبر زيارتي لمعهد آسيا. علمتُ بوجوده، وعلم بوجودي. وكان اللقاء الذي لا أستطيع أن أصفَهُ.

أكاد أقول إنني لم أُحدِّثْهُ في السياسة. وإنني ربّما لم أُكلِّمْهُ كثيراً. كنتُ فقط سعيداً بأن أراه وألمسه وأسمعه يتحدَّث ويضحك ويبكي بشبابه وحيويّته وجاذبيّته الشّخصيَّة الشديدة. إنني أب لطفلَيْن، ولكنني لم أشعر شعوراً حقيقيّاً بمعنى "فلذة كبدي" إلّا عندما رأيتُهُ، هذا قطعة منّي. فلذة من كبدي حقّاً. ولستُ أريد أن أتحدّث عنه مطوّلاً هنا، فهو يكره معظم ما يُنشَر عنه في الصُّحُف العربية.

فقط لم أستطع أن أُسجّل هذه الانطباعات عن موسكو دون أن أذكر الساعات الجميلة التي قضيتُها معه .. سائرَيْن في الشوارع باحثَيْن عن

مطعم، نجد فيه طعاماً، أو جالسَيْن في حجرتي بالفندق، نتناجى حتّى يكاد ينتهي الليل.

وأنا أكتب هذه السطور، يكون محمود درويش، على الأغلب، قد عاد إلى إسرائيل، إلى حيفا، حيثُ مُحرَّم عليه مغادرة المدينة. ومُحرَّم عليه أن يخرج من بيته بعد الثامنة مساء، وحيث يجب أن يتأكّد البوليس من ذلك كلّ يوم.

إن الناضجين من عرب إسرائيل هم أنضج العرب. وهم يحملون على أكتافهم همومنا نحن في العالم العربي الواسع أكثر ممّا نحمل همومهم.

ولكنْ، تلك قصّة أخرى .. تخرج بنا عن موسكو، وعن اليومَيْن السَّريعَيْن اللّذَيْن قضيتُهما هناك.

مجلّة المصوَّر (5 فبراير 1971)

محمود درويش غيَّرتُ موقعي ... ولم أُغيِّر موقفي

حوار مع معين بسيسو

في رواية هوارد فاست "سيلاس تمبريان" التي كَتَبَها ضدَّ المكارثية وضدَّ المحرقة التي أقامتْها لكلِّ كتاب، يحمل كلمة الإنسان الأمريكي ضد الجريمة والإرهاب .. يلصق طفل المدرِّس الجامعي "سيلاس تمبرمان" وجهه بزجاج نافذة غرفته المُطلَّة على الشارع، ليرى والده وهو يعود للبيت .. وترتفع بعض أيدي البلطجيَّة من عملاء المكارثية بالأحجار، وتقذفها على لوح الزجاج، ووراءه قد التصق وجه الطفل .. ويتحطَّم زجاج النافذة في وجه الطفل، ويتناثر شظايا زجاج النافذة في عَيْنَيْه .. فما دام الأب سيلاس تمبرمان قد رَفَضَ أن يُزيِّف تاريخ الأدب الأمريكي، فلا بدَّ أن يُعاقَب من خلال تشويه وجه طفله الوحيد.

هذه الصورة الدامية كانت تتراقص أمام عَيْنَيَّ في المرَّة الأولى التي التقيتُ فيها بالشاعر الفلسطيني محمود درويش، وفي ندوة طشقند .. عاصمة جمهورية أوزبكستان السُّوفييتيَّة عام 1968 حينما وَقَفَ وفد أدبي عربي، وكان الوفد مؤلَّفاً من الملحق العسكري في أنقرة، ومن المؤرِّخ الرَّسميِّ للأسرة السَّنوسيَّة - يعلن أنه سيقاطع ندوة طشقند، لو اشترك فيها محمود درويش.

لماذا؟ لأن محمود درويش - وفي مهرجان الشباب الذي انعقد في صوفيا عام 1967 -كان ضمن وفد الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي؟! ولم يكن محمود درويش ضمن وفد الحزب، رَغْمَ انتمائه للحزب، ولكنه كان ضيف المهرجان، وفي أعتاب المهرجان، بدأت أيدي بعض البلطجية من هنا

..هناك تقذف وجه الشاعر بالحجارة .. تقذف وجه الطفل الذي ألصق وجهه بزجاج النافذة في بيته في الأرض المحتلَّة، ليطلَّ على الشارع .. يحلم بأبيه الجديد .. يحلم بشعبه وهو يعود إلى بيته وأرضه.

ولكن الحَجَرَ هذه المرَّة لم يضربْ وجه محمود درويش، ولم يتناثرْ زجاج النافذة في عَيْنَيْه، ولم يُشوِّه وجهه، فقد ذاب جليد هزيمة 1967، وظَهَرَتْ تحته كلُّ الوجوه المزايدة المفلسفة التي لا تستطيع أن تمسك بتلابيب أحد رجال الدَّرَك، ولكنها تستطيع أن تمتدَّ إلى عنق شاعر، لتُحمِّله مسؤولية كلّ ما حَدَث.

.. ذاب الجليد أو ذاب بعضُهُ، والتقيتُ بمحمود درويش للمرَّة الثانية في موسكو، لنأخذَ الطائرة معاً إلى نيودلهي للاشتراك في المؤتمر الرابع لكُتّاب آسيا وإفريقيا.

ومع وجود محمود درويش في القاهرة التي اختارها موقعاً جديداً له، أستطيع أن أعلن الآن، أن محمود درويش، كما بلَّغتُ بنفسي رئاسةَ المؤتمر - هو عضو الوفد الفلسطيني الرَّسْمِيّ - مع رجاء أن تضع رئاسة المؤتمر في اعتبارها أن تبقى وثيقة مساهمة محمود درويش في المؤتمر كعضو في الوفد - وفي إطار الرئاسة فقط - وأن لا يُعلَن عنها في الوقت الحاضر.

كان محمود درويش في حوار العذاب الأكبر مع نفسه، العذاب الذي لا يحسُّه إلّا الشاعر الأصيل وهو يرى نفسه ممزَّقاً بين انتماءَيْن، الانتماء الأوَّل الذي يفرض وجوده من خلال وجود الشاعر نفسه في الأرض المحتلَّة وعضوية الحزب الشُّيوعيِّ، والانتماء الثاني، أو الوجه الآخر لهذا الانتماء .. هو انتماء محمود درويش لشعبه العربي الفلسطيني أوَّلاً وقبل كلِّ شيء، ولطموح هذا الشعب لاسترجاع كلِّ ما اغتُصب منه.

.. كان محمود درويش يحاور نفسه، وكنتُ أحاوره في الوقت نفسه حتَّى طرحتُ عليه هذا السؤال في فندق موسكو نوفمبر 1970.

- محمود .. إلى أيِّ مستوى جماهيري يصل صوتُكَ في الأرض المحتلّة؟

ويرتفع صوت محمود درويش: أعتقد أن "إسرائيل" تقدّم الإجابة الواضحة، فأنا أنشر قصائدي في جريدة "الاتّحاد" العربية، وتوزيع الجريدة يدور في إطار أعضاء الحزب الشُّيُوعيِّ الإسرائيلي من عرب ويهود، وفي إطار أصدقائهم.

وجريدة الاتّحاد ممنوعة من التوزيع في الأرض المحتلّة بعد عدوان 1967، فهي ممنوعة من دخول غزّة ونابلس والقدس .... إلخ، وهكذا أصبح صوتي مُحاصَراً .. ولو قُدِّرَ وهُرِّبَت جريدة الاتّحاد خارج الأرض المحتلّة. عندها يُعاد نَشْر قصيدتي في الجرائد والمجلّات العربية .. ومن أجل هذا يمكن أن تُقدِّر إلى أيِّ مدى كان تأثير قصائدي في جرائد العرب .. وليست هذه غير حلقة واحدة من حلقات مأساتي.

- وماذا عن الحلقات الأخرى؟

كان تقييم كلّ النُّقّاد لي أنني في الأرض المحتلّة، وما أكثر ما كنت أتصوّر نفسي كأحد أبطال المأساة القديمة ... حيثُ يصبح قَدَرُ البطل أن يربط إلى طاحونة، ويأخذ في الدوران .. وتأخذ الطاحونة تدور .. وأنا مدين حقّاً "لبريخت" الشاعر والمسرحي الألماني العظيم .. الذي أعطاني القوّة، لكي أُقرِّر كما قرَّر هو، أن الشاعر هو الذي يقرِّر دَوْر الطاحونة، وليست الطاحونة هي التي تقرِّر دَوْر الشاعر .. وقرَّرتُ بيني وبين نفسي أن ألعب الدَّوْر .. الذي قدِّر على أن ألعبه كاملاً: وكان السؤال الأكبر هو أين؟

- وهل وجودكَ في القاهرة الآن هو الإجابة عن السؤال الأكبر أين؟

نعم، إني أجد في القاهرة موقعاً أكثر انطلاقاً وحُرِّيّة لخدمة نفس القضية التي كنتُ أؤدِّيها في الأرض المحتلّة، إن من حقّي أن أتعرَّف على شعبي، وأن أمتزج به، لأستمدَّ طاقة أكبر، وأرفع الأربطة البيضاء بعد الحصار الدَّمويّ

الذي كنتُ فيه، وإني شديد الإيمان في أن أجد في القاهرة هذا الموقع فعلاً.

- ما كلمتكَ التي تُوجِّهها الآن إلى زملائكَ في الأرض المحتلَّة، إلى سميح القاسم، وتوفيق زيَّاد، وسالم جبران ..... إلخ؟

ما زلتُ أعتبر نفسي جزءاً منهم، وأعتبر نفسي في موقع آخر من جبهتهم، وفي نضالهم المعادي للصِّهيونيَّة وللكَبْت والاضطهاد، وفي دفاعهم عن حقِّ شعبهم، وفي طابور واحد مع زملائي الشعراء الفلسطينيِّيْن خارج الأرض المحتلَّة، ومع العناصر والقوى الشريفة من اليهود ... إنني لا أشكُّ أبداً، ولا يمكن اعتبار وجودي هنا كنتيجة لاهتزاز إيماني العميق بجدوى المعركة الشريفة التي يخوضونها. وباختصار لقد غيَّرتُ موقعي، ولم أُغيِّر موقفي ... وأريد أن آمل أن تغيير هذا الموقع سيكون في خدمة هذا الموقف .. إننا معهم، وكلُّ قلوب الجماهير العربية معهم، ونأمل ألَّا يكون فراقنا طويلاً.

- ما تقديركَ كشاعر فلسطيني بالنسبة للمقاومة الفلسطينية؟

المقاومة هي إحدى نوافذي إلى الأمل، وتأشيرة مروري للعالم ... وإنني أعتزُّ أنني لا أنتمي الآن إلى مجموعة من اللاَّجئين المشرَّدين في الخيام، من حَمَلَة بطاقات الإغاثة الزرقاء، لكنني أنتمي إلى شعب، أصبح اسمه المقاومة.

- كنتَ في الأيَّام الأخيرة في موسكو .. فهل هنالك كلمة تقولها لهم وقد كانت آخر أيَّامكَ بها؟

إني أتقدَّم بشكر خاصٍّ إلى اللجنة المركزية للحزب الشُّيُوعيِّ السُّوفييتيِّ، التي أتاحت لي فرصة الوجود هناك، وإنني أعتقد أن وجودي في القاهرة سيعطيني منبراً أفضل للتعبير عن صداقتي العميقة وحُبِّي الذي لا حَدَّ له للاتِّحاد السُّوفييتيِّ، ولكلِّ القوى الشريفة في العالم.

- هنالك كلمة لزملائك الشعراء العرب؟

إنني شديد الاعتزاز بأن أضمَّ صوتي مباشرة إلى أوركسترا الشِّعْر العربي المعاصر بعد ما كنتُ جزءاً لا يتجزَّأ منه، لكنني في مكان بعيد، إن رأيي حاسم في هذه المسألة، فأنا لا أعتبر حركتنا الشِّعْريَّة في فلسطين جزءاً منفصلاً عن حركة الشِّعْر العربي، لكنه جزء عضوي منها، تأثَّر بها، وقد تستطيع التأثير فيها.

- هناك ما تُوجِّهه للقاهرة، حيثُ ستقيم؟

إنني أتقدَّم بأحرِّ الشكر إلى الجمهورية العربية المتَّحدة، الرئيس والنظام السِّياسيّ والحكومة والشعب، لأنها احتضنتْني، وأعطتْني من المودَّة والحُبّ ما يجعلني أتكلَّم عنها بتأثُّر بالغ، وأرجو أن أجد مكاني بين المواطنين العرب عاملاً صغيراً في معركة الحُرِّيَّة والتَّقدُّم والسلام.

الأهرام 11-2-1971

رسالة إلى محمود درويش

سميح القاسم

عزيزي محمود ..

الحرج قائم، سواء كتبتُ إليكَ أم لم أكتبْ، وحتَّى لو كانت لديَّ طائرة فانتوم، فإنني لا أستطيع تحميلها هذه الرسالة إليكَ، فالخوازيق الجوِّيَّة المتربِّصة على ضفَّةِ القناة الغربية جَعَلَتْ بريد الفانتوم في خطر شديد، ومن هنا فإن "الجديد" سليلة الحمام الزاجل خير رسول إليكَ، هناك في مصر الشجاعة واقعاً وأسطورة، أرضا وبشراً، وماضياً وحاضراً.

وبعد، لا أريد تقريعكَ على فعل ماضٍ، أصبح أمراً واقعاً، فمن أين لنا القدرة على إعادة الرصاصة المنطلقة إلى فُوَّهَتها الأُمِّ؟!

لكنني أريد مجاهرتكَ ببعض الخواطر التي أثارها فيَّ بيانكَ العاطفي المذاع من موقعكَ الجديد، وموقفكَ القديم.

ونعود إلى عملنا هنا..

منذُ قيام إسرائيل، ومبارد العنصرية تنحت في لحم البقية الباقية من العرب الفلسطينيِّيْن في وطن آبائهم وأجدادهم، ولكن القوى الوطنية والدِّيمقراطيَّة، وفي طليعتها الشُّيُوعيُّون، أدركتْ ما ترمي إليه السلطات الصِّهيونيَّة من وراء الاضطهاد والقَمْع والإرهاب.

أدركت أن الشعار الأوَّل والرَّئيسيّ الذي رفعتْهُ الحركة الصِّهيونيَّة هو: المزيد من الأراضي، والأقلّ من العرب، ومَنْ كان منَّا يؤمن بهذا الشعب،

فليحمل صليبَهُ، وإذا كان هذا الشعب قد قرَّر البقاء على صدورهم، فعلى حاملي الصلبان ألَّا يتزحزحوا، وإذا كان في تاريخ الشعراء والأدباء بعض أصحاب الصلبان الذين غيَّروا مواقعهم، مثل ناظم حكمت، وبرتولد بريخت، فذلك لأن أعداءهم أرادوا تجريدهم حتَّى من الصليب ذاته. أمَّا نحن، فإن صليبنا الكبير ما زال في أيدينا، وأنتَ تشهد في بيانك، بالنضال "بطولي".

قلتَ إن وطننا لم يعد جبلاً وسهلاً، بل قضية، ولا أستطيع إلَّا أن أختلف معكَ في هذا. فالوطن الميتافيزيقي، الوطن الفكرة، أو القضية، الوطن الذي ليس سهلاً ولا جبلاً هو وطن الحركة الصِّهيونيَّة!! وطننا نحن، سهل وجبل وقضية، في الوقت نفسه، وطننا فلَّاحون، يُعتدَى عليهم في أرضهم، تُجَّار يُعتدَى عليهم في متاجرهم، بشرٌ يتكلَّمون ويأكلون ويفرحون ويحزنون وينزفون دماً في مُدُنهم وقراهم، في غَزَّة وحيفا والخليل والرَّامة والجديدة، وحتَّى في البروة التي لم يبقَ منها سوى أطلال كنيستها، وأهلها!

في أيَّام المغول والتتار كان المحتلُّون يجهلون علم النَّفْس، كانوا يبيدون ضحاياهم إبادة جسدية، أمَّا اليوم، فإن حضارة القرن العشرين علّمت المحتلِّين أساليب الإبادة الفكرية ومناهج التدمير النَّفْسيِّ، إلى جانب التصفية الجسدية. وكثيراً ما يلجأ المُضطهِدُون - بكسر الهاء - المودرن، إلى القَمْع النَّفْسيِّ، لدَفْع ضحاياهم إلى الهرب، في سبيل خلاص ذاتي موهوم. إنهم يمارسون الإرهاب السّيكولوجيّ، ليخلقوا في نفوس مُضطهَديهم - بفتح الهاء - ما يُسمَّى بالبارانويا، وهو مرض الخوف والملاحقة، أو البسيخوفرينيا، وهو ضرب من الهَلْوَسَة وفقدان السيطرة على الذات. فهل نسمح لحكام إسرائيل بأن يجعلوا منَّا أرانب لتجاربهم؟

لا أشكُّ للحظة في حُبِّكَ لشعبك ووطنكَ، ولا أشكُّ للحظة في حبّك لرفاقكَ ومكتبكَ العتيق الصابر بين مكاتبهم العتيقة الصابرة، حيثُ العدا

اليومي المتوتِّر والمرهِق، ولكنني أشكُّ في أن خطوتكَ كانت أمراً لا مفرَّ منه، وأخيراً، إليكَ هذا النبأ الشَّخصيّ، ديوانكَ الذي تركتَهُ في ذمَّتنا سيصدر قريباً، سيصدر في الناصرة، ولن أرسل إليكَ نسختكَ مع الصليب الأحمر الدَّوليّ، سأحفظها لكَ هنا حتَّى تعود لرفاقكَ .. وستعود!

مجلَّة الآداب، أبريل 1971

أنتَ تعلم، يا صديقي

أحمد عبد المعطي حجازي

أنتَ تعلم، يا صديقي، أن كلَّ العيون الآن مفتوحة عليكَ

عيون شعبكَ العربي في كلِّ أقطاره، وعيون رفاقكَ في الأرض المحتلة وعيون أعدائكَ أيضاً.

وأنتَ تعلم أيضاً أن الناس الذين يُطعَنون بما فيه الكفاية، وخُدِعُوا بما فيه الكفاية، يحقُّ لهم أن يُشفقوا عليكَ، وعلى أنفسهم، من المصير الذي ينتهي إليه في العادة نضال اللاَّجئين السّياسيِّيْن، وهو أن يقبعوا في ركن مقهى، بل لقد وُجِّهَتْ إليكَ أسئلة وملاحظات توحي بهذه الشفقة، وربما قرأتُ في بعض صُحُف عواصم عربية أخرى تعليقات تُصرِّح بها.

ولقد أعلنتَ أنتَ أنكَ خرجتَ، لتُواصلَ نضالكَ على نحو أفضل، وأنتَ بالطبع كفء لأن تُواصِل النضال، وتظلَّ أميناً على القضية.

إن ثلاثين عاماً في هذه المهنة، مهنة النضال كما كان يُسمِّيها ناظم حكمت، ليست بالتراث القليل الذي يمكن أن يتجاهله الإنسان بسهولة.

وأنتَ شاعر، يا صديقي.

وإذا كنتَ قد أصبتَ في هذه المهنة الأخرى مجداً، فقد أصبته لأنكَ تشتغل بالمهنَتَيْن معاً .. فأنتَ شاعر مجيد، لأنكَ شاعر مناضل. هذه هي فَرَسُكَ كما عوَّدتَها لن يستجيبَ لكَ الشِّعْر إلَّا وأنتَ على تلك الفَرَس الخطرة. وأنتَ تسلَّحتَ بنَظَرِيَّة ثورية، وتربَّيتَ في حزب، وسو...

ننتظر الناس، وننتظر نحن، وأيضاً في أيِّ شيء تختلف تجربتكَ أنتَ وقد صرتَ وحدكَ - عن تجارب الذين لا يملكون هذا التراث.

ويقول أعداؤكَ وأعداؤنا إن محمود درويش ورفاقه ظاهرة إسرائيلية، وهم يقصدون بهذا الزَّعْم أن النجاح الذي حقَّقتُموه إنما هو ثمرة ما أتاحوه لكم في إسرائيل، وأنا أعلم أن الوقائع تُكذِّبهم، فهم لم يتيحوا لكم إلَّا الاضطهاد والقَهْر، لكننا ننتظر منكَ أنتَ الرَّدَّ عليهم، لا بأن تظلَّ شاعراً مجيداً فحسب، بل أيضاً يظلُّ شِعْرُك تعبيراً وإلهاماً لمقاومة شعبكَ وثورته وتضحياته التي لن تتوقَّف، لقد قدَّمتِ القاهرةُ ببالغ الإعزاز نصيبَها في الحرص عليكَ حين هيَّأتْ لكَ مكانكَ في صوت العرب. وبقي أن تُواصلَ أنتَ تقديم نصيبكَ.

أقترح عليكَ، في البداية، أن ينصبَّ نشاطكَ في صوت العرب في مجال أساسي، هو البرنامج العبري الذي تستطيع أن تُسهم في التخطيط له، وفي تحريره، وهذا تخصُّص، نحن في أشدِّ الحاجة إليه، فأنتَ لا تتكلَّم العبرية كما يتكلَّمها سُكَّان إسرائيل فحسب، بل أنتَ، أيضاً، تفهم روح هؤلاء القوم، وتعرف ماذا يؤثِّر فيهم ويثير انتباههم ويخاطب عقولهم. تعرف حججهم ومواطن قوَّتهم وضعفهم، وتعرف أيضاً، بالطبع، حججنا ومواطن قوَّتنا وضعفنا.

خَاطبْ فقراءَ اليهود وعقلاءَهُم من الرجال والنساء، وخَاطِبْ أطفالَهم، واشرحْ لهم أيَّ مذبحة تاريخية يريد حُكَّام البيت الثالث أن يسوقوهم إليها على مدى السنوات المقبلة، وقلْ لهم بلطف ومحبَّة: إن ملايين الأطفال الفلسطينيِّيْن في الطريق.

أقترح عليكَ، أيضاً، أن تبدأ مشروعاً لترجمة الأدب الإسرائيلي الحديث إلى لغتنا العربية.

إن أعداءنا يعرفوننا عن طريق كاتب مثل نجيب محفوظ أضعاف أضعاف ما يستطيعون أن يعرفونا عن طريق أجهزة أمنهم وجواسيسهم. إن الكاتب جاسوس خطير، يقدّم معلومات عن النّفْس التي تفكّر وتعمل وتخطّط وتتراجع وتتقدّم وتحارب، ونحن في أشدّ الحاجة إلى جواسيس من هذا النوع.

وماذا ترجمْنا نحن من هذا الأدب؟

"بروتوكولات صهيون"! ذلك الكتاب الأسطوري المزيّف الذي يظن بعض الناس أنهم بقراءتهم له يعرفون اليهود، وأيُّ معرفة يقدّمها لنا حديث الدم والقَتْل والسُّمّ والكذب عن مجتمع عصري، له قضاياه ومشاكله التي ينبغي أن نسرقها سرقة موضوعية.

نحن نريد أن تُترجم لنا شعْر ناتان والترمان واسكندر بن. وشلونسكي. ويهودا عميحاي، نريد أن نعرف كيف تحوّل هؤلاء الشعراء الرُّوسُ الذين بدؤوا حياتهم الشّعْريّة بالرُّوسيّة إلى كتابة الشّعْر بالعبرية، نريد أن نعرف كيف يستطيع الشاعر أن يُغيّر لغته في عشرين عاماً، ومع ذلك يظلّ يكتب الشّعْر. نريد أيضاً أن نقرأ آراء مفكّريهم في مشكلة إسرائيل كما يعانون منها ويتصوّرون لها الحلول.

لقد قلتَ لي في حديث سابق: إن الصراع سيكون طويلاً، لأنه صراع تاريخي معقّد، لن يُحسم قبل أن ينضج .. فَلْنَدْخُلْهُ، إذنْ، مسلّحين .. والوقت أمامنا.

ومنْ يدري، يا محمود، ألّا يكون مقامكَ في القاهرة بداية لأن تُشعل نشاطاً، وتُثير روح العمل من أجل ما نطالبكَ بأن تقوم به وحدكَ؟!

روز اليوسف 22 فبراير / شباط 1971

محمود درويش لم يرحلْ

(مقال إميل حبيبي)

"أقول للناس، للأحباب: نحن هنا أسرى محبَّتكم في كوكب الساري"

"محمود درويش"

من الطَّبيعيِّ أن يشعر الناس هنا، الذين ذَهَبَ محمود درويش ورفاقه إلى السجون مرَّات ومرَّات "أسرى محبَّتكم" بالمرارة وبالأسى حين فُوجِئوا برحيله إلى القاهرة، لقد ظلَّ بأسهم سنين طويلة يهتف، متحدِّياً أقسى الضنى، ومُجهِزاً على حشرات اليأس.

"يا صخرة، صلَّى عليها، والذي لتصون ثائر
أنا لن أبيعكَ باللآلئ
أنا لن أسافر
لن أسافر
وأنا مع الأمطارِ ساهد
عَبَثاً أُحدِّق في البعيد
سأظلُّ فوقَ الصخر، تحتَ الصخر
صامد..!"

حتَّى أصبح التعبير، الذي أدهش العالم .. عن أمل شعب من الصعب أن يلومَهُ أحد، إذا ما فَقَدَ الأمل. ففي أصعب الأوقات حين أذلَّهم ليل، وأصبح من العسير على الكثيرين التَّنفُّس، وَجَدَ محمود درويش تعزية وتحدِّياً في "قوَّة صمت المقبرة"! ومع ذلك، لم نصمت. ولكم ما أثار

صرخة الناس الطَّيِّبين في البلاد العربية قوى التَّقدُّم وسلام الشعوب العادل. الذين أرادت الأيدي السوداء، مستغلّة مأساة 1967، أن تقتل في نفوسهم أملهم بالتَّحرُّر، وبالسلام، وبالتَّقدُّم الاجتماعي: فإذا لم يفقد الأملَ هؤلاءُ، كيف نفقدُهُ نحن؟!

باسمنا يهوداً وعَرَباً. نعم. يهوداً وعَرَباً، بل لأننا معاً سِرْنا يهوداً وعرباً باسم صمودنا خلال أطول ليل، هتف محمود درويش:

"خسرتُ حُلْماً جميلاً
خسرتُ لَسْعَ الزنابق
وكان ليلي طويلاً
على سياجِ الحدائق
وما خسرتُ السَّبيلا"

ولا نبوح بِالسرّ الذي تعرفه السلطة، إذ ذكرْنا الآن أن المنكوبين في القدس العربية المحتلّة طَبَعُوا وتناقَلُوا وحفظوا عن ظَهْر قلب، مجفّفين دموعهم أبيات محمود درويش المهداةَ إلى مدينة القدس وأخواتها:

"وإذا كنتُ أُغنّي للفرح
خلفَ أجفانِ العُيُون الخانقة
فلأنَّ العاصفة
وَعَدَتْني بنبيذ
وبأقواسِ قزح"

فكان من الطَّبيعيّ أن يُدركَ محمود درويش .. كما سمعناها في بيانه في مؤتمره الصَّحَفيّ في القاهرة، أنه مهما حاول حَصْر رحيله في إطار التَّصرُّف الشَّخصيّ الصرف، ومهما بذل من منتهى الجهد، "للحيلولة دون تحويلها إلى موضوع للمناقشة وللأَخْذ وللرَّدّ"، فإن رحيله يظلُّ قضية عامّة.

وليس من حقِّه كما اعترف هو نفسه، "بأن أتصرَّف كمسافر وكسائح"، وبأنه مطالَب كما قال هو نفسه، "أمام نفسي وأمام الرأي العامِّ بتقديم بعض التحديدات العامَّة، لأتابع بعدها طريقي".

ونحن، أيضاً، نرغب في الحيلولة دون تحويل رحيله إلى موضوع للمناقشة، وللأَخْذ وللرَّدّ. وذلك لإدراكنا مَعْدنَ محمود درويش، وأن رحيله كما أعلن في مؤتمره الصَّحَفيِّ، ليس نابعاً عن رغبته في الانسلاخ عن انتمائه السِّياسيِّ والفكريِّ. وأنه لا يزال يؤمن بحزبنا وبمبادئه الذي، كما قال عنه في مؤتمره الصَّحَفِيِّ، يضمُّ في جبهة واحدة متراصَّة كلَّ العناصر المناضلة من المواطنين العرب وخيرة العناصر المكافحة من المواطنين اليهود.

وأنه يشير إلى إمكانية التعايش والحياة المشتركة السعيدة بين العرب واليهود، ويرفع الشعار مع الشعوب العربية ضدَّ الاستعمار، لا مع الاستعمار ضدَّ الشعوب العربية، وهو يحذِّر من الهاوية التي يُقدِّم الحُكْمُ الإسرائيليُّ المواطنين إليها، إذا ما استمرَّ في تنكُّره لحقوق الشعب العربي الفلسطيني، والاعتداء على الأرض العربية وحقوقها وسيادتها. وإذا ما استمرّ تحالفه العضوي مع الإمبريالية العالمية"، ومع هذا، فمن الواضح أننا نعارض رحيله، ولا نقبل الحجج التي قدَّمها لتبرير هذه "الخطوة الخطيرة" كما أسماها هو. وهو نفسه يدرك أنه بتصرُّفه الفَرْدِيِّ هذا، الذي أخفاه عن حزبه، لم يبقَ أمام الحزب أيُّ طريق سوى اتِّخاذ الإجراءات التَّنظيميَّة الملائمة تجاه تصرُّفه هذا.

وهو نفسه أعلن في مؤتمره الصَّحَفِيِّ في القاهرة أن الحزب من حقِّه الطَّبيعيِّ أن يتحفَّظ على هذا السلوك الفَرْدِيِّ الذي خالفتُ به أبسط قواعد التنظيم الحزبي. ويبقى رحيل محمود درويش قضية فَرْدِيَّة في معنى معيَّن. وقضية عامَّة في معنى آخر.

أمَّا إنها قضية فَرْدِيَّة، فلأنه مهما يشتدُّ القَهْر لا يستطيع جميع عرب

إسرائيل الرحيل إلى القاهرة أو غيرها، ولا القاهرة أو غيرها، تفتح أبوابها لجميع العرب في إسرائيل، فهذا ليس حلاً واقعياً. لا بالنسبة إلى الناس العاديِّيْن، ولا بالنسبة إلى الناس المكافحين.

وأمَّا إنها قضية عامَّة، فلأنها تعبير مؤلم عن قسوة وغباء السياسة الرَّسْمِيَّة تجاه العرب في إسرائيل، الذين يملؤون الدنيا صراخاً عن رغبتهم في السلام وفي التعايش السِّلْمِيِّ مع الشعوب العربية، لم يفكِّروا، في يوم من الأيَّام، أن يُثبتوا ذلك في علاقتهم بالأقلِّيَّة العربية التي تعيش في وطنها، في ظلِّ الحُكْم الإسرائيلي منذُ أكثر من 22 عاماً، بل عاملوها معاملة الشعب المغلوب على أمره. إن محمود درويش، مثل كثيرين غيره، هو "لاجئ" في وطنه.

إن قريته، البروة، وقد هُدِمَتْ، وقامت مكانها مستوطنة يهودية، فالتجأ مع عائلته إلى قرية جديدة مجاورة، فاعتُبر "لاجئاً"، ومَنَعَت السلطاتُ عنه الجنسيةَ الإسرائيلية.

إن محمود درويش شاعر كبير، وأيُّ حُكْم يتحلَّى بذرَّة من المسؤولية، كان يجب أن يترك هذا الشاعر الكبير وشأنه، إن لم يحاول احتضانه، لكن الحاكمين المتغطرسين في لبلادنا، الذين أعمَتْهم عنصريَّتهم، كانوا أشدَّ غباوة من بومة، في محاولتهم تنغيص الحياة على محمود درويش ورفاقه، وجَعْلها غير محتملة. إن من سخرية القَدَر أنه ما كان يُفجَّر لُغم في إسرائيل إلَّا وتُسرِع الشرطة إلى اعتقال محمود درويش بدون محاكمة. ولمدَّة طويلة فرضت عليهم الإقامة الجَبْرِيَّة في بيوتهم أثناء الليل، يغيبون مع الشمس، ويُشرقون معها.

ومحمود درويش المحروم من زيارة قريته الأصلية، حُرم من زيارة أهله في مَنْفاهم في قرية جديدة.

لقد قال محمود درويش إنه برحيله إلى القاهرة، لم يرحل عن المعركة التي كرَّس حياته وشِعْره من أجلها، بل انتقل إلى موقع جديد أرحب صدراً وغنىً بإمكانيّات الحركة.

إننا على ثقة بأننا أشدُّ حاجة إلى محمود درويش هنا، بيننا، لكنَّ حُكّام بلادنا يجب ألّا يلوموا أنفسهم للنتيجة التي توصَّل إليها محمود درويش، وفرحتهم على أنهم تخلّصوا منه هو، مثل فرح التيس الذي حين يأكل جذور الشجر ويفرح، لا يفكّر بغذاء السنة القادمة.

أمّا نحن هنا، الباقون أبداً هنا، والمتفائلون مهما يطلْ ليل، فإن "خلف شُبّاكنا نهار". ونُصرُّ على أن ندافع عن حقّنا بأن ندافع "وعن دفاعي أدافع" كما قال درويش لنحقّق بقوّة الشعب الكادح الذي لا يمكن أن يكون اليأس بديلاً عن واقعه النّفسيِّ، أُمنيّاتنا الكفاحيّة.

مجلّة روز اليوسف 15 مارس/ آذار 1971

مقالات محمود درويش في دار الهلال

هل تسمحون لي بالزواج؟

محمود درويش

نشر المصوّر منذُ ثلاثة أسابيع أوّل قصيدة، كَتَبها محمود درويش بعد حضوره إلى القاهرة .. وهذا هو المقال الأوّل الذي يكتبه شاعر الأرض المحتلّة بعد انضمامه إلى أسرة تحرير "المصوّر".

لم أعد قادراً على الصمت. وليس كلامي إلّا محاولة للدفاع عن حقّي في الصمت.

لقد ارتفع منسوب الحماقة إلى درجة تفسير الصمت بالعجز أو الحياء.

وأعترف بأني أحمل العجز والحياء .. العجز عن الكذب، وحياء السيف.

وحين يتحوّل الكلام إلى عاصفة رملية قادمة من صحراء الفكر المتقلّب المناخ، يصبح الصمت هو الرؤية الوحيدة. ولكنْ، حين تطول العاصفة وتمتدّ، يصبح من حقِّ الصمت أن يدافع عن نفسه بالكلام. واسمحوا لي أن أعتقد أنني لستُ متّهماً إلّا بالصِّدْق مع نفسي، ومع الناس.

كنتُ فوق الغيوم .. في الطائرة القادمة من بيروت إلى القاهرة، أتصفّح ملفّاً ضخماً، يحمل مختارات من موسوعة الخيال الشّرقيّ، موضوعه: محمود درويش. وكنتُ أظنُّ أن الزوبعة التي أثارها رحيلي عن بلادي ومجيئي إلى القاهرة ليست إلّا ضرباً من ضروب المتعة الصَّحَفيَّة التي ستنطفئ بعد أيَّام قليلة. وكنتُ أظنُّ أن الحياة العربية، في هذا الظَّرْف

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

بالذات، مليئة بالمشاغل الجادَّة، وهي تواجه معركة من أخطر معارك مصيرها. ولم أتصوَّر - حتَّى في أشدِّ لحظات الخيال تحليقاً - أن قصّة حياة شاعر ستتحوَّل طيلة شهرَيْن كاملَيْن إلى إحدى القضايا الرَّئيسيَّة في حياة العرب. حَدَثَ ذلك في الجاهلية؟ فهل يُرادُ لنا أن نعود إلى الجاهلية؟ هذا هو السؤال.

لستُ راقصة بطن

راقصة البطن الجميلة وحدها هي التي تملك القدرة على انتزاع حُبّ الناس جميعاً من أقصى اليسار إلى اليمين، وحين كانت كلُّ القوى الأدبية والسِّياسيَّة تتظاهر بحُبِّي، كنتُ خائفاً من هذه المظاهرة. وكانت متطلَّبات الاستمرار في هذه اللعبة تدفع المشتركين فيها إلى سَلْخي عن انتماءاتي حتَّى جئتُ وقصمتُ ظهور الكَذَبَة الذين يصرخون الآن، ويطالبون برأسي علانية! لأنهم اكتشفوا أنني لستُ راقصة بطن.

ولستُ أسطورة

ولستُ قادراً على فَهْم لماذا لا يزال البعض منا مُصرّاً على الإحساس بالحاجة إلى أساطير. إننى أعتزُّ بالمعاني التي أرمز إليها. أعتزُّ بالقضية التي أحملها. أعتزُّ بحُبِّ الناس الشرفاء، وعطفهم على قضيَّتي، ولكنَّ معاملتي كأسطورة تُجرِّد قضيَّتي من جوهرها وحقيقتها، وتُحوِّلها إلى حالة فَرْديّة، وإلى بطولة فَرْدِيَّة. ولستُ بطلاً كما يظنُّ البعض، لأن اعتبار نشاطي بطولة هو امتهان للمسؤوليات العملية والممارسة الحقيقية التي تتطلَّبها معركتنا. لستُ أكثر من مفرد واحد في شعب يقاوِم الذَّبْح، الأبطال الحقيقيُّون هم الذين يموتون، لا الذين يكتبون عن الموت. والبطولة الحقيقية هي الممارسة الصامتة، لا كتابة الأناشيد، وإني لا أحاول إلغاء دَوْر الشعراء هنا، لكنني أحاول القول إنهم ليسوا بديلاً لسواهم.

ولستُ المسيح

ولا أفهم لماذا لا يزال البعض منَّا بحاجة إلى الارتزاق من جراح المسيح

هل أصبحْنا كَهَنَة؟ تصوَّروا أيَّة كارثة تحلُّ بنا لو رأينا المسيح يترجَّل عن صليبه، ويأتي إلينا! هل نصبح عندها بدون قضية؟! ألسنا قادرين على الإيمان إلَّا إذا كان المسيح معلَّقاً على خشبته؟ إن مَنْ يطالب الآخرين بامتطاء الصليب، لا لشيء إلَّا ليقول إن له قضية، ولكي يتفرَّج من بعيد على الجراح النازفة، لا يحقُّ له أن يدَّعي الإيمان بشيء.

وهل تخلَّيتُ عن صليبي؟! وهل الشعب الفلسطيني الذي يعيش بعيداً عن الجليل تخلَّى عن صليبه؟! هنا يُطرح السؤال الذي طال حوله الجَدَل: وطن القضية .. أين هو؟ إن فلسطين هي وطني، وهي قضيتي. وحضورنا فيها هو حضور تاريخي. بهذا المعنى ننظر إلى غيابنا عنها كشكل من أشكال الحضور. ونحن نحمل دَمَنَا إلى العالم للبرهنة على هذا الحضور، لكنْ، لماذا لا نواجه الحقائق الآنية، كما هي؟

لماذا نتكلَّم بلهجة الحاضر داخل الحضور؟ أين يقيم الشعب الفلسطيني؟ وأين يخوض معركته؟ ومن أين يأتي الخلاص؟ لماذا حين تحاكمونني تنسون أنكم تدعون بتحرير الوطن المحتلِّ والوطن العربي كلّه، وربَّما الكرة الأرضية، وأنتُم في الخارج؟ إن الداخل الحقيقي والأقوى والقادر تاريخيّاً هو الذي يعمل في الخارج. هذه هي ظروف معركتنا.

والخارج، في مثل الحالة التي نتحدَّث عنها، هو الذي يلعب الدَّوْر الرَّئيسيَّ والأساسي لتغيير الواقع في الداخل، ولإعادة الحضور.

هل من عربي عاقل يقول إن العرب المقيمين داخل إسرائيل مكلَّفون بحلِّ قضية فلسطين؟

وهل من عربيٍّ يملك ذرَّة في المنطق والحساب الموضوعي قادر على مطالبة العربي المقيم في إسرائيل بإعلان حضوره المطلق في فلسطين وإلغاء حضور الآخرين؟ إن الذين حاكموني حين كنتُ أعمل ضمن القانون

الإسرائيلي، لأنني لم ألغ حضور الغير، هم أنفسهم الذين يحاكمونني عند[...] برهنتُ لهم على أن رَفْضي للآخرين يتطلّب رَفْضي لحضوري أنا، على الرَّغْم من أنني أُقنعُ نفسي بأن هذا الرَّفْضَ مُؤقّت، وإذا كنتُم تقولون إن العمل الحقيقي الوحيد هو العمل في الداخل، فلماذا لا تقومون بهذا العمل؟ ومَنْ يطالبني- باسم الكفاح الوطني - بالعودة إلى إسرائيل حتى إلى السجن، لماذا لا يقوم بهذه المهمّة؟

يبقى السؤال معلّقاً: أيّهما يحتلُّ المرتبة الأولى من الأهمّيّة الآن: وط[...] القضية .. أم قضية الوطن؟ وقد يبدو السؤال تلاعباً بالألفاظ أو الأفكا[...] إذا ألححْنا على عدم الاعتراف بأننا مشرّدون. مأساة الشعب الفلسطين[...] في أنه أصبح بدون وطن. بقي الشعب، وضاع الوطن، والشعب يس[...] الآن لاسترداد وطنه، لكنه لا يمارس عملية استرجاع وطنه من موقع ه[...] الوطن، لأنه مُحتَلٌّ.

إنه يمارس نشاطه من مواقع الوطن الأردنيّ والسُّوريّ واللُّبنا[...] والمصريّ، وبهذا المفهوم يصبح وطن المعركة الأوسع هو الوطن العرب[...] ومعركة الوطن العربي - بالمفهوم الفلسطيني - هي فلسطين.

وقد يعترضُني سؤال: ما معنى حضور العرب داخل إسرائيل؟ و[...] تطالبهم بالرحيل؟

لقد مللتُ القول؛ إني أنظر إلى رحيلي عن وطني كقضية شخص[...] وإنني أحيّي وأُهنّئ كلّ مَنْ يستطيع البقاء هناك. أمّا أنا، فلم أعد قا[...] على الاستمرار في البقاء، وقد شرحتُ هذه المسألة بتفصيل ووض[...] في بياني الصّحفيّ. ولكنْ، من المناسب القول هنا: إن الحضور العر[...] في إسرائيل الآن هو حضور معنوي أكثر من كونه حضوراً عملياً. إن [...] شيء يجري في إسرائيل دون أن يملك العرب إمكانية الاعتراض الفا[...] عليه. وذلك شيء مفهوم ومبرّر، فلا يمكن مطالبة أقلّيّة قومية مسح[...]

بتحقيق ما عجزتْ عنه أُمّة كاملة، وقُدرة العرب في إسرائيل على الفعل مرتبطة ومشروطة بقُدرة الشعوب العربية على هذا الفعل. هل أنا يائس من إمكانية التغيير الدّاخليّ في إسرائيل؟ نعم. أنا يائس في قُدرة العرب في إسرائيل المتحالفين مع القوى اليهودية التّقدُّميّة على إجراء أيّ تغيير جوهري في الداخل طالما لم تُوفِّر الظروف العربية الخارجية قاعدة ماديّة لهذه الإمكانية المعقّدة.

وهل أنا يائس من قُدرة المقاومة الفلسطينية على توفير هذه الإمكانية؟ لستُ متفائلاً من قدرة المقاومة الفلسطينية وحدها على إعطاء الحلّ الحاسم لقضية فلسطين. وهل يعني ذلك أنني مخدوع بالرّقْم العربي الكبير .. مائة مليون نسمة؟ ليس الرّقْم هو الذي يبعث الأمل أو الخداع، ولكن الطاقات الماديّة الضخمة هي التي تجنح بالمرء إلى التفاؤل، لكنه نمط من أنماط التفاؤل التّاريخيّ، لا الآني.

أمّا على مستوى التفاؤل الحاضر، فلا يمكن بناء أيّة حسابات جادّة إلّا على قلّة من الدول العربية ذات الإمكانية والرغبة في العمل، وفي مقدّمتها القاهرة. ويمكننا القول إن أحد مقاييس الوطنية الحقيقية هو الموقف الذي يتّخذه المواطن العربي من القاهرة، وفي هذه الظروف بالذات، إن الحرب التي تخوضها الجمهورية العربية ليست حرباً كلامية أو نوعاً من أنواع المزاج الثّوريّ.

وأنا أعرف، أن اختياري الإقامة في القاهرة هو من الأسباب الأساسية التي حرّكت الحملة العنيفة عليّ.

إني أرث الأحقاد القديمة والقادمة على القاهرة، ولقد شَعَرْتُ بالحاجة إلى دمي - لا جِلْدي - في هزّة الحُبّ التي اجتاحتْني وأنا فوق الغيوم .. في الطائرة القادمة من بيروت إلى القاهرة، وأنا أقرأ موسوعة التحريض عليّ، والمطالبة برأسي.

وإذا كان مثيرو هذه العاصفة التي أطللتُ عليها، وأنا فوق الغيو
يشعرون بمثل هذه الحاجة إلى مثل هذا العنف في الهجوم عليَّ، فا
ذلك يعني بالنسبة لي أشياء عزيزة وحميمة، إنه يعكس مدى الحُبِّ الذ
يُكنُّه الناس الشرفاء لي ولقضيَّتي، ويعني أن هذا الحُبَّ راسخ إلى در
تستدعي هبوب العواصف. إني أشعر بسعادة لا تُوصَف، وأحسُّ بر
كاسحة للاستمرار في كتابة الشِّعْر الذي يُبهِجُني أنني أحد الذين
إليه اعتباره.

ولكنْ، هل أنا أقدر على كتابة الشِّعْر خارج إسرائيل؟

هذا سؤال مطروح بطريقة مُشبَعة بالشَّكِّ والحماقة.

دليل الشَّكِّ - هو الرأي السائد القائل إن شِعْري استمدَّ قيمته الأسا
من المكان الذي كُتِبَ فيه .. في إسرائيل من حقِّي، أن أطالب النا
باعتباري شاعراً قبل أيَّة صفة أخرى. صحيح أنني أطير بجناحَيْن: الش
والقضية. ولكنْ، يجب أن يتوفَّر أوَّلاً جناح الشِّعْر، لكي أكون شاعر قض
وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يُفسَّر السقوط المرتقب لجناح الشِّعْر؟ ه
الغيورون على الشِّعْر يضعون أنفسهم في مأزق: إمَّا أنهم كانوا يكذ
على أنفسهم وعلى قُرَّائهم عندما تغنَّوا بشاعريَّتي، وإمَّا أنهم عارضو أز
يتمتَّعون بحسٍّ تجاري، يفوق حسَّهم الأدبي.

يبقى جناح القضية .. إني لا أضع جناح الشِّعْر في مبارزة طائشة
جناح القضية، فكلاهما لي، وكلاهما يكمل الآخر. ولكن السؤال المطر
الآن هو: هل سَقَطَ جناح القضية؟ هؤلاء الغيورون على القضية لا يتوقع
سقوطها منِّي، فهم يعرفون جيِّداً أنها تسكن خلايا جسدي وفكري وحوا
ولكنهم يريدون أن يروها مصرعها. ومرَّة أخرى يضعون أنفسهم في ما
إمَّا أنهم بدون قضية، بدليل وجودهم خارج إسرائيل، لأن القضية -
رأيهم - لا تكون إلَّا هناك، وإمَّا أنهم عارضو أزياء يتمتَّعون بحسٍّ تجا

يفوق حسّهم الوطني ودليل الحماقة - هو أن يتبنّى بعض الناس فلسفة الجغرافيا في تقييم الشِّعْر والقضية، وأن يحصروا الجغرافيا - في مثل هذه الحالة - على المستوى التالي داخل إسرائيل أم خارج إسرائيل.

إذا كان هذا التقييم النادر صالحاً لأن يكون معياراً، فإننا مطالبون بالسير مع المنطق حتّى النهاية الجارحة، وهي أن نصرّح بأننا مَدينون لإسرائيل، لا لأنها تظلمنا .. ولكنْ، لأنها توفّر لنا ظروف الكشف عن مواهبنا. وإذا كان الأمر كذلك، ينبغي لنا أن نصل إلى النهاية الثانية الجارحة، وهي: أن الشِّعْر لا يكون إلّا في إسرائيل، وما هو خارجها ليس شِعْراً.

وإذا كان البعض يعتقد أن الشِّعْر مرادف لاضطهاد المباشر، وليس إلّا تعبيراً عن تعرُّض الشاعر نفسه للاضطهاد - وليس مهمّاً أن يكون شعبه مُضطَهَداً - فلماذا لا يُعرِّض الشعراء والكُتّاب العرب أنفسهم للاضطهاد؟! أقترح عليكم حلاًّ واحداً، هو أن تُناضِلُوا. فليست ساحة النضال في إسرائيل وحدها. وليس العالم العربي خالياً من القضايا التي تستدعي النضال، وأنتم تعرفون أن إسرائيل لا تحاصرنا من الخارج. إنها تحاصرنا من داخلنا. كونوا مناضلين في بلادكم، يا مَنْ يبنون قلاع البطولة بشَتْم إسرائيل وتهديدها بالموت، أو اذهبوا إلى إسرائيل. لنُكرِّس بطولتكم، وتتخلَّص من إسرائيل، اقصفُوها بالشعارات ذات المائة طن! ولكن الشعوب العربية صارت تدرك كلَّ الإدراك أن الموقف الكلامي من إسرائيل غير صالح لأن يكون دائماً مقياساً صحيحاً للثَّوريَّة والوطنية. نحن نعرف من أيّة آبار نفط تأخذ الطائرات الإسرائيلية وقودها.

إن الذين أعطوا شبابهم لقضيَّتهم وهُم على الصليب الإسرائيلي، لا يتخلّون عنها بمجرَّد تغيير بقعة جغرافية، والانتقال إلى موقع أغنى بالحركة والإمكانيات. جئتُ أبحث عن شعبي، وعن المكان الأفضل لخدمة قضيَّتي. إن الخروج من السجن ليس خيانة، وإلّا فكلُّكم خوَنَة، لأنكم خارج السجون.

ومَنْ يشكُّ بإمكانية العمل خارج إسرائيل يشكُّ بكلّ المقاومة الفلسطينية، وهي تأخذ مواقعها خارج إسرائيل، ويشكُّ بكلّ الجهود العربية المبذولة من أجل القضية. ولقد تغيّرتْ صورةُ شعبي ومهامُّه. إنه يأخذ طريقه في الانتقال من صيغة اللاّجئين إلى صيغة المقاتلين. ومن حقّي أن أرادف هذا الانتقال.

هذا جناح الشِّعْر ..

وهذا جناح القضية ..

وتبقى الأخلاق: مَنْ يشتمني لأنه رآني في مقهى أو في بار، يشهد على نفسه أنه كان شريكي أو زميلي في هذه الجريمة، وإذا كان دخول البار عاراً، فإنه قد سَبَقَني إلى هذا العار، وإذا كان دخول البار منافياً للثّوريّة وفلسطين، فلماذا يُحاورُني من زاوية الغَيْرة على الثّوريّة وعلى فلسطين؟

وبودّي أن أعترف بأنني كنتُ أدخل المقاهي والبارات عندما كنتُ مقيماً في إسرائيل، وعندما جَعَلَتْ منّي أسطورة تتسلُّون بها في أوقات فراغكم النادرة.

ومَنْ يهاجمني لأنني أقيم في القاهرة، في حَيٍّ هادئ، وفي شُقَّة جميلة، يجب عليه أوّلاً - إذا كان يؤمن بأن الثّوريَّة تتنافى مع الإقامة في القاهرة، في حَيٍّ هادئ، وفي شُقَّة جميلة - يجب عليه أن يرحل عن هذه الأمكنة المنافية للثّوريّة ولفلسطين، لكي يملك حقّ الكلام.

ومَنْ يربط بين الثّوريّة والإخلاص لفلسطين وبين مكان السّكَن ودرجة لمعان الحذاء وأناقة الملابس، يعترف بأنه عديم الفكر، وبأن منابعه الفكرية ذات علاقة جَدَليّة بالأحذية. تنتهي ثوريّته عندما يُلمّع حذاءه، ويحصل على امرأة دافئة، ويفيض ثوريّة وحُبّاً لفلسطين عندما يشعر بالجوع الجنسي.

ومَنْ يلومني على أنني لم أظهر بطولة جماهيرنا العربية المقيمة في إسرائيل، وعلى أنني لم أتحدَّث عن الاضطهاد اللاَّحق بزملائي، يجب أن يكون أكثر أصالة .. ويجب أن يملك المقدرة على التكفير، وعليه ألّا ينسخ كلماتي.

ومَنْ يقول إن عندي عقدة الاضطهاد، يوحي بأن اضطهادي وَهْمِيٌّ، ويتوصَّل - بغباء لا حَدَّ له - إلى الدفاع عن إسرائيل، وتبرئتها من اضطهادي.

وبعد، فإنني لا أتكلَّم من موقع الدفاع عن النَّفْس، فلستُ مُتَّهماً إلّا بالصِّدْق والصفاء. إني أدافع عن حقّي في الصمت مرَّة أخرى، فالصمت حين يكثر اللَّغْوُ يصبح نبيلاً ومقنعاً كبلادي التي قيل باسمها كلام كثير. وسيقال كلام كثير، ولكنها هي الحقيقة الوحيدة وسط ركام الكلمات، إن الذين ينهشون لحم بلادي هم الذين ينهشون لحمي، وهم الذين يحاولون عرقلة الخُطى العائدة، ولكن المسيرة أقوى والحقيقة أكثر سطوعاً وتوهُّجاً من قنابل الغبار المسيلة للقَرَف.

قبل أن أُقفل باب الكلام عن العاصفة الرَّمليَّة التي رأيتُها وأنا فوق الغيوم .. في الطائرة القادمة من بيروت إلى القاهرة، أسألُكم: هل تسمحون لي بالزواج أم أن الزواج يتنافى مع المهامِّ الثَّوريَّة وتحرير فلسطين؟

نُشر بمجلَّة المصوَّر في أبريل / نيسان 1971

مقالات محمود درويش حول موضوع الصراع العربي الإسرائيلي المنشورة بصحيفة الأهرام خلال إقامته بمصر (1971-1973)

(1)
غَزَّة كلّ يوم

غَزَّة لا تُواصل انفجارها اليومي، لنقول لها شكراً!

وغَزَّة لا تُواصِل انقضاضها اليومي على الموت، لكي نكتب عنها قصيدة.

وغَزَّة لا تجد متّسعاً من الوقت، لكي تقرأ تحيّاتنا

ولا بريد إلى غَزّة، لأنها مُحاصَرَة بالأمل والأعداء

ورَغْمَ ذلك، نقف اليوم، وكلّ يوم، لكي نصلّي لاسمها النادر بين الأسماء.

ليس صحيحاً قول الإسرائيليّيْن إنهم عاشوا أشدَّ الليالي سواداً في غَزَّة ليلة أمس الأوّل. كلُّ لياليهم وأيَّامهم هناك سوداء، لأن جسد المقاومة في غَزَّة ما زال ينبض حرائق مرادفة لحضور المحتلّ فينا. لكن الغزاة المسلّحين بالبنادق والأساطير تصوَّروا، على ما يبدو، أن استشهاد قائد قوّات التحرير الشّعبيّة زياد الحسيني[120]، في الأسبوع الماضي، قد يضفي سواد أيّامهم

---

120) زياد الحسيني (قائد قوّات التحرير الشّعبيّة لتحرير فلسطين) وُلد زياد سنة 1943 في مدينة غزّة، والتحق بالكلّيّة العسكرية للضّباط الاحتياط سنة 1964 في القاهرة، وتخرّج برتبة ملازم ثان سنة 1966، والتحق بجيش التحرير الفلسطيني قوّات عين جالوت في القطاع، واشترك في عمليات الخامس من يونيه /حزيران عام 1967 في رفح، كما التحق بقوّات التحرير الشّعبيّة في القطاع. وبعد حرب 1967 بدأ بتشكيل الخلايا السّرّيّة وتنظيم القوّات وتدريبها في غزّة، وفي مطلع 1969 تولّى منصب قائد قوّات التحرير الشّعبيّة في القطاع وشمال سيناء. وقال عنه موشي ديان وزير الحربية السابق في مذكّراته "كنتُ أحكم غزّة في النهار والميجر زياد الحسيني في الليل".

وتمّ تسليمه بالخيانة؛ حيثُ قُدّم له منوّم في مشروب العصير، ونُقل ليلاً من قبل الموساد

ولياليهم في غَزَّة بعض النور والهدوء، وقد يدفع أهالي غَزَّة إلى صراعا
داخلية، بسبب الظروف الغامضة لموت البطل، فالغزاة لا يعرفون طبيعة
العرب الحقيقية حين يُودِّعون شهداءهم. وقد فَاجَأتْهم غَزَّة - وهي ينبو
المفآجات - بأنها سرعان ما ودَّعت بطلها الشَّابَّ، وعادت إلى ممار
إعلان جدارتها بالحياة والشرف والكرامة. لأنها تعرف أن هذه القِيَم تتحوَّ
إلى كلمات يابسة، في ظلِّ الخضوع للاحتلال. ومقاومة الاحتلال هي
الضمانة الوحيدة لصيانة ما عداها من قِيَم.

إن غَزَّة تُحرِّر نفسها وتاريخها كلّ ساعة، وتصون قِيَمَها بالاقتراب الشدي
.. بالالتصاق .. بالالتحام بالموت.

لم تعد غَزَّة مدينة.

إنها ساحة حرب مشتعلة، تمتحن فيها انتصارات العدوِّ وآماله وقِيَمه.

ليس بوسع العدوِّ أن يقول إنه انتصر على غَزَّة، فالاحتلال ليس هو
النصر النِّهائيُّ. إرادة غَزَّة باقية في التماع الحقِّ والدم.

وهي المنتصرة.

وليس بوسع العدوِّ أن يطمئنَّ إلى آماله، فالأمر الواقع الذي يسعى إلى
خَلْقه هناك على خرافة الزمن يصطدم بسخرية الزمن، وبتفتُّت آمال الغزاة
في أزقة غَزَّة وأجساد أبنائها.

وليس بوسع العدوِّ أن يتباهى بقِيَمه. إنها تتبلور في صيغتها الحقيقية
الوحيدة، الجريمة.

إلى منزل رشاد الشَّوَّا، وتمَّ وَضْعُهُ في القبو، ورَبْطُهُ بالحبال. وزعمت إسرائيل انتحاره في
1971/11/21 بعد إخفاق مفاوضات تسليمه. وقامت جميع الفصائل الفلسطينية بنَفْي خبر
انتحاره، وتأكيد نبأ اغتياله على يد الغدر والخيانة. كانت قصَّة الانتحار ملفَّقة من قِبَل الموساد
لقَتْل النضال الفلسطيني، وتحطيم الرمز النِّضاليِّ للشعب الفلسطيني. وحَصَلَ الشهيد على
عدَّة أوسمة، ومُنح نوط الفداء سنة 1968 ووسام الواجب العامّ في عام 1969 كما أقام الزعيم
الفلسطيني ياسر عرفات (أبو عمَّار) حفل تأبين له أوَّل وصوله إلى قطاع غَزَّة عام 1995.

الاهرام - ٣/١٢/٧١ - ٥

ار مجلس الأمن

• مائير تصل الى امريكا •

غزة كل يوم

غزة لا تواصل انتحارها اليومي ، لنقول لها : شكراً !
وغزة لا تواصل انتفاضتها اليومي على الموت الذي تكتب عليها الصيدا •
وغزة لا تعد شيئاً من الوقت لكي غزة تحياتنا •
ولا يريد الى غزة لانها محاصرة بالقتل والاعداء ! •

...

لم تعد غزة مدينة •

...

يأتي يوم ·· يأتي يوم لا تكون فيه غزة اسماً نادراً بين الاسماء • كل المدن المحتلة تتحول فيها الحجارة الى احلام ، والاحلام الى حجارة •
شكراً يا غزة
وتحية يا غزة !

محمود درويش

اجتماعيات

الخطبة

برنامج رقم ٧١/١١
الجمعية العربية للتكاليف
الحادي عشر لعام ١٩٧٢
محاسبة التكاليف لغير التجاريين

لم تعد غَزَّة مدينة.

صارت رمزاً لطاقات العرب، وصارت لافتة للمستقبل.

وغَزَّة التي يصفها العدوُّ دائماً بالكابوس في تاريخه الأسود، هي طيف الأمل الأبيض للعرب.. هي النقطة النُّورانيَّة التي تتَّسع وتتَّسع في دائرة متوهِّجة، تُشعل قلوب العرب المحتلِّين وآمالهم.

ليست غَزَّة كفَّارة ذنوب، كما يقول البعض، ولكنها نموذج عمل، وإعلان إرادة ..

يأتي يوم .. يأتي يوم لا تكون فيه غَزَّة اسماً نادراً بين الأسماء.

كلُّ المُدُن المحتلَّة تتحوَّل فيها الحجارة إلى أحلام، والأحلام إلى حجارة.

شكراً، يا غَزَّة .. شكراً، يا غَزَّة.

الأهرام 1971/12/3

(2)
صورة إسرائيلية بالأبيض والأسود

كان حادث زواج معقَّد مناسبة لطَرْح أخطر سؤال فكري وقانوني، واجه المجتمع الإسرائيلي في تاريخه، وهو: مَنْ هو اليهودي؟

ووسط مجموعة كبيرة من علامات الدهشة، وجدَتْ أعلى هيئة قضائية إسرائيلية نفسها قبل نحو ثلاثة أعوام، مضطرّة إلى إيجاد صيغة ما للإجابة عن هذا السؤال المدهش الذي لم تستطع "دولة اليهود" طرْحه قبل ذلك، بينما هي لا تكفُّ عن دعوة يهود العالم للهجرة إلى إسرائيل، على اعتبار أنها دولة كلّ اليهود، دون أن تحدِّد صياغة معقولة لتعريف اليهودي.

ويبدو أن هذا السؤال ليس سهلاً إلى الحدّ الذي يمكن تجاوُزه. والركون إلى قرار محكمة تبتُّ فيه، وسيطرح نفسه في مناسبات عديدة أخرى ما دامت الفلسفة الإسرائيلية مُصرَّة على عدم الاكتفاء بصيغة "الإسرائيلي" وتَرْكها مرنة، بحيث تستوعب كلَّ يهودي، وما دامت مُصرَّة على الإيمان بأن الدِّيْن اليهودي هو القومية اليهودية.

والآن، نرى أن العقلية الإسرائيلية قد وَجَدَتْ نفسها عاجزة عن تحقيق الانسجام بين السياسة وبين مفاجآت الواقع، وبين ما تدعو إليه اليهود وما يُفاجئها به بعض اليهود. ففي أوج الدعوة الإسرائيلية للهجرة اليهودية إلى إسرائيل لاستكمال عملية "البعث التَّاريخيّ" للأُمَّة اليهودية "في أرض أجدادها"، ومَنْح الجنسية الإسرائيلية الأوتوماتيكية لكلِّ يهودي يدخل المياه أو الأجواء الإقليمية الإسرائيلية، في هذا الوقت بالذات .. وَجَدَتْ نفسها

٤ - الأهرام - ٧٢/١/٢٨

صـــورة اسرائيليـــة

الأبيض

كتاب جديد

العالم كما يراه فالدهايم

الاتجاه بين الدول الكبرى نحو الأزمات خارج الأمم المتحدة

معرض الكتاب الدولي

تتنصَّل من بعض اليهود، وتطردهم، وتُعرِّض نفسها لتهمة العنصرية العربية، تبحث عن الصفات المشتركة بينها وبين روديسيا.

ولستُ أشير هنا إلى انفجار الصراع الاجتماعي الذي أخذ شكل احتدام التناقض بين اليهود الشَّرقيِّيْن الفقراء وبين اليهود الغربيِّيْن الأغنياء.

هذه المرَّة يدور الصراع بين اليهودي الأبيض وبين اليهودي الأسود.

فماذا حَدَثَ؟

لنقرأ، أوَّلاً، هذه الرسالة التي كَتَبَهَا إسرائيلي أبيض، ونَشَرَتْها المجلَّة الإسرائيلية "همولام هزيه" {20|10|1971}:

"قرأتُ برضا بالغ، عن الحملة الواسعة التي تقرَّر القيام بها، لإبعاد

السود عن أرضنا وشعبنا، بعدما تمكّنوا من التّسلُّل إلى الداخل تحـ أقنعة السُّيّاح، ويدّعون بثقة شديدة بأنهم ينتمون إلينا، ومساوون للشعـ اليهودي، إلى درجة أنهم يجرؤون على القول إنهم يؤمنون بديننا - دي موسى" "بعد أن صَدَرَ الأمر من الجهات العليا، وأطلق التليفزيون الطاا الأولى، بدأت العجلات تتحرّك، كلّ الاحترام".

"لقد اهتزَّ بدني أنا أيضاً عندما اتّضح لي أن هؤلاء الزنوج يجرؤو على إلقاء القاذورات في شوارع ديمونة، ويجرؤون على إنجاب الأطفاا بهذه الكثرة، وأن هؤلاء الأولاد السود يجرؤون، أيضاً، على اللعب وإحدا الشَّغَب والضوضاء حول المنازل السَّكَنِيَّة التي يقيمون فيها حتَّى بيـ الساعة الثانية والرابعة بعد الظُّهر. إن النوازع غير المهذَّبة وعديمة التربيا لهؤلاء الزنوج قد تجاوزت كلَّ حدود".

"والآن، أدرك جيِّداً السياسة الحكيمة التي تتبعها حكومات صديقا مثل جنوب إفريقيا".

"وإنني أقترح بأن يُقام فوراً معسكر انتقالي لزنوج ديمونة في مكان منعزل، وذلك لكي لا يجري أيُّ اتِّصال آخر بين هذه المخلوقات المنحطّا وبين اليهود الطاهرين. إن لهم مكاناً آخر، حتَّى نتمكَّن من الاعتراف بهم بصورة قانونية ومُنظَّمة. هذا المكان هو، خارج البلاد".

"يجب أن تعود ديمونة، مرَّة أخرى، مدينة هادئة، طاهرة، ولطيفة مثلما كانت حتَّى وصول هذه الشعوب السوداء المنحطَّة".

"وأعتقد أنه من الضَّروريِّ أن يقام معسكرهم على مقربة من أحد السجون، لكي نتمكّن من إرسال هؤلاء المذنبين السود في المعسكر إلى السجن مباشرة.

وقد يعترضون على ذلك، لأننا ندافع عنهم - طالما هم ضيوفنا - من اليهود الطَّيِّبين الذين يرغبون في تطهير أرضنا من هذا الخطر الزِّنجيِّ".

"ينبغي لنا أن نعزلهم على عجل، وأن نُضعِف من زيادتهم الطَّبيعيَّة. ولهذا من الحُلْم أيضاً ألَّا نسمح لسُيَّاح زنوج آخرين بمغادرة المطار متوجِّهين إلى أرضنا الطاهرة. ويجب أن نرسل هذه المخلوقات الغريبة فوراً إلى الطائرة التي حَمَلَتْهُم إلينا".

فمَنْ هم هؤلاء اليهود السود؟

في أغسطس عام 1969 هبطَتْ في مطار اللّدّ طائرة قادمة من ليبيريا، تحمل ثماني عائلات من الزنوج، قالوا إنهم من أحفاد سليمان. وكان هؤلاء الزنوج يحملون جوازات سَفَر أمريكية، وقد نُقلوا إلى مدينة ديمونة الواقعة في الجنوب. وبعد ذلك تدفّق سيل من الزنوج اليهود، بلغ عددهم حوالي ألف شخص، وكان هؤلاء يدخلون إسرائيل، بصفتهم سُيَّاحاً، لأن وزارة الدّاخليّة ووزارة الاستيعاب رفضت اعتبارهم مهاجرين، وتشير الصُّحُف الإسرائيلية إلى الحَرَج الشديد الذي أصاب المسؤولين الإسرائيليّيْن من جرّاء تدفُّق الجلود السوداء إلى البلاد الطاهرة.

وكَتَبَتْ صحيفة "معاريف" [9|10|71] متوقِّعة تعرُّض إسرائيل إلى حملات نَقْد مُنتظَرَة حول علاقتها بالزنوج، وكَتَبَتْ: "إن الدعاية العربية سوف تقطف ثماراً ناضجة، وذلك عندما تقوم إسرائيل في إفريقيا، باعتبارها دولة بيضاء أوروبية، تسير مع العالم الأبيض الذي يستغلّ السود، وتقوم إسرائيل في الولايات المتَّحدة الأمريكية، باعتبارها دولة قَمْع. وأضافت الصحيفة: "إذا كان الزنوج الذين يسكنون إسرائيل يُسمُّونها روديسيا أو جنوب إفريقيا، فإن لكلامهم هذا أصداء أكثر تصديقاً في أقوال العرب".

ولكن الصُّحُف الإسرائيلية لم تكشف النّقاب عن الأسباب الحقيقة لرَفْض إسرائيل لهؤلاء المهاجرين السود، وشنَّت حملة واسعة ومركَّزة لإيهام الرأي العامّ الإسرائيلي والعالمي بأن الأسباب لا تكمن في الجانب الإسرائيلي، وإنما تعود إلى كلِّ الزنوج وقذارتهم واستهتارهم بالقانون.

وتسبَّب انفجار الأزمة إلى حادثة السوبر ماركت. وتقول الرواية الإسرائيا عن هذا الحادث: دعا الزنوج المراسلين، ودخل حوالي ثلاثين شخصاً منهم إلى "السوبر ماركت"، وملؤوا سلالهم بما يحتاجونه من الموادّ الغذا وفي الخارج، وقف قسم منهم، وعاكس النساء.

وحينما فرغ الزنوج من الحصول على ما يحتاجونه من الطعام، أعا للموظَّف ببساطة تامَّة أنه ليس في نيَّتهم أن يدفعوا شيئاً، وعلى اله استدعى رجال الشرطة. ولكن الزنوج أطاعوا الأوامر، وأعادوا الموادّ ال الدُّكّان!

ووُجِّهَت إليهم الصُّحُف الإسرائيلية تهماً أخرى، مثل السرقة وإحدا الضوضاء والمشاجرات والرَّقْص والغناء، أمَّا هم، فيقولون: "هذه أر وأرض آبائنا". ولقد كان الإسرائيليون الأصليُّون ذوي لون أسود. إننا قطعة أرض، لنعبد الله عليها، ونريد شيئاً من المعرفة. وإذا لم تعط الأرض، فسوف تقع نكبات ومصائب. وأنتم، أيُّها اليهود البيض تصر في العالم: اسمحوا لليهود بالهجرة إلى إسرائيل، ونحن هنا نصرخ أعطونا قطعة أرض".

ويقولون عن أصلهم التَّاريخيِّ: "نحن عبرانيون إسرائيليون. نؤمن ب أحفاد إبراهيم وإسحق ويعقوب. إنكم تُسمُّون أنفسكم يهوداً، لأنكم من ا سبط يهوذا، بينما نحن واثقون من أن أصلنا من أسباط إسرائيل، لذا هذه هي أرضنا، وليس من الضَّروريّ أن نكون يهوداً، إننا أكثر إسرائيلية يهود كثيرين هاجروا إلى هنا، وحَصَلُوا على كلِّ شيء من الحكومة. ور أحدهم طريقة معيشتهم في مدينة ديمونة: "كلُّ واحد منَّا يسكن الم الذي وَجَدَ فيه ملجأ. البعض في شُقَّة الآخرين، والبعض في دورات المبا والبعض في المستنقعات، والبعض في المخابئ، وفي كلِّ مكان يمكن يُوضَع فيه بعض القشِّ.

وأضاف: يجب أن يعرف العالم كلّه ماذا يجري هنا، وإذا لم تُلَبِّ الحكومة مطالبنا، فلن يكون هناك سلام.

إن ملايين من العبريِّينْ في كلِّ أنحاء العالم سوف يصلون إلى البلاد للمطالبة بحقِّهم فيها.

ويشكو السود من الضياع "في وطن آبائهم"، ومن سوء معاملة إخوانهم البيض، ومن إهمال الحكومة الإسرائيلية لهم. ويشكون من أن السلطات لا تعترف بأطفالهم الذين وُلدوا في إسرائيل، ولا تمنحهم شهادات ميلاد، وكان ردُّ رئيس البلدية على هذه الشكوى مكالمة تليفونية مع وزير الدّاخليّة يسأله: لماذا تسمحون لمزيد من الزنوج من هذه الطائفة بالمجيء إلى إسرائيل "معاريف"؟

وكان ردُّ الوزير: "إذا أثبتوا أن في حوزتهم وسيلة معيشة وتذكرة العودة، فإنني لا أستطيع مَنْعهم في الحصول على تصريح الدخول كسُيَّاح.

والزنوج في إسرائيل لا يُحرَمُون من شهادة الميلاد فقط. ولكنّ موتاهم، أيضاً، يُحرَمون من القبر. عندما مات طفلان منهم، ثارت مشكلة القبر، إذ لم يُسمَح بدَفْنهما في المقبرة العامّة. لقد أُقيم سور حول المقبرة، ودُفنا خارج السور.

والزنوج في إسرائيل عندما يصيبهم المرض يتوجّهون إلى رئيس البلدية، ليساعدهم على دخول المستشفى، فيصرخ: لماذا كُتِبَ عليّ أن أعتنيَ بالسُّيّاح. ليذهبوا إلى وزير السياحة، ويبقوا هناك!

والزنوج وعدد أطفالهم 200 طفل في ديمونة، لا يُسمح لهم بتعليم أطفالهم في المدارس. وتقول الصُّحُف الإسرائيلية إن 50 طفلاً فقط يتعلّمون في المدرسة، والآخرون يتسكّعون في الشوارع، لأن قسم التعليم في مدينة ديمونة يرفض تسجيلهم في المدارس.

ويقول الزنوج لليهود البيض: "إنكم لن تقولوا لنا مَنْ نحن"، لقد قال لنا الرجل الأبيض في الولايات المتَّحدة مَنْ نحن". وهم يقارنون بين أوضاع الزنوج في إسرائيل، ويقولون إن الحصول على الحقوق المَدَنيَّة والكثير من الامتيازات في الولايات المتَّحدة أسهل من الحصول عليها في إسرائيل.

وهم يرفضون الخدمة في الجيش الإسرائيلي، لأنهم يريدون السلام وقالوا: "إننا لم نرجع إلى أرضنا، لكي نطلق النار، ولكي نحارب".

ولم تستطع السلطات الإسرائيلية حَصْر القضية في إطار محليّ، خصوصاً أن هؤلاء الزنوج قد أرسلوا خطابات إلى لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتَّحدة. وقد صرَّح أحد زعماء الزنوج في إسرائيل بأنه تلقى خطاباً من أحد أعضاء سكرتارية الأمم المتَّحدة يُعبِّر فيه موافقته على عرض حرمان الحكومة الإسرائيلية للعبرانيِّيْن السود من حقوقهم الإنسانية على الجمعية العامَّة على لجنة حقوق الإنسان.

ولكن وزير الدَّاخليَّة الإسرائيلي كان قد أصدر في نهاية ديسمبر الماضي أوامر بترحيل عشرات منهم، بحُجَّة انتهاء مدَّة الإقامة الممنوحة لتأشيراتهم السِّياحيَّة، ولكن الزنوج يطالبون باعتبارهم مهاجرين لا سُيَّاحاً. وإذا تمَّ فعلاً ترحيل الكثيرين منهم، وإعادتهم إلى الولايات المتَّحدة الأمريكية، وصرَّح أحدهم ويُسمَّى صاحب اللجنة الكبرى: "نحن الأمريكيِّيْن السود نسل حقيقيٌّ لإبراهيم وإسحق ويعقوب. والأمريكيون لا يريدوننا في أمريكا، ولهذا اتَّجهْنا إلى أصلنا الثَّقافيِّ الحقيقي"، ولقد ردَّ على بيان المتحدِّث باسم وزارة الدَّاخليَّة الإسرائيلية الذي قال فيه إن الجماعة المطرودة لم تكن تملك أيَّة نقود، فقال: كان معنا خمسة آلاف دولار.

وقال صاحب اللجنة: إن "اليهود عنصريُّون، وليسوا متحرِّرين، وإن الشعب اليهودي يعيش في أكذوبة، فهؤلاء هم الأوروبيون البيض".

وليس واضحاً، حتّى الآن. كيف تتصرّف الحكومة الإسرائيلية في هذه الورطة المحرجة! لقد نادت اليهود إلى الهجرة، وقالت إن إسرائيل وطنهم. وجاء إليها يهود سود، فقالت لهم: ليس هذا وطنكم. لأنهم زنوج، ولأنهم فقراء، لا يصلحون لخدمة الأهداف الإسرائيلية السّياسيّة والاقتصادية. ومن العلاقات الواضحة في كلّ الحكاية أن رَفْض الجسد للإسرائيلي لهذا الجِلْد الأسود، لم يكن رفضاً مقتصراً على الجانب الرّسْميّ فقط، ما يشير إلى مدى تغلغل الإحساس العنصري في الكيان الإسرائيلي، كما تدلُّ على ذلك الرسالة المنشورة في بداية هذا الاستعراض.

قال أحد السياسيِّيْن يوماً: "إن أمريكا إسرائيل كبيرة. وإن إسرائيل أمريكا صغيرة". وأمريكا الصُّغرى تحمل خصائص الكُبرى. لم يخطر على بال الإسرائيليِّيْن يوما أن يحلموا بهذا الشكل الصارخ، أفدح أمراض نموذجهم الأمريكي الأعلى. وكانت تكفيهم مشكلة مليون زنجي آخر مليون عربي[121]. فهل نحتاج إلى بحث طويل للقول إن إسرائيل ليست دولة اليهود، وإن الصّهيونيّة ليست حركة اليهود، وإنما هي حركة الرأسمال اليهودي في أبعاده وعلاقاته المتشابكة، السِّياسيَّة والاقتصادية؟

ومرّة أخرى، ينفجر السؤال المدهش: مَنْ هو اليهودي؟ ويضاف إليه سؤال آخر: ما حقيقة النظرة الإسرائيلية إلى الشعوب السوداء، من خلال نظرتها إلى الجِلْد الأسود حتّى لو كان منحدراً من أصل إبراهيم وإسحق ويعقوب؟! وهل يختلف دَوْر الإسرائيلي في إفريقيا اليوم عن دَوْر ذلك الرجل الذي جاء يحمل "الحضارة" إلى الشعوب النائمة؟

الأهرام 28 يناير 1972

---

121) الجملة هكذا في الأصل المنشور، والأرجح أنها: "وكانت تكفيهم مشكلة مليون زنجي، بدلا من إضافة مشكلة مليون عربي آخر.

(3)

المنفى، الاضطهاد، التوراة
الثالوث الذي يشكِّل ملامح الشَّخصيَّة اليهودية

القرار الذي اتَّخذه المؤتمر الصِّهيونيّ الأخير، بإسقاط العضوية عن كلِّ صهيونيّ لا يهاجر إلى إسرائيل بعد مضي ستَّة أعوام على عضويَّته في المؤتمر - يعتبر قراراً خطيراً وتاريخيّاً في آنٍ واحد، ويشكِّل تتويجاً لمتناقضات عميقة داخل الحركة الصِّهيونيَّة - وبداية لعلاقات من نوع جديد، تحمل الخلافات القديمة نفسها بين الحركة الصِّهيونيَّة والسلطة الإسرائيلية.

يستطيع المراقب أن يحكم من القراءة الأولى للقرار، بأن الضغط الإسرائيلي العنيف هو الذي ابتزَّ هذا القرار من أعضاء المؤتمر الصِّهيونيّ، لا لأن الحركة الصِّهيونيَّة العالمية تختلف حول ضرورة الهجرة اليهودية، وأهمِّيَّتها الحيوية في تحقيق المزيد من النجاح في الخطَّة الصِّهيونيَّة الشاملة، ولكن، لأن ثمَّة خلافات بين القادة الإسرائيليِّين وبين قادة الحركة الصِّهيونيَّة خارج إسرائيل حول طريقة معالجة هذا الموضوع البالغ الأهمِّيَّة والحيوية، وحول أشكال الأدوار الموزَّعة بين الطَّرفين، وحول العلاقة المتبادَلة بين إسرائيل وبين اليهود في المهجر، وأيّهما ينبغي أن يكرِّس في خدمة الآخر: إسرائيل أم الحركة الصِّهيونيَّة العالمية؟

ليس هذا الخلاف بجديد. إن السؤال حول أولوية القيادة والتأثير مطروح منذُ تحقيق الهدف الصِّهيونيّ التَّاريخيّ الأوَّل في سُلَّم الأهداف، وهو إنشاء دولة إسرائيل. وقد كان السؤال يرتدي قناع الحياء في السنوات البعيدة الماضية. ولكنه يتعرَّض للسفور الحادِّ دائماً بعد تعزُّز الدولة الإسرائيلية وانتصاراتها العسكرية، وبشكل خاصٍّ بعد حرب الخامس من يونيو. ولم يكن

ناحوم غولدمان هو الذي أذاع أسرار الخلافات بين قادة إسرائيل وبين قادة الحركة الصِّهيونيَّة، لأوَّل مرَّة. ولم يكن مقاله أو بيانه الشهير حول مستقبل إسرائيل بمثابة إعلان رَسْمِيٍّ عن ملامح الأزمة الحادَّة، على الرَّغْمِ من أن جذور الأزمة وعوارضها كانت تمتدُّ إلى سنين خَلَتْ.

إن غولدمان يرى أن التضامن اليهودي العالمي مع إسرائيل شرط ضروري لمستقبل إسرائيل. ويرى أن إسرائيل بسبب خططها السِّياسيَّة تخلق صعوبات بالغة لليهود الذين يعيشون في البلدان المختلفة مع إسرائيل. ولذلك فإن الدولة اليهودية التي تحتاج إلى تعاون ومساعدة اليهود من أجل بقائها يجب أن تتميّز بطابع، تستطيع معه التماس عطف الطوائف اليهودية أينما تعيش.

ويعتقد غولدمان أن إسرائيل لا تستطيع أن تقوم بالدَّوْر المركزي لليهود، وهي في حالة حرب دائمة. ويُعرب غولدمان عن اعتقاده - بأنه ما يحدث مأساة وأحداث غير متوقَّعة، كالاضطهاد الشامل لليهود في الدول الغربية، فليس من المحتمل أن تستقرَّ في إسرائيل غالبية عظمى من اليهود الذين يعيشون في الخارج.

ويعتقد بعض قادة الحركة الصِّهيونيَّة خارج إسرائيل أن المنظَّمات الصِّهيونيَّة مَدعُوَّة إلى المحافظة على التَّجمُّعات اليهودية، بعد تحقيق الحركة الصِّهيونيَّة هدفها الأسمى، وهو إقامة إسرائيل. ولكن هذا الدَّوْر لا يقف عند هذا الحَدِّ، فإقامة الدولة ليس هو آخر المطاف، وهي ما زالت بحاجة ماسَّة إلى الدَّعْم اليهودي، ولكن هذا الدَّوْر ليس بديلاً للاهتمام بمصالح يهود العالم.

أمَّا قادة إسرائيل، فإنهم يميلون إلى الاعتقاد بأن قيام الحركة الصِّهيونيَّة بتنفيذ دَوْرها التَّاريخيِّ يجعلها تابعة لخدمة أغراض الدولة بالمفهوم المباشر للفكرة. وتتجلَّى هذه الخدمة بدور أساسي وجوهري في أن تتحوَّل المُنظَّمة

إلى ما يشبه شركة مقاولات لتوريد المهاجرين اليهود والأموال ومكاتب دعاية للسياسة الإسرائيلية، وعرقلة استقرار اليهود في المهجر، والتَّخصُّص في الحرب الباردة ضدّ الدول التي تختلف مع السياسة الإسرائيلية، وافتعال القضايا اليهودية هناك، وتعزيز الانتماء المزدوج لليهودي حيثُما كان.

وباختصار، تصبح المنظَّمات الصِّهيونيَّة بمثابة سفارات تُروِّج بضائع السياسة الإسرائيلية. وتُسخِّر مصالح يهود العالم كلّه لمصالح يهود إسرائيل. وهم لا يُشكِّلون أكثر من 18 في المائة من يهود العالم.

وعلى هذا الأساس، يُعتبر قرار المؤتمر الصِّهيونيّ الأخير انتصاراً للقيادة الإسرائيلية، لأنه يُكرّس أولوية الدَّوْر الإسرائيلي والشَّخصيَّة الإسرائيلية على الدَّوْر اليهودي والشَّخصيَّة اليهودية، وفي الوقت ذاته يحمل إشارات تعميق الصراع لا تذويبه، لأنه يشكِّل تهديداً على الطراز الإسرائيلي الوقح لكلّ الصِّهيونيِّيْن في العالم، ويطعن بصِهيونيَّتهم عندما يختبر مدى ولائهم ليهوديَّتهم ولرمز الكفاح الصِّهيونيّ على محكّ الهجرة.

إن إمكانيات الضغوط اليهودية العالمية - وهي كثيرة - على سياسات الدول التي تعيش فيها الجاليات اليهودية والتأثير الإيجابي على المصالح الإسرائيلية الناجم عن ذلك - يصبح ثانوي الأهمِّيَّة أمام المطلب الإسرائيلي الأكثر إلحاحاً، وهو الهجرة، فما هي أبعاد هذه المسألة؟

وهل يتيح لنا الحقُّ العَلَنِيُّ في الحديث عمَّا كان احتمالاً وترفاً فكريّاً، وهو: الفارق بين الإسرائيلي وبين اليهودي؟

المنفى، والاضطهاد، والتوراة - هذا الثالوث هو الذي قام بالدَّوْر الجوهري في تشكيل ملامح الشَّخصيَّة اليهودية يقول غولدمان: "إن التَّحدِّيَيْن العظيمَيْن اللَّذَيْن يفسِّران معجزة البقاء اليهودي هما من ناحية: الاضطهاد المتواصل، واستحالة نسيان اليهود ليهوديَّتهم، وبالتالي

إحساسهم بالتضامن، ومن ناحية أخرى - عَظمَة العقيدة اليهودية. ويستشهد بعبارة الشاعر الألماني اليهودي (هاينرش هايني) القائلة: إن العقيدة اليهودية تشكّل وطناً متنقّلاً، يحمله معه كلُّ يهودي أينما ذهَبَ. ويقول: إن اضطهاد وإبادة ملايين اليهود على يد النّازيّين جعَلَ اليهود الأحياء أشدَّ وعياً بيهوديَّتهم.

وماذا يحدث عندما يصل الوطن المتنقّل، عبر العصور والقارّات، إلى فلسطين؟ ثمَّ .. ماذا يحدث عندما يتصرف أبناء المذبوحين وأحفادهم إلى ذبْح غيرهم، لكي يحقّقوا ذاتهم؟ هل تتغيّر شخصية اليهودي؟

إنه قادر على التذكير دائماً بماضيه التعس، وقادر على اكتساب دلال التاريخ، ولكن التاريخ مشغول بقضايا كثيرة. والشّخصيّة اليهودية التي لم يعد وطنها الرحيل تكتسب ملامح جديد .. آخذة في الاستقلال عن الشّخصيَّة اليهودية الكلاسيكية.

فهل تبلورت شخصية إسرائيلية تختلف عن الشّخصيَّة اليهودية؟

الإسرائيلي لا يريد اليهودي!

إن المؤمنين بالعقيدة الصّهيونيَّة، سواء كانوا إسرائيليّيْن أم خارج إسرائيل، اعتادوا دائماً الشّكّ بشهادة العربي، وطردها من دائرة العلم والنظرة الموضوعية. ولكن الصُّحُف الإسرائيلية ذاتها نَشرتْ في الشهور الأخيرة عدداً من رسائل المهاجرين اليهود إلى إسرائيل الذين قاموا بعملية هجرة مضادّة بعد إقامتهم في إسرائيل. لن يهمّنا في هذه الرسائل التّوقُّف عند مشاكل الحياة اليومية التي تواجه هؤلاء المهاجرين اليهود إلى إسرائيل الذين قاموا بعملية هجرة مضادّة بعد إقامتهم في إسرائيل. إنما يهمُّنا السعي نحو تجميع بعض ملامح الشّخصيَّة اليهودية الصّهيونيَّة في مواجهتها للشّخصيَّة الإسرائيلية.

.. يقول مهاجر أمريكي، هو البروفيسور روبرت غولدي في مقال نَشَرَهُ في صحيفة دافار (19 - 11 - 71) ردّاً على سؤال: لماذا يهاجر الأمريكيون. ثمَّ ينزحون؟:

ثمّةَ مسؤولية، ولو جزئية، تقع على الإسرائيليّينْ في نزوح مهاجري الولايات المتَّحدة الجماعي في السنوات الأخيرة. أنا وزوجتي نقيم في إسرائيل منذُ أكثر من سَنَتَيْن، قابلنا خلالهما مئات المهاجرين من روسيا وبولندا ورومانيا وأمريكا الجنوبية والهند وكندا وسنغافورة والولايات المتَّحدة، ونستطيع القول بصدْق، ودون مبالغة: إننا لم نقابل واحداً، يعنيه البقاء في إسرائيل.. كلُّ واحد من المهاجرين، إن لم يكن قد عاد إلى وطنه الأصليّ، فإنه يخطِّط للعودة.

أضِفْ إلى ذلك أن جميع هؤلاء الذين يرغبون في النزوح لا يُبرِّرون ذلك بمستوى المعيشة المنخفض أو بالخوف من الحرب أو الخدمة في الجيش. ولكنهم عادوا إلى أمريكا مستائين وغاضبين. وقالوا: لا نستطيع العيش مع هؤلاء الناس. ليس لأنه من الصعب التعامل معهم - فهم يميلون إلى المشاجرة، وصاخبون وعنيدون - ولكنْ، لأنهم لا يريدوننا هنا!

يتطلَّع الإسرائيلي إلى تقليد الحَيِّ الأمريكي دون توفير الراحة في هذه الأحياء. إن إنتاج قنبلة ذَرِّيَّة سهل كعملية خبز كعكة، ولكنْ، إيجاد شخص لتصليح عطل ما في البيت أمر يفوق قدرة الحرفِيِّينْ هنا. كلُّ شخص هنا خبير، إلّا أنه لا يوجد مَنْ هو على استعداد للقيام بأيِّ عمل. وتضيف السَّيِّدة المهاجرة عن العلاقات الإنسانية التي جاء يبحث عنها البروفيسور المذكور هرباً من مادِّيَّة مجتمع الاستهلاك: لقد أوجدنا ما يشبه الحَيّ الأمريكيّ - البريطاني يضمُّ نحو عشرين أسرة. وبهذه الطريقة نعيش حياة اجتماعية (معاريف 24-9-71).

(بيروقراطية، انعدام فعالية، خصوصاً انعدام اللياقة بين الناس. إن

السَّفر في الأتوبيس، أو الذهاب إلى البنك أو السوق في الصباح، أو إلى مكتب حكومي، أو البحث عن عمل، كلّ ذلك يكفي لأن يذرف الأمريكي الدموع. إن الأمريكي يتضايق من التقليد الإسرائيلي لكلِّ ما هو أمريكي دون تمييز.

ويرى فيما يُسمِّيه الإسرائيليون تقدُّماً صبيانيّاً وتخلُّفاً. وإن محاولة الانتقاد تصطدم دائماً بهذا الجوابِ: إذا كان هذا لا يعجبكَ، فبوسعكَ العودة إلى بيتكَ.

تقول السَّيِّدة الأمريكية: "إنني أجد أن الإسرائيليّيْن شرهون وكريهون وغير ودودين، ولا يسافرون إلى الخارج، لكي لا يكونوا منعزلين إلى هذا الحَدِّ، ولكي يصبحوا أكثر حكمة وأقلّ غطرسة".

ويقول البروفيسور في رسالته السابقة: "إن الأمريكي سرعان ما يندهش عندما يرى أن الإسرائيليّيْن يغشُّونه دون تردُّد في المطعم والتاكسي والمتجر، وأن المهاجر العادي يبقى بلا عمل طيلة السنة الأولى من تواجُده في الدولة. خلال هذه السنة يُنفق كلَّ مدَّخراته. ويدرك أن كثيراً من الإعلانات بشأن النَّقْص في الأيدي العاملة خادع وغير صحيح، وأنه لا يمكن العثور على عمل بلا وساطة (الكلمة الساحرة في القاموس الإسرائيلي).

خلال بحثه عن عمل، يواجه تصرُّفاً لم يتوقَّعه من قبل: الحقد، الخوف، والشَّكّ. يقولون له: عندما جئتُ قبل عشرين سنة، لم أحصل على ما حَصَلْتُم عليه. وإذا كنتُم طيِّبين إلى هذا الحَدِّ، فلماذا تركتُم أمريكا، وجئتُم إلى هنا؟"

ما هو "الكسل" الصِّهيونيّ؟

لماذا هذه المعاملة؟

الإسرائيلي العادي كسول في صِهيونيَّته، وهو لن يبذل أيَّ جهد

لمساعدة المهاجر الجديد. فهو بكلِّ بساطة لا يعنيه. ويشير بحث نُشر أخيراً إلى أن 62 في المائة من المهاجرين الجدد لم تكن لهم أيَّة علاقة بإسرائيليِّينْ خلال السنة الأولى من وجودهم في إسرائيل.

في حين وَصَلَ اليهود الأمريكيون (مثل يهود روسيا) إلى وعي بصِهيونيَّتهم. فقد وَصَلَ إسرائيليون إلى نقطة، بدؤوا يفقدون عندها صِهيونيّتهم. ويبرز هذا، وبشكل خاصٍّ، عند الإسرائيليِّينْ الشُّبّان، حيث تسمع منهم: "نحن نريدكم من أجل طاقتكم البشرية، وبالنسبة للأمريكي يبدو هذا النوع من الصِّهيونيَّة خبيثاً، ويكاد يكون عنصريّاً".

هذه الفقرة مضافة إلى فقرة أخرى قالتْها السَّيِّدة أنيتا شاغلم التي قالت عنها صحيفة معاريف: إنها تشكو من الحقد المكبوت لدى الإسرائيليِّينْ تجاه المهاجرين، مضافة إلى خبر آخر، نَشَرَتْهُ الصحيفة ذاتها عن "نزوح أربع عائلات فرنسية مؤلَّفة من 32 شخصاً كانوا يسكنون مدينة تانيا قالوا: إننا لا نشكو من السَّكَن والعمل، ولكنْ، لم يأت أحد للتَّحدُّث معنا خلال ستَّة أشهر من تواجُدنا هنا.. وفي الشهر السابع غادروا البلاد. بالإضافة إلى توسُّلات بعض المهاجرين اليهود السُّوفييت بالعودة إلى الاتِّحاد السُّوفييتيّ".

"لأنني يهودي بقلبي، ولكنْ، لم أجد هنا ما كنتُ أبحث عنه"، وغيرها من التعابير عن خيبة الأمل وارتطام الأحلام اليهودية بالواقع الإسرائيلي. إلى حَدٍّ دَفَعَ بعض الصُّحُف الإسرائيلية إلى القول: اتَّضح أنه يصل من الاتِّحاد السُّوفييتيّ بعض اليهود الذين تُرسلهم السلطات السُّوفييتيَّة إلى إسرائيل بقَصْد العودة بعد فترة من الزمن إلى الاتِّحاد السُّوفييتيّ، مرة أخرى للتشهير بإسرائيل، وحَمْل مهاجرين آخرين على النزوح.

ولكن يهود المهجر لا يُصدِّقون الحقيقة عن إسرائيل، فقد وَصَلُوا إليها وهم بصِهيونيَّتهم، بينما أصبح الإسرائيلي كسولاً في صِهيونيَّته. فكيف

يفهم الإسرائيلي الصِّهيونيَّة؟ لقد أجاب عن هذا السؤال مسؤول اسمه كورين: بعد قيام دولة إسرائيل كان رأي الكثيرين، خصوصاً الأوساط التي قالت إسرائيل إن على الصِّهيونيِّيْن أن يهاجروا إلى إسرائيل بصورة جماعية. إن هذا الأمر لم يحدث. صحيح أنه حَضَرَتْ جماهير إلى إسرائيل، لكنها لم تكن دائماً من الفئات النشيطة في الحركة الصِّهيونيّة، وبالتالي كانت التربية التي تلقَّتْها الشبيبة في إسرائيل تتمثَّل بالاستخفاف بما يجري في المهجر. وفى الحقيقة إن قيام الدولة كان من نتاج الصِّهيونيَّة، التي بدأت تشهد، ابتداء من تلك الفترة تدهورها، أو بداية تغيير في علاقتها بيهود المهجر والحركة الصِّهيونيَّة.

ومنذ تلك الوقت، بدأ انشقاق عميق بين بناة الدولة كان من نتائج الصِّهيونيَّة. (نشرة م.د.ف).

ولكن حرب يونيو 1967، أحدثت بعض التَّحوُّل في هذه العلاقات. لقد تشكَّلت الصِّهيونيَّة كجسد واحد، ومعها قطاعات الشعب المختلفة، لتُقدِّم المعونة لدولة إسرائيل. وهذه المرَّة ليس بالمال فقط، بل بنشوء نوع من آلاف المتطوِّعين الذين هاجروا إلى إسرائيل، وبشكل عامٍّ، كانت هناك في السنة الأخيرة يقظة صِهيونيَّة. نلاحظ هنا أن اليقظة الصِّهيونيَّة مشروطة أو مرادفة للإحساس بالخطر.

فاليقظة الماضية كانت نتيجة الاضطهاد والإبادة، واليقظة الأخيرة كانت نتيجة احتدام الصراع الإسرائيلي مع العرب. ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن الصِّهيونيَّة تحتاج إلى نكبات وحروب لتحريك اليقظة الصِّهيونيَّة في وجدان الطوائف اليهودية. ومن هنا، أيضاً، يمكن القول إن الحملة الإسرائيلية الصِّهيونيَّة على الاتِّحاد السُّوفييتيّ على سبيل المثال، دفاعاً عن اليهود السوفييت، تستهدف، بالإضافة إلى الاشتراك في الحملة الإمبريالية العالمية المعادية للتَّقدُّم والاشتراكية، إلى إثارة الإحساس اليهودي

بالاضطهاد أو الخطر، لأن هذا الإحساس وحده هو الكفيل بإثارة اليقظة الصّهيونيّة لدى يهود العالم، ولدى الإسرائيليّين.

الخلاص من الذكريات

إن الإسرائيلي ليس كسولاً في صهيونيّته بالمعنى التّطبيقيّ للمصطلح. ولكن أناشيد الهجرة ومزامير الحنين والغنائيات الأولى عن المهاجرين الطلائع وتجفيف مستنقعات الخضرة، والعودة إلى الزّرع والحصاد في المزارع التّعاونيّة الأولى، لم تعد قيماً ومُثُلاً عليا بالنسبة للإسرائيلي الآن كما كانت قبل عقديْن أو ثلاثة عقود.

ليس الإسرائيلي العادي متصوّفاً. إن فرحته بالوصول إلى "أرض الميعاد" لا تُغنيه عن مشاكل الحياة فيها. خاصّة أن الشّابّ الإسرائيلي الذي نشأ هناك ليس من السهل إثارة نخوته الصّهيونيّة العاطفية بإجراء المقارنات بين حالة أجداده في "أوشفيتس" وحالته الآن.

إن التذكير بالماضي لم يعد قادراً، بلا شروط، على توجيه عقلية الإسرائيلي ونفسيّته وتكوين شخصيّته الجديدة. وذلك الماضي الذي علم اليهود أن يحتفظوا بشخصيّتهم عن طريق اختلافهم عن الآخرين ليس هو الذي يشغل بال الإسرائيلي العادي. إن المستقبل الغامض .. المستقبل الملغوم بكلّ الاحتمالات هو الذي يسيطر على عقليّته ونفسيّته.

إن أشدّ ما يضغط على تكوين الشّخصيّة الإسرائيلية يختلف، إلى حد كبير، عن الشّخصيّة اليهودية الكلاسيكية التي تشكّلت خلال عقود كثيرة من الزمن. وتأثيرات المنْفى تختلف عن تأثيرات الوطن المتنازَع عليه.

إن الإسرائيلي هو الذي وُلِدَ ويعيش في إسرائيل، ولا يعرف المَنْفى، ولا "أوشفيتس". يتكلّم اللغة العبرية، ولا يتكلّم لغة الايديش، ويكاد يحتقرها، لأنها مشحونة بالذكريات المرّة من ناحية، وبالتعاليم الوعْظِيّة من ناحية

أخرى. وقد نشأت في إسرائيل وطنية إسرائيلية آخذة في التبلور وبروز الملامح والقسمات. في حين كان المَنْفى والاضطهاد والعقيدة اليهودية ثالوث تشكيل الشَّخصيَّة اليهودية، أصبح الوطن موضع الصراع والحرب وعقيدة العنف ثالوث تشكيل الشَّخصيَّة الإسرائيلية الجديدة.

لقد استبدل تعرُّض اليهود للاضطهاد بقيام الإسرائيليّيْن باضطهاد العرب، تحت ستار الدفاع عن النَّفْس، هذه الحرب - الحرب المستمرّة مع العرب هي العنصر الأساسي لتجميع الإسرائيليِّيْن، وبوتقتهم. ومن هنا كان اهتمام الإسرائيلي باليهودي في المهجر اهتماماً ثانوي الأهمِّيَّة، ما دام هذا اليهودي بعيداً. صحيح أنه يدفع له المال والأناشيد، لكن الإسرائيلي يدفع أكثر - يدفع دمعه وطمأنينته، من أجل تحقيق الهدف المشترك. ومن هنا، أيضاً، يشعر الإسرائيلي أن حقّه في إسرائيل سابق لحقّ اليهودي الوافد إليها بعد انتصارها، وبعد توطيد مؤسَّساتها.

وهذا ما يفسّر استخفاف الإسرائيلي بالمهاجر اليهودي الذي جاء متأخِّراً بعض الشيء، ليقاسمهُ الحقَّ في العمل والتنظيم والمجد، وعلى الطرف الثاني - نجد أن انتماء الصِّهيونيّ الرُّوحيّ إلى إسرائيل أخذ في التَّعمُّق بعد كلّ انتصار تُحقِّقه إسرائيل. من جهة، ومن جهة أخرى - يصبح هذا الإحساس بالانتماء أكثر تمزُّقاً واضطراباً حين لا يكون هذا اليهودي مشبَعاً بالعنصرية الصِّهيونيَّة. إذ كيف يضحِّي بهُويّته اليهودية القائمة على التَّفرُّد، وعلى خصائص غامضة مستعصية على التعريف - كما يقول بعض المفكِّرين اليهود، من أجل اكتساب خصائص واضحة ومحدَّدة قائمة على اضطهاد الآخرين. قد تُفقده صفته التَّاريخيَّة بتحوُّله من مظلوم إلى ظالم. إن الصِّهيونيّ يشعر بحياء أنه مدين للاضطهاد، لأنه حدَّد له بعض خصائص المظلومية، فكيف يهدي هذه الخصائص إلى شعب آخر؟!

الحرب تُشكِّل الهُوِيَّة الإسرائيلية

ليس الإسرائيلي كسولاً في صِهيونيَّته. وإذا بدا منه ما يوحي بهذا الكسل، فإن مصدره هو انصرافه الواعي واللَّا واعي معاً إلى تحويل العقيدة الصِّهيونيَّة إلى واقع. إنه يُطبِّق الصِّهيونيَّة ويُنجزها كلّ يوم وكلّ ساعة. وهذا ما يجعله، أحياناً، يضيق ذرعاً بأولئك المهاجرين الذين يُقبِّلون أرض مطار اللِّدِّ، ولا يكفُّون عن الصلوات حمداً لله الذي أعادهم إلى أرض الميعاد. والإسرائيلي العادي يعرف حقيقة أرض المعاد. إنه لا يعرفها عن طريق التعاليم والأغاني والمزامير والأحلام. إنه يدرك تماماً أنه يعيش منذُ أكثر من عشرين سنة في حالة حرب مستمرّة. ويدرك أن عَلَمَهُ المرفرف على مزيد من الأرض العربية لم يُخفِّض سعر الخبز والحليب ونفقات التعليم. ويدرك أنه يدفع ثمناً غالياً من أجل أن يفتخر يهودي المهجر بعبقرية شعبه. وحين يقول له اليهودي الأمريكي: أنا أضغط على الحكومة الأمريكية من أجل أن تعطيك طائرة الفانتوم، يقول له: كما قال أهود أفريال الذي استقال من رئاسة اللجنة التَّنفيذيَّة الصِّهيونيَّة: إن الهجرة إلى إسرائيل قبل طائرات الفانتوم. ويجب إعطاؤها الأفضلية التي تستحقُّها. وإذا ضاعفْنا جهود الهجرة. وخفَّضْنا مستوى معيشتنا من أجل استيعاب المهاجرين، فإننا نستطيع الوصول خلال 4-5 سنوات إلى خمسة ملايين يهودي.

يريده ولا يريده. لا يريده - لأن وصوله يرافقه تخفيض مستوى المعيشة، ويريده لكي يصبح قادراً على الاحتفاظ بثمار انتصاراته.

والإسرائيلي يشعر بأن عمله في منطقة الشرق الأوسط ودَوْره فيها يشكِّل ضغطاً أكثر حيوية وتأثيراً على الموقف الأمريكي من ضغط الصوت اليهودي في الانتخابات.

وقد استنكرت صحيفة "معاريف" أن بن غوريون روى أنه الوحيد الذي بقي من بين كلِّ أولئك الذين وَصَلُوا معه على سفينة واحدة. وتساءل ليفي

الأهرام – ٧٢/٢/٤ – ٧

تهاني الناجحين

لماذا انتهى المؤتمر الصهيوني الأخير بالانشقاق والتضارب؟!

لماذا يتلذذ الاسرائيلي بغش الامريكيين في الطعم والتاكسي والمتجر ؟

محمود درويش

شركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح

أشكول: كم بقي منّا هنا؟ وقال موشي ديان في حديث خاصٍّ: فلينزحْ مائة ألف. إننا سنستمرُّ في العيش من دونهم.

لقد أصبح الإسرائيلي قَدَرِيّاً - يفهم أخطار الحرب، ويؤمن باستحالة السلام. ولكنه يعتقد أن لا مفرَّ منها للمحافظة على وجوده الجسدي. ويؤمن أيضاً بأن ما يحتلُّه من أراض هو بمثابة دفاع عن النَّفْس .. ويؤمن بأنه سيبقى سواء هاجر اليهود أم نزحوا، لكنه يسعى إلى جَرِّ كلِّ يهود العالم إلى حَلَبَة الصراع، ليصبحَ الصراع عربيّاً - يهوديّاً، لا عربيّاً إسرائيليّاً. ومن هنا، يعتبر اندماج اليهود في مجتمعات المهجر أشدَّ خطراً من اللّا ساميَّة

واضطهاد اليهود، لأن الاضطهاد عنصر مُجمّع. أمَّا بعض قادة الصّهيونـ فيحمل رأياً مختلفاً، ويرى أن السلام القائم على تقديم بعض التنازلا الإسرائيلية هو الذي يضمن مستقبل الإسرائيلية، ومستقبل الجاليا اليهودية في المهجر.

ولكن الأزمة أخيراً ليست أزمة علاقات بين قادة إسرائيل وقادة الحـ الصّهيونيّة، وهي تدور حول ضمان أفضل مستقبل لإسرائيل في المنطـ إن الأزمة تكمن في جوهر الصّهيونيَّة نفسها، سواء أخذت شكل التطـ الإسرائيلي المتطرّف أم شكل الدعاوى الصّهيونيّة الخارجية المرنة، و النهاية هي أزمة خاضعة لجوهر الصراع العالمي بين التّقدُّم وبين معوقا التّقدُّم. وقادة إسرائيل وقادة الحركة الصّهيونيَّة على السواء .. اختا الوقوف في جبهة محاربة التّقدُّم، وهذا هو دَوْرهم (النَّظريّ والتَّطبيقي)

الأهرام 4 /2 /1972

هوامش

ناحوم جولدمان، تولَّى رئاسة المؤتمر اليهودي العالمي، كما تولَّى رئاسـ المُنظّمة الصّهيونيّة العالمية، وهو مُنظِّر الصّهيونيّة الأوَّل، ومؤسّس المـ اليهودي العالمي. وُلد في ليتوانيا، ونشأ وتعلَّم في ألمانيا، حيثُ حـ على الدكتوراه في القانون. وانخرط في سلك النشاط الصّهيونيّ وهـ بعدُ في سنّ الخامسة عشرة. وقد حاول، أثناء الحرب العالميّة الأو وبعدها، أن يثير اهتمام الحكومة الألمانية بإقامة وطن قومي لليهو فلسطين تحت رعاية ألمانيا، وقد كان مثل هرتزل من كبار المعجبين با العسكرية البروسية. وأسّس مع كلاتزكين في برلين دار إشكول لنشر الـ العبرية، وكان من أعضاء جماعة العامل الفتي، ولكنه تركها وانضم إ جماعة الصهاينة الرّاديكاليِّين، وحَضَر جميع المؤتمرات الصّهيونيَّة منذ ١

1921، وساهم في تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي عام 1936 (حاول في العام 1958 فَتْح قناة اتِّصال مع مصر عبر سفيرها في إيطاليا الدكتور ثروت عكاشة، وكان يرى أنه آن الأوان لاتّخاذ خطوات إيجابية نحو إدماج إسرائيل ضمن المنطقة العربية، بذوبان الأردن داخل الضِّفَّة الغربية مُكوِّنة دولة فلسطين التي تضمُّ كلّ اللاَّجئين مع الاتِّفاق على حدود مشتركة بين هذه الدولة ومصر. بعد عام 1967، تزايدت الانتقادات التي وجَّهها جولدمان إلى الحكومة الإسرائيلية بشأن قضية السلام، ولم يُعَد انتخابه رئيساً للمُنظَّمة الصِّهيونيَّة العالمية عام 1968، وأصبح بعد ذلك مواطناً في سويسرا. وحاول زيارة مصر عام 1969، ولكن جولدا مائير، رئيسة الوزراء آنذاك، رَفَضَت المبادرة. وقد طَلَبَ غولدمان من كارتر أن يحطِّم اللوبي الموالي لإسرائيل في الولايات المتَّحدة. وقبل موته بثلاثة أعوام، صَرَّحَ جولدمان لمجلَّة ألمانيَّة بأن إسرائيل تمثِّل فشل تجربة، وأنها كارثة أضخم من أوشفيتس. وقبل موته بشهر واحد، نَشَرَ إعلاناً في جريدة ليموند، يدعو إلى مبادرة إسرائيلية فلسطينية للاعتراف المتبادل. وقبيل موته أصدر كتاباً بعنوان "إلى أين تمضي إسرائيل؟" اعترف بقيمة نصر أكتوبر العظيم الذي حقّقه المصريون .. وقال: "إن من أهمِّ نتائج حرب أكتوبر 1973 أنها وَضَعَتْ حَدّاً لأسطورة إسرائيل في مواجهة العرب، كما كلَّفت هذه الحرب إسرائيل ثمناً باهظاً حوالي خمسة مليارات دولار، وأحدثت تغيُّراً جذريّاً في الوَضْع الاقتصادي في الدولة الإسرائيلية التي انتقلت من حالة الازدهار التي كانت تعيشها قبل عام، غير أن النتائج الأكثر خطورة كانت تلك التي حَدَثَتْ على الصعيد النَّفْسيِّ .. لقد انتهت ثقة الإسرائيليِّيْن في تفوُّقهم الدائم". (المصدر صفحة إلكترونية، مجرمي النكبة).

(4)

معنى القلق في الأدب الإسرائيلي بعد حرب يونيو
أنا .. وأنتِ .. والحرب القادمة

يكتب إليها:

"إن الرجال الذين يصمتون هم رجال أقوياء. لا أريد الكتابة .. أريد .. ا يضايقكِ صمتي أكثر من كلّ ثرثرة الأوراق .. وتأمُّلات الضعف والتنف .. عن العجز. إن القوَّة في الإنسان مغناطيس - تجذبنا. وأنا، أنا سأنتظا في داخلي، قوياً لا ينكسر، منغلقاً، ولا أسرف في الكلام، لكي ترغبي ... فَكّ طلاسمي.

ولكني الآن يائس، وأقضم طرف القلم. اضحكي اضحكي. إن علاما الصمت الأولى منك تُولَد".

وأنتِ، هل تفهمين؟ في اللحظة التي تفكّر فيها بالكلمات حتَّى نهايتها نجد من بين آلاف الوسائل لتركيب الكلمات، بعض الخيوط الخفية، إ ا أحسنَّا تركيبها وترتيبها كما ينبغي، يصبح من الممكن تغيير مصائر، ... تفعل أدوات الحرب.

سخافة. الصمت أقوى من كلِّ شيء. من الخير لي أن أسكتَ. إن ال... ينفر ممَّنْ يراه والذي يكرِّر نفسه، ويبقى بلا مستمع.

لم تنتهِ رسالة الجندي الإسرائيلي إلى صديقته في رواية لكاتب إسرائيا، شابّ، اسمه أهود بن عيزر، نَشَرَ فصولاً منها في إحدى المجلَّات الأد... قبل ثلاث سنوات.

ما زال الجندي ضائعاً في أزقَّة القدس، وفي البحث عن صديقته، بعدما حَصَلَ على إجازة قصيرة من الخدمة العسكرية. إن القصَّة تتعامل مع كلِّ ما يحمله الضعف البشري في هذا الشَّابّ.

لا يصف الجيش بحماس الوطني المدرَّب على الكلام الخطابي، ولكنه يصف متاعب العيش والنوم والأكل في المعسكر وأشواقه الساخنة إلى البيت والرسائل والنزهة مع حبيبته، وهو يفكِّر طويلاً في مسألة وجوده وحياته، وفي العجز البشري إلى تحديد مسار خطواته وتقرير مصيره.

ولقد رأى صديقته تسير مع شابٍّ آخر، فيتساءل في مونولوج طويل: "ماذا أعجبكِ فيّ هذا الشَّابِّ؟! إنه أحمق. وُجِدَ صدفة قرب الميكروفون، فأصبح صوته مسموعاً. إن تكتُّل الشعب تحطيم للفرد. والحُرِّيَّة هي رَفْض تنفيذ الأوامر. وفوضى. وقضية لافون وانيل. العرب يضعون أمامنا الاختبار: إمَّا لأنْ نتكتَّل نتيجة الخوف، وإمَّا نتفتَّت من الضعف. لذلك، لا أحيا الحياة التي أريدها، وإنما الحياة التي يقرِّرها لي عبد الناصر ولافون وبن جوريون، والشاويش يصرخ، والمباحث تطارد.

وإذا عارضتُ قالوا: لا مفرَّ. هذه دولتنا. إذا لم تكن قضية لافون، فهناك أوشفيتس. إن معسكر التدريب خير من معسكرات الاعتقال، لأن الإسرائيلي الحَيَّ خير من اليهودي الميت. وهناك، على السور يجلس جندي أردنيّ، بوسعه أن يحلَّ كلَّ قضيتي الوجودية بطلقة واحدة".

ويستمرُّ المونولوج حتَّى يرمي نفسه في الفراش: "إن أشدَّ ما يغيظني هو: أنني لا أتغيَّر ولا أتطوَّر، لماذا لم أُولَدْ في أوروبا؟ كنتُ رأيتُ الدنيا، وعرفتُ لغاتٍ، وحَصَلْتُ على ثقافة كلاسيكية، ولكنْ، أوشفيتس؟ صحيح، حسن أني هنا".

حسن، أنه هنا، تكاد تكون الكلمة الأخيرة في الحوار المُرِّ مع النَّفْس.

والحلُّ أو المبرِّر السهل لكلِّ التناقضات التي تعتمل في وجدان الشا الإسرائيلي الذي لم يُولَد في أوروبا، ولم يتعلَّم لغاتٍ، ولم يحصل علم ثقافة كلاسيكية.

حسن، إنه هنا، الجواب الذي يكاد أن يكون وحيداً عن أسئلة قاسيا لأنه أيّ جواب آخر يسير على حبل المنطق، ربَّما سيؤدِّي بصاحبه إل مشنقة الضمير. إن هذه القصَّة تحتشد بهموم الشباب الإسرائيلي، وم هنا تستوقف القارئ. والطريقة العذبة التي تُطرَح فيها أكثر القضايا خشو قد تخدعُنا. لماذا؟ اعتدْنا في مطالعة الأدب الصِّهيونيِّ السِّياسيِّ، وأك سياسيٌّ أو مكرَّس في خدمة قضية سياسية، أن نواجه المحاكمة أو المطال أو القرار بالحقِّ اليهودي على فلسطين، قبل أن يعيَ الصِّهيونيُّ متاعـ البرهنة على هذا الحقِّ في الميدان التَّطبيقيِّ، وقبل أن تصبح الحر الدائمة مرادفاً لهذا الحقِّ، وقبل أن تتحوَّل قضية العربي إلى قضي إسرائيلية. ولذلك، كان طَرْح الأسئلة - في الأدب الصِّهيونيِّ - حول الضم وقضية الوجود ومرارة الواقع في أرض السَّمْن والعَسل بمثابة ترَفٍ أدبي لدى الجيل السابق من الأدباء اليهود الإسرائيليِّيْن.

ولقد كانت الشَّخصيَّة العربية في ذلك الأدب ثانوية الأهمِّيَّة، وكا التَّغلُّب عليها أسهل من التَّغلُّب على تقلُّبات الطقس وتعبيد الشوار وعدا ما كنَّا نعثر على بعض ملامح هذه الشَّخصيَّة في بعض الأعما الأدبية، فإنها كانت تتميَّز بالتَّخلُّف الشديد والوحشية، وأحياناً تستحق بعض العطف الإنساني لا السِّياسيّ. أي لم تُطرَح على مستوى المُعتدى عليها - الضَّحيَّة - أو على مستوى الشريكة في بعض الحقِّ، أو حتَّى مستوى العدوِّ الذي يشكِّل عبئاً ثقيلاً. كانت المسألة كلُّها محصورة في إطار النظرة الأخلاقية في أفضل الأحوال. ومع امتداد الصراع مع العرب الذين نهضوا من سُباتهم، ومع امتداد المطامع الصِّهيونيَّة التَّوسُّعيَّة، تحوَّلت تلك الشَّخصيَّة إلى كابوس، وأصبحت مصاحبة للإسرائيلي في يقظته

وفي نومه. وصار بوسع الجندي العربي أن يحلَّ قضية وجود الإسرائيلي بطلقة واحدة. وأكثر من ذلك أصبح شكل التعامل بين هاتَيْن الشَّخصيَّتَيْن هو الذي يحدِّد مصير التَّجمُّع الإسرائيلي كلّه.

العرب يضعون أمامنا الاختيار - إمَّا التَّكتُّل نتيجة الخوف، وإمَّا التَّفتُّت، من الضعف. من هنا، يتحوَّل الوعي بالشَّخصيَّة العربية إلى القضية الجوهرية الأولى في حياة الإسرائيلي، وإلى القلق المصيري على حياته، وعلى مصيره.

وسنلاحظ بعد قليل أن القلق الإسرائيلي الناجم عن هذا الصدام يأخذ أشكالاً مختلفة في طريقة البحث عن الجذور والأسباب، طبقاً لمفاهيم أصحابها الاجتماعية والسِّياسيّة، وطبقاً لدرجات رسوخها الواعي واللاَّ واعي في العنصرية الصِّهيونيَّة. سنجد البعض لا يعترف بالدَّوْر الإسرائيلي في خَلْق هذا القلق وشَحْنه بالقوَّة والاستمرار. وسنجد البعض يعترف بالدَّوْر الإسرائيلي في تحويل العربي إلى كابوس. وسنجد البعض متمنِّعاً، عن جهل أو عن سوء نِيَّة، عن طَرْح المسألة على هذا المستوى مكتفِياً بتسجيل النتيجة دون الإشارة إلى الأسباب.

من هنا، أُولي القصَّة المشار إليها أهمِّيَّة خاصَّة، لأنها تحاول طَرْح القضية بكلِّ حرارتها وخطورتها. ومن هنا أيضاً، أشير إلى أنها توحي بالخداع، لأن الكاتب يسوق أبطال قصَّته بليونة، ويكسوهم رداء الحياء، وجِلْد الضَّحيَّة.

فالقصَّة توحي ببَحْث شخوصها عن الطمأنينة والحياة الهادئة، وبقَلَقِهم من الصراع، والأخطر من كلِّ هذا، أنه يُبرِّر تحمُّل كلِّ متاعب الحياة في إسرائيل بالقول الصريح إن البديل لهذا الجحيم هو المذبحة "أوشفيتس"، وبالقول إن معسكر التدريب في الجيش خير من معسكرات الاعتقال، وبالقول: إن الإسرائيلي الحيّ خير من اليهودي الميت، وكأن اليهودي لا يستطيع أن يكون

حَيّاً إلّا إذا أصبح إسرائيلياً، وكأن اليهودي، أيضاً، لا مكان له على الكرة الأرض
إلّا أحد اثنَيْن: إمّا معسكر الاعتقال، وإمّا معسكر التدريب. اليهودي لا يحقق ذاته وشخصيّته المستقلّة إلّا إذا كان مُضطَهَداً في المهجر أو مُضطهِدا في فلسطين، فهل يعترف بأنه تحوّل من مُضطهَداً إلى مُضطهِداً أوّلاً؟ وهنا يتيح لنا أن نستخلص بعض الاستنتاجات الإنسانية والأخلاقية والسّياسية من القلق الذي يخلقه وجوده في فلسطين ونَفْيه لحقِّ أصحابها؟ وهل يقبل المنطق القائل: إن تحليل قلقه سيأخذه إلى الصدام مع العقيدة الصّهيونية المسؤولة الأولى عن الكابوس الذي يعيش فيه؟

يقول الكاتب نفسه، في رسالة خاصَّة: "مَنْ يرفض الصّهيونيَّة يرفض وجودي في إسرائيل. لماذا أنا صهيونيّ؟ لأنه لا بدّيل آخر أمامي. عندما هاجر والد جَدّي مع جَدّي إلى أرض إسرائيل، وحرثوا حقلهم الأوّل سنة 1878 على أرض القرية العربية هلبس (اليوم - اسمها بيتح تكفا) قرّروا مصيري ومصير عائلتي للأجيال القادمة.

وإذا وافق العرب على الاعتراف بقوميّتي اليهودية، وهي الصّهيونيّة، وهي دولة إسرائيل، وعقدوا معنا معاهدة سلام، فسنكون جميعاً .. شعوبا ودولاً في جنَّة عَدَن .. وإلّا -فنحن محكومون بالاستمرار في القتال بدافع الكراهية المتفاقمة، وكلُّ واحد منا محكوم عليه بأن يتحوّل إلى كابوس الآخر .. وتكون حياتنا جهنّم".

ويشرح الكاتب الخلفية الفكرية والسّياسيَّة لأدبه، ويكشف عن سر قلقه بالشكل التالي: "لقد عبّرتُ في كتابتي عن ضائقة اليهودي الشّاب في إسرائيل الذي تضعه الحرب المستمرَّة بين العرب وبين دولته في حالة كابوس وعداء، تُعرقل عليه ممارسة حياته وتحقيق ذاته كما يريدها".

ثمَّ يحذّرنا من مخاطر سعينا إلى ارتياد أبعاد هذا القلق قائلاً: "وأنا أخشى أن يستخدم القارئ العربي كتابتي استخداماً سيِّئاً، لكي يُطلع أبناء

شعبه على اليأس أو الأزمة الأخلاقية التي يواجهها الإسرائيلي الشّابُّ، وأخشى أيضاً ألّا يرغب هذا القارئ العربي في إدراك أن الضائقة النَّفْسِيَّة التي يعيشها الإسرائيلي في كُتُبي، هي أحد العوامل الناتجة عن أن الشعب العربي والدول العربية لا تعترف بكياننا وبحقِّنا".

ويحذِّرنا الكاتب من خطر الوقوع في الوَهْم والاستنتاج الخاطئ أثناء رصْدنا لمظاهر القلق في الأدب الإسرائيلي: "يستطيع القارئ العربي أن يعتقد بأن يأس أبطال قصصي هو علامة الانهزامية والتَّفتُّت الإسرائيلي. ولكنَّ رأيي ليس كذلك. فكلَّما دَفَعْنا، كيهود وصِهيونيِّيْن، إلى موقف أشدّ يأساً، أصبح موقفنا أشدّ تطرُّفاً وتعنُّتاً وعداءً للعرب. لقد أدَّت حرب الأيَّام السِّتَّة بنا إلى الفقدان التَّامِّ للإيمان بأن ثمَّةَ علاقة بين أعمالنا الحَسَنَة والسَّيِّئَة وبين موقف العرب منَّا".

نحن لا نملك إلَّا قبول تحذير الأديب الإسرائيلي، لأن صاحب النِّيَّة أدرى بنواياه. ولعلَّ رسالته أقدرُ منَّا على تفسير قلق أبطال روايته، وكشف النِّقاب عن دوافع قلق الشَّابِّ الإسرائيلي. وهي، أيضاً، تساعدنا على رَصْد جملة من القضايا، تشكِّل جوهر أدب الشباب الإسرائيلي:

الصراع مع العرب يضع أمام الإسرائيلي اختيار مصيره. إذا أحدث الصراع لدى الإسرائيليِّيْن خوفاً، فإنه سيدفعهم إلى التَّكتُّل والتَّجمُّع. أي إن تكتُّل المجتمع الإسرائيلي بحاجة دائمة إلى الخوف من العرب.

مشاكل الحياة في الوطن، وليس الوطن - كهدف - هي التي تشغل بال الإسرائيلي. فعندما كان الوطن هدفاً أو حُلْماً صِهيونيّاً، كانت مشاكل حياة اليهودي في المهجر هي التي تملأ صفحات الأدب الصِّهيونيّ. أمَّا الآن، فقد تحقَّق الحُلْم، وصار يمشي على أقدام، ويحمل السلاح. وأصبحت مشاكل الوطن هي الأَوْلى بالرعاية.

غياب العربي، نهائيّاً، عن أرض فلسطين، وغياب مناقشة حقّه فيها. فإن مجرَّد هجرة ذلك الجَدِّ اليهودي إلى تلك القرية العربية منذ القرن الماضي، قد حدَّد مصير الإسرائيلي لأجيال قادمة. وتحديد مصير الإسرائيلي بهذا الشكل يرادفه تحديد مصير شعب آخر، كان يسكن الأرض ذاتها، هذا المصير هو الضياع.

على الطرف الآخر الضائع أن يعترف بتكريس ضياعه، وإلّا فستكون حياته جهنَّم، أي؛ إن العربي هو المسؤول عن استمرار حالة الحرب والكراهية، فينجم عن هذا أن تذمُّر الإسرائيلي من قلقه وخوفه من الحرب لا ينصبّ على اغتياله لحقوق الآخرين، إنما ينصبُّ على الضَّحيَّة مرَّة أخرى.

الصِّهيونيَّة ليست عقيدة، بل هي قومية. لا مفرَّ من ذلك! أي - هي قَدَر الإسرائيلي.

ارتفاع موجة القلق يدفع الإسرائيلي إلى التَّمسُّك بمفهوم أو عقيدة "مسادة" الانتحارية الحصار والانتحار.

إن هذه العناصر تأخذ أشكالاً متفاوتة في أدب القلق الإسرائيلي. وقد يغيب بعضها عن أعمال بعض الأدباء الإسرائيليِّيْن حاملي عقيدة الصِّهيونيّة القنوعة. صحيح، أن القلق في الأدب الإسرائيلي لم ينفجر، مرَّة واحدة ودفعة واحدة، نتيجة حرب يونيو، فإن مقدِّماته برزت في فترات سابقة لها، خصوصاً فترات الأزمات الاقتصادية والسِّياسيَّة التي اجتاحت الحياة الإسرائيلية. ولكن "وعي الحرب" وإحساس الإسرائيلي المباشر بها "وعلى جلْده" كما يقولون، وعدم حلول السلام الموعود نتيجة الانتصار الأخير، ثمَّ ما تركتْهُ الحرب من آثار بارزة على مرافق الحياة الإسرائيلية المختلفة، خصوصاً الاقتصادية، جَعَلَ للقلق شَرْعِيَّة قومية في أدب بعض الأدباء الشُّبَّان. ولا يعني وقوفنا عند أدب القلق الإيحاء بتراجع أدب العنصرية السافرة، فإن هذا الأدب يتعمَّق ويترسَّخ باستمرار في تربته الخصبة، وهي تربة تصاعد الصراع مع العرب. وهو يقدِّم إضافاتٍ أشدّ غطرسة ووحشية

٦ - الأهرام - ٧٢/٢/٢٥

معنى القلق في الأدب الاسرائيلي بعد حرب يونيو

أنا .. وأنتِ .. والحرب القادمة

محمود درويش

بلوفرات لايل اند سكوت الشهيرة

Lyle&Scott

الهيئة العامة للتأمينات الاجتماعية

متريميكس جانز

الأجهزة العلمية المجرية

الشركة العامة للتجارة والكيماويات

من كلاسيكيات الأدب الصِّهيونيّ التي عالجها الأديب الفلسطيني غسَّان كنفاني في محاولته الممتازة لدراسة الأدب الصِّهيونيّ.

وبودِّي أن أضع بعض الفواصل مهما كانت شفافيَّتها، بين مجموعات

مختلفة من أبعاد أدب القلق، فهي ليست وحدة متجانسة. فبعضها يمشي بهذا القلق من الحرب إلى معاداة السلطة العسكرية الإسرائيلية. وبعضها يأخذها القلق إلى مزيد من العداء للعرب. وكلا الاتِّجاهَيْن ينطلق من زاوية واحدة، هي الإيمان بالوطن اليهودي والدفاع عنه، ولكن الخلاف هو بين من يريدون وطناً وبين مَنْ يريدون إمبراطورية. ووقوفنا اليوم يتركّز بمعالجة من يريدون وطناً. إن قلقهم - كما أشرْنا - ناتج عن إحساسهم بالضائقة والخوف من الحرب المستمرَّة دون أن يوجِّهوا التهمة - دائماً - إلى عنوانها الصحيح.

ومن أبرز أغاني القلق من الحرب، تلك الأُغنيَّة الجميلة الحزينة التي يغنِّيها شابٌّ لصديقته، ولرفيق ثالث، يصاحبهما باستمرار، هو: "الحرب القادمة"، إن الأُغنيَّة تعبير حادٌّ ومباشر عن إحساس الشَّابِّ الإسرائيلي الحالي بأنه يعيش دائماً في انتظار حرب قادمة.

حين نتنزَّه نكونُ ثلاثة:
أنا وأنتِ والحربُ القادمة
وحين نَنامُ نكونُ ثلاثة
أنا وأنتِ والحربُ القادمة
أنتِ وأنا والحربُ القادمة
الحربُ القادمةُ علينا بالبركة
أنتِ وأنا والحربُ القادمة
ولترتاحي الراحةَ الصحيحة.

***

حين نبتسمُ في لحظةِ الحُبّ
تبتسمُ معنا الحربُ القادمة
وحين ننتظرُ في غرفةِ الولادة

تنتظرُ معنا الحربُ القادمة
وحين يقرعُون البابَ، نكونُ ثلاثة
أنتِ وأنا والحربُ القادمة
وحين ينتهي كلُّ شيء
نكونُ أيضاً ثلاثة:
الحربُ القادمة
وأنتِ
والصورةُ ..

ولقد شاعت هذه الأُغنيَّة كثيراً في فترة حرب الاستنزاف التي تثير ذكريات حزينة لدى الإسرائيليِّينْ حين أحسُّوا للمرَّة الأولى، بأن الحرب ليست نزهة. وصار العاشق الإسرائيلي يقول لرفيقته إنه حين ينتهي كلُّ شيء، فلن يبقى إلَّا أنتِ والصورة.

ومن أهمِّ الأعمال الأدبية التي تأبى التجانس مع الإمبراطورية مسرحية "ملكة الحمام" التي عُرضت على أحد المسارح الإسرائيلية عام 70، ثمَّ أُوقف عرضها بسبب سخريتها اللَّاذعة من الروح العسكرية المتفشِّية في أعصاب المجتمع، ممَّا دَفَعَ بعض المشاهدين إلى قَذْف الممثِّلين بالقاذورات، وإلى قَطْع أسلاك مكبِّرات الصوت، وتهديد الممثِّلين بالقتْل، وقد بلغ التحريض على المسرحية أوجَهُ عندما صرَّح وزير الدفاع الإسرائيلي ديان بعد مشاهدة العرض: "ماذا أرى؟ ليذهب هؤلاء إلى جبهة القتال، فلا شكَّ في أن المصريِّينْ سيبتهجون كثيراً لو شاهدوا هذه المسرحية".

وفي المسرحية مجموعة من الأغاني الساخرة، منها نشيد عن سلاح الطيران، وهو المعبود الجديد للإسرائيليِّينْ:

عندما أفكِّرُ بسلاحِ الطيران
أشعرُ بالاختناقِ في حَلْقي

أكونُ على وشك الاختناق
على مَعدن مَصكُوكٍ من البروم
يختالُ طَّيارون
صُدُورهُم صلبة
وقلبي الضَّعيفُ يقولُ: بيك بيك
أيُّها المواطنُ المَشكوكُ في أمره
لتمُتْ.
وليحيا سلاحُ الطيران.
في ساعاتِ الوَحْدة الطويلة والقاسية
أحلمُ بسلاح الطيران
أنا لا أُساوي شيئاً تقريباً
أعبرُ العالمَ بلا قيمة
وقلبي الضَّعيفُ يقولُ بيك بيك
لقد أصبحْنا فرعاً لمؤسّسة سلاحِ الطيران
إننا سلاحُ طيران
يملكُ دولة

* * *

لقد تطوَّر مفهوم الوطن لدى الإسرائيلي، واجتاز عدَّة مراحل، من عقيدة الحقِّ التاريخيّ، إلى عقيدة الجدارة، إلى عقيدة الأمر الواقع، إلى عقيدة التَّوسُّع في حدود الوطن التَّاريخيِّ؛ أي تطوَّر من وطن إلى إمبراطورية. ولعلَّ الفارق الذي يميِّز ما اصطلحْنا على تسميتهم بالصقور وبين ما اصطلحْنا على تسميتهم بالحمائم يقع في منطقة الفارق بين أنصار الوطن وبين أنصار الإمبراطورية. ومن المفكِّرين الإسرائيليِّيْن مَنْ يعتقد بأن الطموح إلى الإمبراطورية قد يؤدِّي إلى فقدان الوطن. ومرَّة أخرى نجدنا هنا مضطرِّين

إلى التنبيه بأن المعترضين على الإمبراطورية يصدرون عن قلق على الوطن اليهودي في الدرجة الأولى، وليس عن غَيْرة على حقِّ الطرف العربي، يقول البروفيسور يشعياهو ليبوبتش: "كيف نعيش في الفترة الطويلة التي حُكِم علينا فيها أن نعيش في حالة خطر حرب دائمة؟ وما سيكون عليه شكل دولة إسرائيل التي سنضطرُّ إلى الدفاع عنها بضحايا كثيرة؟ إن العرب سيُتقنون الصنعة، كما أتقنها الجزائريون والفيتناميون. إن وَضْع مليون ونصف المليون عربي ضمن السلطة اليهودية معناه زعزعة الماهية البشرية واليهودية للدولة، وتدمير المَبْنى الاجتماعي الذي بنيناه، وعَزْل الدولة عن الشعب اليهودي في العالم، وعن التراث اليهودي. معناه خراب الشعب اليهودي، وإفساد الإنسان في إسرائيل. ستفقد الدولة كونها دولة يهودية. ستصبح دولة شرقية، وليست إلّا أجهزة إدارية، بدون أيِّ مضمون روحي وثقافي معيَّن لليهود في المهجر الذين لن تبقى لهم أيَّة مصلحة في الهجرة. يتَّضح من ذلك أنه إذا أُنشِئَت "أرض إسرائيل الكبرى"، فستتحوَّل في غضون فترة وجيزة إلى دولة ذات أكثرية عربية، لن تستمرّ السلطة اليهودية في البقاء فيها إلّا إذا تحوَّل النظام فيها إلى نظام مشابه لنظام البيض في روديسيا. وأنا لا يعنيني أبداً أن يرفرف عدم دولة إسرائيل على قبر راحاب الزانية في أريحا. أو على قبر حمار بلهام في نابلس".

تضاف إلى النظرة الصادرة عن الغَيْرة على طابع إسرائيل اليهودي، نظرة أخرى صادرة عن فَهْم التاريخ، يعبِّر عنها مفكِّر آخر، هو البروفيسور يعقوب تلمن في اعتراضه على الإمبراطورية أو على الحقّ التّاريخيّ: "إني أؤمن كثيراً بالشعب اليهودي، ولكني لستُ شوفينيّاً بالقَدْر الكافي، لأن أؤمن بأن اليهود، وحدهم، قادرون على النجاة من أخطار الاحتلال، وتقولون إن الحزب هم المسئولون هم الذين يُرغموننا، ولكنْ، أيّ صاحب سلطان وقوّة في التاريخ لم يزعم أنه إذا خَلَدَ الخاضعون له إلى السكينة والهدوء، فلن يقعَ لهم سوء؟!

وعندما أسمع أشخاصاً لا يؤمنون بالرَّبِّ يتحدَّثون عن "الحدود الموعود[ة]" وعن استكمال البلاد، يثور فيَّ المؤرِّخ صارخاً: متى، وكم من السنين كان[ت] هذه البلاد كاملة؟ إننا نرى هنا ديالكتيك التَّطوُّر. يبدؤون بحقِّ الأجداد[،] فالدفاع عن النَّفْس، ويَصِلُون بشكل ديالكتيكيّ إلى الصِّهيونيَّة العدواني[ة]. ويقولون، إذا وَصَلَ العرب إلى اليأس التَّامِّ، فإنهم سيستسلمون. ه[ل] أخْضَعَنَا اليأسُ؟ وهل أخْضَعَ اليأسُ محاربي فيتنام؟ كَلاَّ".

أمَّا الأديب المعروف يزهار سميلانسكي (كان عضواً في البرلمان ... حزب رافي)، فإنه يناقش مسألة العلاقة بين الحقِّ والقوَّة. ويتساءل: "ماذا يخوِّلنا الانتصار بالسلاح؟ أيَّة حقوق وأيَّة مبرِّرات؟ هل نمتلك الأرض بواسطة الاحتلال بالقوَّة؟ هذا لم يحدث أبداً. إننا مُلزَمُون بالإجابة عن السؤال: ه[ل] القوَّةُ تمنحُ الحقَّ؟ وكيف يتخيَّل أصدقائي الطَّيِّبون والانفعاليون المطالب[ون] "بالبلاد الكاملة"؟ وبماذا يجيبون سُكَّان المناطق التي يسيل عليها لُعابهم؟ ماذا يُبقُون لهم من حقِّ الاختيار والتعبير عن إرادتهم ومناقشة ما نقتر[ح] عليهم؟ ما داموا لا يجيبون عن مثل هذه الأسئلة، فإنهم يدورون في عالم وَهْمِيٍّ، ويمارسون لعبة الشطرنج من جانب واحد. إننا ننسى شيئاً واحداً. هو أن السلاح لا يمنحُنا الحقَّ على البلاد. وأن هذا المَنْح بواسطة السلا[ح] هو إجحاف لا عدل حتَّى عندما يُسمُّون لنا ذلك تحريراً. وعندما يوردو[ن] اقتباسات من الكُتُب المقدَّسة، وينفخون في الصور. إن ما حقَّقناه حتَّ[ى] الآن هو الاحتلال، لا الحقّ. لنُلق بأقوال الأنبياء جانباً، فإن الأنبياء قالوا أشياء أخرى عن السرقة والضَّمِّ. فهل نرضى لنا ولأولادنا أن نأخذ بمبادئ الاحتلال؟ أنا شخصيّاً لا أريد أن أكون محتَلاً بالقَدْر الذي لا أرغب فيه بأن يحتلَّني أحد".

وهنا يفرض سؤال شاقٌّ نفسه على الصِّهيونيّ القنوع الطَّيِّب الغيو[ر] على "طهارة إسرائيل اليهودية". والحريص على ألَّا يتحوَّل شعبه اليهودي إلى شعب مُحتَلٍّ؟

كيف يتمكَّن من الإمساك بهذه المعادلة الملتهبة، ألَّا يكون مُحتَلاًّ من جهة وأن يحتفظ بالسلطة اليهودية المُطْلقة على فلسطين؟ وكيف تكون فلسطين يهودية دون أن تكون مُحتلَّة؟

هذا السؤال الجمرة يتحوَّل إلى أزمة لدى "الصِّهيونيّ القنوع" الذي يرفض آخر احتلال، بدوافع خُلُقِيَّة، دفاعاً عن احتلال سابق، يتنافى مع أيَّة دوافع خُلُقِيَّة! وهل القِيَم هي التي بَنَتْ وطنَ الأمر الواقع وبلورت شخصيَّة الإسرائيلي أم العنف المنافي للقِيَم؟ وما دام السلاح لا يمنح الحقَّ بل القِيَم، فكيف تعزَّز الحقُّ الإسرائيلي، وبأيَّة وسائل على فلسطين؟ هل بالقِيَم أم بالسلاح؟!

هنا يجد الفكر الصِّهيونيّ نفسه في حلقة مفرغة مهما اتَّخذ من أشكال "الخُلُقِيَّة" التي لا تصل إلى حَدِّ تأنيب الضمير. ولكنَّ أهود بن عيزر في رسالته السابقة يسير في اتِّجاه مغاير ليزهار سيملانسكي بقوله: "لا علاقة بين *أعمالنا الحَسَنَة والسَّيِّئة* وبين موقف *العرب منَّا*". إنه يردُّ على رأي يقول: إن المسألة تتوقَّف علينا، فلو أحسنَّا معاملة العرب، لكان الوَضْع أفضل.

ولعلَّ الإحساس العميق بالقلق وبالباب المسدود، هو ما دَفَعَ بعض الأعمال الأدبية إلى استيفاء مقارنات تاريخية بين الإسرائيلي وبين الصَّليبيِّين. وهنا أيضاً يفترق اتِّجاه المقارنات وَفْقاً لمدى الاندفاع الصِّهيونيّ. فإن غُلاة العنصريِّيْن يلومون الصَّليبيِّيْن على أخطائهم، بارتكاب مزيد من العنف والاغتراب عن المنطقة، ولا يتعلَّمون من عِبْرة الصَّليبيِّيْن إلَّا تعميق عقيدة العزلة والعنف والدعوة إلى مزيد من المهاجرين اليهود. أمَّا "الصِّهيونيّ القنوع"، فإنه يحذِّر من مخاطر الاندفاع نحو تكرار تجربة الصَّليبيِّيْن حيناً، ويكتفي بالإشارة إلى الإحساس بهذا التشابه التَّاريخيّ حيناً آخر.

والشاعرة الإسرائيلية الحسناء داليه رابيكوفتش فَاجَأَتْنا بقصيدة عن عملين، حيثُ نشبت المعركة الحاسمة بين صلاح الدِّيْن وبين قوَّات

الصَّليبيِّيْن. وهي تصف في القصيدة رحلة الصَّليبيِّيْن إلى المنطقة، وتصف الذُّعر الذي انتاب الفلاَّحين "الذين سُبيَت نساؤهم، فأنجبن أحفاداً زُرق العيون" .. ثمَّ تصف هجوم الصَّليبيِّيْن على مدينة عكّا وهم "فرسان يحملون بركة البطريرك. قطعان من الذئاب. عيونهم تتوهَّج. وأقاموا القلاع والحصون". ثمَّ جاء صلاح الدِّيْن من الشرق، وأطاح بهم وبحصونهم وقلاعهم. وتختتم الشاعرة قصيدتها: لم تعد لهم مملكة، ولا أورشليم. لقد كان الصَّليبيُّون متوحِّشين وسُذَّجاً، لقد نهبوا كلَّ شيء.

ونلاحظ أن "وحشيَّة الصَّليبيِّيْن وسذاجتهم"، تتكرَّر في كلِّ مقطع من مقاطع القصيدة التي لا تحمل أيَّة إشارة إلى الأيَّام الحاضرة.

ونحن، قد نحمِّل الشاعرة وقصيدتها أكثر من قدرتهما على الاحتمال إذا قلنا إنها ترمي مباشرة إلى إجراء مقارنة بين الغزاة الإسرائيليِّيْن وبين الغزاة الصَّليبيِّيْن، خصوصاً أن مقالات الشاعرة في الصُّحُف الإسرائيلية تنمُّ عن كراهية واضحة للعرب. ولكن الشاعرة في اللاَّ وعي، قد تحسُّ بالصَّليبيِّيْن. وثمَّة فارق كبير أحياناً بين آراء بعض الشعراء وبين شِعْرهم. المهمُّ، أن تكتب شاعرة إسرائيلية قصيدةً عن وحشية الصَّليبيِّيْن وسذاجتهم ونهبهم وهزيمتهم أخيراً، في ظروف تحمل كثيراً من التشابه بين الغزوة الصّهيونية وبين الغزوة الصَّليبيَّة لهو أمر ذُو دلالة مهمَّة.

وقد أشار الشاعر الإسرائيلي المبدع يهودا عميحاي إشارة سريعة إلى هذا التشابه في إحدى قصائده قائلاً:

"ريتشارد قلب الأسد، يُحلِّلُ ويمدُّ لسانَهُ الطويلَ بين ضُلُوعه.
لقد أحضرُوه هو أيضاً إلى البلادِ المقدَّسة.
إنه قلبُ الأسد
وأنا قلبُ الحمار.

وفي قصيدته الطويلة "رحلة بنيامين" يصف رحلة الوطن اليهودي في شتَّى مراحله التَّاريخيَّة، حتَّى يستقرَّ في الحصار، الحصار والانتحار، "مسادة،" مرَّة أخرى. ويحشد الشاعر، في أحد مقاطع القصيدة، مجموعة كبيرة من الأسلحة الأمريكية والفرنسية والإنجليزية، وحتَّى الرُّوسيَّة، وأسلحة مصنوعة من أدوات المنزل وأدوات الزينة، ويصرخ:

"مسادة" لن تسقطَ مرَّة أخرى ..
لن تسقط .. لن تسقط
لن تسقطَ
"مسادة" لن تسقط
مرَّةً ثانية".

والقصيدة مكتظَّة بالحُلْم واليقظة، بالتاريخ والواقع، بالأمل وخيبة الأمل، بالفرح واليأس والقلق وغياب الطمأنينة: " لقد جئتَ عن طريق حيفا / كان الميناء جديداً، / والطفل جديداً / واضطجعت على بطنكَ، لا لتُقبِّل الأرض المقدَّسة، ولكنْ، خوفاً من رصاص عام 1936، والجنود البريطانيُّون بخوذات الإمبراطورية رُسُل المملكة المنهارة فَتَحُوا لكَ ملكوتَ حياتكَ الجديدة.)

وفي لحظة ضياع يقول الشاعر:

"إن يَدَيَّ ممدوتان إلى ماضٍ ليس ماضيّ
وإلى مستقبلٍ ليس مستقبلي
من الصَّعبِ أنْ أُحبّ
من الصَّعبِ أن أُقفلَ العناق
بمثل هاتينَ اليَدَيْن.
إن أصابعَ الله العشر تخنقُني
لن أدعك تسمحُ لي بالذهابِ عنكَ".

(زوروا البلاد في يوم صافٍ، فإذا كانت الرؤية جيّدة، يمكنكم أن تروا المعجزة الكبرى، معجزة طفلي الذي يحملني بين ذراعَيْه. إنه في الرابعة من عُمْره، وأنا في الرابعة والأربعين).

"بيتي بناهُ البنَّاؤون لا الأنبياء
لقد حوَّلني أرقي
إلى حارسٍ ليليّ
دون مهمَّةٍ محدَّدة
عمَّا يحرس

عُدْ إلى البيتِ، أيُّها الرَّبُّ
انضمَّ إلى شعبكَ في أورشليم
لكي ننضمَّ إليكَ
في الموتِ المتبادَل
وفي الصَّلواتِ المتبادَلة

أنا أجلسُ الآن هنا
بعينَي أبي
وشَعْر أمِّي على رأسي
أجلسُ في البيتِ الذي اشتراهُ عربيّ من إنجليزي، أخذَهُ من ألماني
كان قد بناه من حجارة أورشليم
وهي مدينتي"

هنا تأخذ فكرة الوطن التَّاريخيِّ تكوينها وتشكيلها النِّهائيَّيْن، وتلتحم بفكرة وطن الجدارة وبفكرة وطن الأمر الواقع. والقلق الصادر عن هذه المعاناة ليس قلق المخطئين، لكنه قلق الباحثين عن الراحة والطمأنينة والسلام بعد كلِّ هذه الجولة من إعادة ترتيب التاريخ على هواهم، وبعد إعادة الزمن إلى سنِّ الرُّشْد.

"اذهبْ .. اذهبْ
أيُّها الموظَّف النشيط
ويا أيُّها المؤرِّخُ الحزين
نمْ بين صفحاتِ كُتُبِكَ
كالأزهارِ اليابسة

اذهبْ، فإن ابني هو أيضاً يتيمُ حرب، تتألّف من ثلاثة حروب، إنه لم يُولد، لكنه يتيمُ الحروب كلِّها.

أحياناً أرى أورشليم بين رجلَيْن يقفان قرب النافذة

ويتركان مسافة بينهما، وكونهما لا يقتربان، ولا يُحبَّان، يمنحني القدرة على رؤية حياتي بينهما".

ثمَّ تأتي لحظات القلق والشَّكِّ:

"إني أقتربُ من نهايتي
وما يبدو أنه روحٌ شابَّةٌ فيَّ
ليس برُوحٍ شابّةٍ، إنه الجنونُ والموت
وحدَهُ قادرٌ على وَضْعِ نهايةٍ لهذا الجنون.
أنا مُظاهرة
أرفعُ وجهي شعاراً
كلُّ شيءٍ مكتوبٌ هناك
كلُّ شيءٍ .....
لا. لا. حاجةَ بكم
إلى إلقاءِ الغازِ المُسيِّلِ للدموع
فها أنذا أبكي
ولا حاجةَ بكم إلى تفريقي

فأنا مُشتَّتٌ
والموتى أيضاً مُظاهرة
وعندما أزورُ ضريحَ أبي
أرى الأنصابَ مرفوعةً بأيدي التُّرابِ السُّفليّ
فهي المظاهرةُ الكبرى"

***

وحين يشتدُّ القلقُ ويتطوَّر إلى يأس، على الرَّغْمِ من أن مسادة لن تسقط ثانية

يعود الشاعر بعد رحلة الوطن والعذاب والبعث التَّاريخيِّ، في *الله*[122]

"مَنْ نحنُ؟ ما هي حياتُنا
عندما يُجرحُ الطفلُ أثناءَ اللعب
أو عندما يتعرَّضُ للضَّرب؟!
يحبسُ بُكاءَهُ، ويعدو إلى أُمِّه
عبرَ طريقٍ طويلةٍ من الأزقَّة والميادين
وهناك عندما يسقطُ يبكي
وهكذا نحنُ نحبسُ دموعَنا طيلةَ حياتِنا، ونركضُ في طريقٍ طويلة
والبكاءُ مخنوقٌ في الحَلْق
والموتُ ليس إلّا بكاءً حسناً
ومُستمرّاً إلى الأبد".

***

وفي نهاية القصيدة الطويلة (التي تقع في حوالي ألف سطر) يقرّر الشاعر يهودا عميحاي:

122) وردت هكذا في الأصل

"أنا لم أُقبِّل الأرضَ
عندما أحضرُوني صغيراً
إلى هذه البلاد
ولكنْ، الآن وقد كبرتُ عليها
فإنها تُقبِّلُني
وتتشبَّثُ بي
وتلتصقُ بي
في الحُبِّ والعشبِ والشَّوك
في الحروبِ، وفي الربيع
حتَّى القبلةِ الأخيرة".

***

وهكذا يصبُّ الوطن التَّاريخيُّ في بحره الأخير .. في وطن الأمر الواقع كما يفهمه الإسرائيلي أن الدائرة تكتمل في رحلة تطوُّر مفاهيم الوطن اليهودي، حتَّى يفاجئَنا بالأمر الواقع الصعب، لقد وُلدتُ هنا. فهل مبالغ كثيراً إذا سجَّلْنا أن أخطر تطوُّر في الصراع العربي الصِّهيونيّ، بمساعدة الزمن، هو نشوء وتبلور وطنية إسرائيلية؟!

الأهرام 1972/2/25

(5)

ظاهرة تثير القلق! ..
من الانغلاق التَّامِّ .. إلى الانفتاح التَّامِّ

رسالة بيروت

من الانغلاق التَّامِّ .. إلى الانفتاح التَّامِّ .. ليس هذا شعاراً مُعلَناً، لكن أصبح أمراً متعارفاً عليه ومألوفاً تحت شعار "اعرفْ عدوَّكَ" كيف تعرف عدوَّكَ؟

هذا هو السؤال الذي نسيْنا طَرْحه منذُ مدَّة طويلة اعتقاداً منَّا بأن هزائمنا المتكرِّرة تعود، بالدرجة الأولى، إلى جهلنا بهذا العدوِّ. وقد تحول اكتشافنا لهذا المبدأ الأوَّل في علْم الاستراتيجية والتكنيك إلى ما يشبه النعمة، فاستراحت كُتُبُ الدِّيْن والجنس في رُكن قَصِيٍّ من المكتبات، واحتلَّت مكانها كُتُبٌ إسرائيلية مضمونة الانتشار. وهكذا، قفزْنا مرَّة واحدة من نقطة الانغلاق التَّامِّ .. إلى الانفتاح التَّامِّ.

قد نجد تفسيراً معقولاً لهذه الظاهرة الخطيرة. لكننا لن نجد تبريراً لها. ولن نجد مبرِّراً للاندفاع. لأن المسافة بين المعرفة وبين الدعاية صارت تضيق، وصارت تثير المخاوف، فقد نفقد السيطرة على بداية عملية الغزو الفكري الإسرائيلي، وقد نفقد السيطرة على تعرُّض الوعي العربي العادي إلى القبول.

كنَّا على خطأ حين جَعَلْنا من رَفْضنا الوجود الإسرائيلي، ومن جهلنا التام به معادلة واحدة، وحين اعتبرْنا محاولة الإطلالة على تركيب هذا العدو وفكره ومؤسَّساته خيانة قومية. وكنَّا على خطأ حين استهزأنا به، وتبجَّحنا بقوَّتنا، وبمقدرتنا على التَّغلُّب عليه يوم تدقُّ طبول الحرب.

ظاهـــــرة تثـــير القــــلق !

من الانغـلاق التام •• الى الانفتـــاح التـــام

محمود درويش

● تسرب الاسئلة ●

ـزى ما شفتم حـل لتسرب الاسئلة من اللجنة ••
شـوفوا لنا حـل لتسرب الاجـوبة من دماغنا !

اجتماعيات

مزيل الحديث لرائحة العرق

سبراي نورا

ينعش طوال اليوم الرجال والنساء

معرض الكتاب العالمي الأجنبي

غداً

١٩٧٢/٦/١٥

إدارة التوزيع

مواعيد قيام ووصول مصر للطيران

بنك القاهرة

وعندما حَدَثَت المواجهة بين المعرفة وبين الجهل، اكتشفْنا أننا جهلاء، فطرحْنا شعار "اعرفْ عدوَّكَ"، تلبية لحاجتنا إلى إعلان النَّدَم. وصار الموضوع الإسرائيلي موضوع الساعة، لأنه أصبح موضوعنا اليومي. ولا تسألني: ألم يكن موضوعنا قبل ذلك؟

استهتار بالمجتمع العربي

لا يختلف أحد مع أحد على أن تخلُّف المؤسَّسات العربية عن دراسة المجتمع الإسرائيلي كان يعكس مدى الجدِّيَّة العربية، ومدى استهتارها بالمجتمع العربي، وبالوطن العربي قبل استهتارها بالعدوّ.

ولعلَّ هذا التَّخلُّف كان من الأسباب النَّفْسيَّة الرَّئيسيَّة في حجم الصدمة وتأثيرها الفاجع على نَفْسيَّة الإنسان العربي، الذي انتقلت أقدامه، في يوم واحد، من السَّيْر نحو المُدُن الفلسطينية إلى الدفاع عن العواصم العربية البعيدة، وهنا نَتَجَتْ مقدِّمات ميل أو استعداد لقائي جاهز، لتُشتِّت ثقة الإنسان العربي، فعندما كان يعود في الإذاعة العربية إلى يافا، كان يواجه في الإذاعة الإسرائيلية حقيقةَ اقتراب الإسرائيليِّيْن من العواصم العربية. ومن هنا نجد هذا الإنسان نفسه مضطرّاً إلى الضغط على قلبه وكرامته، وهو يبحث عن حقيقته وحقيقة وطنه لدى مصادر العدوِّ. صارت لغته كاذبة وأغانيه كاذبة. وصارت وسيلة تعرُّفه على نفسه تمرُّ، بالضرورة، عبر معرفة العدوِّ.

في هذا المناخ السِّياسيِّ والنَّفسيِّ القاسي تفتَّحت قابلية الإنسان العربيِّ على معرفة إسرائيل. فليس التَّحوُّل نحو المنهج العلميِّ هو الدافع الأوَّل نحو هذا الاهتمام. لكنه الزلزال الذي أصاب النَّفْسيَّة والكرامة القومية.

ومن هنا، كان من الضَّروريِّ أن يهتمَّ الذين يديرون وسائل التعامل مع الإعلام، ومع الدراسات الإسرائيلية بمسألة التحويل التَّدريجيِّ لنزعة الناس إلى معرفة العدوِّ تحت ضغط الاستجابة النَّفْسيَّة، إلى نزعة المعرفة، تحت ضغط الحاجة العلمية السِّياسيَّة، وإلَّا، فإن الحالة المزاجية ستبقى هي صاحبة الدَّوْر الأوَّل في تحديد ما معنى أن نفهم العدوَّ، وفي تحديد الوسيلة لهذا الفَهْم، وفي اختيار النصوص والدراسات.

قضية إسرائيلية

إن الإسرائيليِّينْ الذين يتّبعون المنهج العلمي في دراسة عدوّهم لم يكونوا متفوِّقين علينا في هذا الميدان، بسبب عبقريَّتهم العِرْقيَّة.

والإسرائيليون يدركون حقيقة واحدة، هي أن القضية العربية، بالنسبة إليهم، ليست قضية موسمية أو مزاجية أو فضولية، إنها قضية إسرائيلية. وهي التي تحدِّد مصيرهم، وهي التي تشكِّل أو تشترك في تشكيل وجودهم. وعلى هذا الأساس، فلا يصحُّ العَبَث بها، لا عَبَثَ المغالاة، ولا عَبَثَ الاستهتار، لأن الوقوع في أيٍّ من هذيْن الخطأيْن سيكون نهاية قاتلة. ومن هنا، كانت دراسة العالم العربي، من جميع وجوهه، مبدأ أساسيّاً في استراتيجية الحياة الإسرائيلية السِّياسيَّة واليومية، وإن مصدر القلق الوحيد بالنسبة للإسرائيليِّينْ هو مصدر الأمان الوحيد في الوقت ذاته. كيف يصبح القلق هو الأمان معاً؟ إن فَهْمَهُم الدقيق للعالم العربي يجعلهم يُحدِّدون ويُحسنون تحديد تصرُّفاتهم في المنطقة. وطبقاً لذلك ينون قوَّتهم ويحدِّدون سلوكهم السِّياسيّ والعسكري. وما عدا ذلك، فسنتَّهمهم بالحماقة والجنون إذا كانوا يُقدِمون على هذه الحروب دون ضمان انتصارات، إذا لم تتحقَّق، فإنها لا تعني الهزيمة، بل الموت.

ليست طريقة عشوائية

ولكن اهتمام الإسرائيليِّينْ بدراسة عدوِّهم لا تجري بطريقة احتفالية أو عشوائية، كما هو الحال عندنا الآن.

إن هذه الدراسة خاضعة كلّها، حتّى في المجالات الأدبية لمتطلّبات الصراع مع العرب. كلُّ صحيفة إسرائيلية تُعنى عناية خاصّة بأن يكون أحد كبار محرِّريها خبيراً بالشؤون العربية. فهل يعني ذلك أن يكون هذا المحرِّر حُرّاً في نشر النصوص العربية على هواه؟! إنه ملتزم بآلية الماكينة العسكرية الإسرائيلية، وعندما يتعامل مع الوقائع العربية بطريقة موضوعية، كما

يقولون، فإنه يفحصها وَفْقاً للمناخ السِّياسيِّ والنَّفْسِيِّ في كلِّ ظرف من الظروف. وعندما يبالغون في تقدير قوَّة العرب أحياناً، لا يكون الغرض من ذلك عشق الحقيقة، بل إثارة النزعة الإسرائيلية نحو الخوف والتَّكتُّل الضَّروريِّ الناشئ عن هذا الخوف، لإلغاء مطالب اقتصادية وديمقراطية، ارتفعت في هذا الوقت. وعندما يستهترون بقوَّة العرب أحياناً أخرى، لا يكون الغرض من ذلك عشق الحقيقة مرَّة أخرى: بل إثارة النزعة الإسرائيلية نحو الغطرسة القومية والغرور العِرْقِي. لإلقاء علامات قلق ومخاوف وشكوك انتشرت في وقت من الأوقات. ومهما تبدَّل المناخ السِّياسيُّ والمزاج النَّفْسِيُّ، فإن قضية العالم العربي مطروحة دائماً أمام الإسرائيليِّيْن، لأنها قضيَّتهم، لكن معلومات الصَّحَفِيِّيْن شيء ومعلومات الخبراء والمسؤولين شيء آخر. هؤلاء يعملون دائماً، وفي الخفاء، لأن معلوماتهم وخبراتهم تشترك في صُنع القرار.

وعندهم دُوْر نَشْر كما عندنا، فهل أصبح الكتاب العربي في دار النَّشر العبرية منافساً للكتاب العربي المترجم إلى اللغة العبرية كتاباً سريع الانتشار أم هل أصبحت مجلَّات المطابع الإسرائيلية مفتونة بالتعامل مع الكتاب العربي، كما هي الحال عندنا الآن؟

الحَدُّ الأدنى للمسؤولية

لا بأس من أن نجتهد، ولا بأس من أن نسدَّ ثغرة في جهلنا بالعدوِّ، ولكن هذا الموضوع يبلغ حدّاً من الخطورة والحساسية لا يمكن التلاعب به. إنه من صلاحية مؤسّسات ومراكز ينبغي أن يتوفَّر فيها الحدُّ الأدنى من المسؤولية، وإلَّا فإننا سنخدم شعوبنا على طريقة الدُّبِّ الذي أراد أن يقتل ذبابة وَقَعَتْ على ساق صاحبه، فرماها بصخرة، قَتَلَتْ صاحبه.

هل تتمُّ دراسة العدوِّ على طريقة ترجمة مؤلَّفاته؟ هذا هو السؤال

الذي يطرحه مُنظِّر الكُتُب الإسرائيلية المترجمة إلى العربية والمعروفة في المكتبات هنا؟

لدينا أسئلة كثيرة عن فيض الكُتُب والمقالات التي تهتمُّ بالقضية الإسرائيلية، التي انتقل الأسلوب في معظمها من الاستهتار الشديد بإسرائيل، إلى المبالغة الشديدة. حتّى صارت إسرائيل معجزة في عين المواطن العربي. ثمَّ جاء الفهود السود، فأنعشوا الوجدان العربي الذي اطمأنّ إلى احتمال سقوط إسرائيل من الداخل. وانتظرنا السقوط حتّى الآن، ثمَّ أضرب عُمّال بعض المصانع الإسرائيلية، فقلْنا هذه هي نهاية إسرائيل. تناقضات طائفية وتناقضات طبقية، وبعد قليل تتساقط دولة الظلم والعدوان، ثمَّ ارتكب موشي ديان خيانة زوجية مع امرأة أخرى، وطلَبتْ زوجته الطلاق، فأفردْنا الصفحات الأولى في جرائدنا لنَشْر فضائح عدوِّنا الأخلاقية، وقلْنا هذا مجتمعٌ كافرٌ مُنْحلٌّ، *لَعَنَهُ الرَّبُّ*. ولم يفطن الكثيرون منّا إلى أن الإلحاح على نشْر مثل هذه الظواهر، وبهذا الأسلوب، قد يُثير إعجاب العربيِّ بالمجتمع الإسرائيلي. لماذا؟ لأن المجتمع الطَّبيعيَّ هو المجتمع الذي يرفع فيه العُمّال مطالبهم الاقتصادية، وتختلف الآراء حول سياسة الحكومة، ويكون فيه للطَّلَبَة رأي بالجامعات.

تساؤلات كثيرة

عندنا أسئلة وتساؤلات كثيرة حول هذا التبسيط العابث لمعنى "اعرفْ عدوَّكَ"، بحيثُ أصبح يتَّسع لكلِّ شيء عن إسرائيل دون أن نتساءل عن احتمالات تأثيره. لا المبالغة تنفع، ولا التبسيط ينفع.

إننا مطالَبون بأن نُبرهنَ على امتلاكنا لحسِّ التوازن. والمقدرة على وضْع الأشياء في أحجامها الطَّبيعيّة. لقد كنتُ أعمل محرِّراً في صحيفة "الاتِّحاد" الصادرة في حيفا عندما لاحظتُ مع زملائي أن الرقيب العسكري كان يحذف من الجريدة أخباراً عادية أحياناً عن احتفالات عادية، بينما كان

يفاجئنا بالسماح لنا بنَشْر أخبار مثيرة عن عمليات التعذيب الحيوانية التي يتعرَّض لها رجال المقاومة أو المتَّهمون بالمقاومة في المعتقلات والسجون الإسرائيلية. لماذا؟ لأن من شأن النّشْر المروِّع لهذه الأنباء القاسية أن يردع المواطنين العرب عن الانضمام إلى المقاومة، وأن يدبَّ الفزع في قلوبهم. لقد واجه العقل الإسرائيلي في هذه الحالة اختيارَيْن: إمَّا أن يختار السُّمعة السَّيِّئة دوليّاً، وإمَّا أن يختار الاعتبار "الأمني"، ولقد اختار الثاني، لأنه يحتلّ الأَوَّليَّة، ولأنه يؤثِّر على ردود أفعال الرأي العامِّ العالمي، ويقوم هذا الاختيار على دراسة العدوِّ لنفْسيَّة العربي. فهو يعتقد، مثلاً، أن العربي يُفضِّل العِرْض على الأرض!!

عندنا أسئلة كثيرة حول الفوضى التي نقع فيها غالباً أثناء تطبيقنا لمفهوم "اعرفْ عدوَّكَ"، وهي تحتاج إلى اجتهادات كثيرة، وإلى جهود مشتركة، وتحافظ على التعاون بين جميع مراكز ومؤسَّسات الدراسات والأبحاث الإسرائيلية، لكي نعرف ماذا يجب أن نعرف عن العدوِّ. وإذا لم نُسرع إلى تدارُك المسألة، ستنطلق دُوْر نشْر عربية إلى ملء المكتبات بالكُتُب الإسرائيلية تحت ستار "اعرفْ عدوَّك". إنني لا أستطيع أن أفهم المصلحة القومية في ترجمة ونَشْر الكُتُب العسكرية الإسرائيلية التي تُمجِّد الجيش الإسرائيلي أو عبقرية الطيران الإسرائيلي. من الضَّروريِّ أن يطَّلع المسؤولون العرب الإستراتيجيون والعسكريون على هذه الكُتُب، ولكنْ، ما الفائدة من تقديمها إلى القارئ العربي العادي؟ وما تأثيرها عليه؟ هل نستطيع أن نطمئنَّ إلى أن القارئ العادي يمتلك مناعة ضدَّ مفعول هذه الكُتُب؟ وهل أصبحت مجتمعاتنا مفتوحة إلى الحَدِّ الذي نعطي فيه حقَّ الكلام لإسرائيل والصِّهيونيَّة؟ في حين نغلق الأبواب على بعض الفكر العربي.

فواصل مطلوبة

وهل نطالب بالكثير إذا طالبْنا بوَضْع الفواصل بين دراسة العدوِّ وبين نَشْر النصوص الفكرية للعدوّ كما هي وبدون مناقشة أو حَذَر في الاختيار؟

هل نحن ليبراليون إلى هذا الحدّ أم نحن محايدون؟ وما معنى نشْر الكُتُب العسكرية الإسرائيلية المكتوبة بأسلوب صحَفِيٍّ جذّاب؟

سيسألني سائل: ألا ينشر العدوُّ فكرَنا مترجماً إلى اللغة العبرية؟

ليس بهذا الشكل. إنه يدرُسُنا ويعرفُنا، ولكنه لا يُعمِّمنا على الرأي العامّ الإسرائيلي. وهو دقيق الاختيار عندما يُعمِّم. عندما يختار نصّاً يختار ما يضمن التفاف الإسرائيليِّين حول قيادتهم العسكرية، ويختار من فكرنا ما يبعث فيهم الاشمئزاز والكراهية، لا الاحترام والإعجاب. لقد عَمَّمَ حماقتنا، ونَشَر تهديدنا بذَبْح اليهود، ولم يسمح بنَشْر أيِّ كتاب عربي عاقل، قد يدفع الإسرائيلي العادي إلى التفكير وإعادة النظر في بعض الأمور التي يُسلِّم بها. وحين يحدث أن تنشر إسرائيل إنتاجاً عربيّاً عاقلاً، فإنها تختار عملاً نَقْدِيّاً، يحاسب العرب، لكي تسند مطاعنا من زاوية عربية.

وماذا بعد؟..

لا يختلف اثنان على الأهمِّيّة القصوى لدراسة العدوّ الإسرائيلي، ونعترف جميعاً بأن من أسباب هزائمنا جهلنا بهذا العدوّ. ولكن القفز من الإهمال المطلق إلى الاهتمام المطلق، قد يُلغي بعض الحواجز القائمة بين معرفة العدوِّ وبين الدعاية للعدوّ. من الضَّروريِّ أن نعرف كيف نعرف العدوَّ. وماذا يجوز أن يقدِّم للقارئ العادي وما يحظر تقديمه. وقبل أن نعرف العدوَّ ينبغي أن نعرف أنفسنا. فذلك هو الطريق الوحيد لمعرفة الآخرين.

الأهرام 2 /6 /1972

(6)
تنويعات على سورة القدس

اليوم، عُلِّقتُ على خشبة من علقتنا على الحنين.

اليوم تبكون على القدس، والقدس لا تبكي على أحد.

وحين ترتبط الدموع بعقارب ساعة، تصبح القدس زماناً، والمكان هو عيوننا. كلُّ شيء خارجنا - المُدُن، الدموع، المساء الذي لا ينتهي. وفي داخلنا تستقرُّ المدافع المضادَّة للطائرات ولحنين الأنبياء. لقد سمّينا القدس كلَّ الأسماء التي لا تلائمها. وأعلنَّا جدارتنا بها بالوسائل التي لا تلائمنا: باللوحة، والقصيدة، ومجلس الأمن، والخيانة، والموت. لم يخرج منّا "إرْميا" واحد يتجوَّل في شوارعها، وفي عيوننا .. يلعنُنا ويرثينا.

وحين لا تلحقنا اللعنة، فلن نصل إلى الصواب.

وإذا لم تبلغنا المراثي، فلن نذوق النّعمى.

لتسكت .. لتسكت دموع اليوم التي تشبه دموع الأمس. ولنبحث عن لون آخر لدموع الغد. فليس لنا فيها حائط، والقدس عاصمة الخيام البعيدة، ورؤوس الأموال البعيدة، والشهداء البعيدين. لتسكت .. لتسكت دموع اليوم حتّى تصبح القدس عاصمة اللون الأحمر المنحوت من مياه نهر الأردن.

***

دخلتُها مختبئاً بالشجاعة خائفاً من الشجاعة

حَدَثَ مرَّة واحدة في حياتي أن رأيتُ التاريخ مدجَّجاً بكلِّ هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة. لم يحدثْ أن تحوَّل إنسان إلى صخرة. ولم يحدثْ أيضاً أن تحوَّلت صخرة إلى جندي.

حَدَثَ ذلك في القدس. وكنتُ أنا الصخرة والإنسان والجندي. ومنذ الآن .. منذُ هذه اللحظة صارت الجنَّة أقرب. سأستبدل بالقدس الجنّة، لأنها ليست جميلة وذليلة إلى هذا الحَدِّ. ولأنها وعد، لم يظهر خيانته.

مَنْ علَّمني هذا الصمت؟ ومَنْ علَّم القدس هذا الجمال؟

مَنْ أسقاني ذبذبات هذا الزلزال؟ ومَنْ علَّم القدس مرافقة هذا المساء الذي لا ينتهي؟

مَنْ علَّمني كلَّ هذه الشجاعة؟ ومَنْ علَّم القدس كلَّ هذه السخرية؟

لا. ليس الوطن انتماء الظِّلِّ إلى الشجرة، ولا انتماء النَّصْل إلى الغد. كَلَّا ليس الوطن علاقة قُربى ودم. ليس الوطن دِيْناً، ولا إلهاً.

الوطن هو هذا الاغتراب .. هذا الاغتراب .. هذا الاغتراب الذي يفترسكَ في القدس.

ومن هنا، تصبح الجنَّة أقرب.

***

لم يكن لقاءً. ولم يكن وداعاً.

اللحظة الفاصلة بين اللقاء والوداع، بين اللحم والعَظْم - هي هذه الحالة التي تقابل فيه القدس.

تهجم على باعة الصُّحُف وبقايا الآثار وباعة الفلافل والخضار الطازجة والمعلَّبات المستوردة، وقد تعلَّموا لغة الغزاة في ليلة واحدة .. تهجم عليهم في نشوة انتحار. تأخذ أشياءهم، وتصبح تصيح بأعلى صمت: مَنْ يشتري صَدرَ تاريخي، وظَهْرَ تاريخي، وعورة تاريخية بلحظة انتصار واحدة؟! ثمَّ تبتسم للغزاة.

ينحني ظَهرك، كقوس عربيٍّ أيّام كان العرب فرساناً، وأيّام لم يعرفوا النفط والإذاعة، وتتأهّب لفعل غامض. في البدء كان الفعل أم كانت الكلمة؟! تتردّد. ليتَ ظَهرَكَ معدِنٌ، كي لا ينكسر.

وليتَ صمتَكَ مَعدِنٌ، كي يُصدِر صوتاً أو رنيناً.

ثمَّ يأخذكَ الحُلْم إلى مداخل المدينة: مَنْ يشتري تاريخكَ بلحظة انتصار من أجل الزينة ..؟!

من أجل الزينة، وأنتَ أميرُ المؤمنين القائل بأن الجهاد حقٌّ والموتَ حقٌّ.

لم تكن القدس لي في يوم من الأيَّام، أنا بائع الصُّحُف في كلِّ زمان ولغة .. وأصحاب القدس يبيعونني، ويستقبلون الفاتحين، ويتكلَّمون في الحضارة وعلم الأجناس. لم تكن القدس لي في يوم من الأيّام. أعطوني *صُحُفاً أخرى وأنباء أخرى، لأني لا أعرف القراءة.*

(هكذا قال بائع الصُّحُف)

***

لا تطلُّ نوافذها على شيء.

مفتوحة، تأتيها الهضاب التي لا تُحصَى أيّام الحرب، أيّام الحرب لا يُحصَى إلَّا الموتى. تأتيها الهضاب، والشمس، وبنادق الغزاة التي كَتَبُوا عليها "يا أورشليم من ذَهَب".

وعلى مَرمَى حُلْم صغير، رأيتُني خارجاً من زِنْزَانَة الكرمل التي حَجَبَتْ عنّي شكل الحرب. هل رآني أحد وأنا في القدس، لكي أعتذر له؟

لن أعود إليها، لأن نوافذها لا تطلُّ على شيء يعنيني. أوقفتْني جنديَّة

صغيرة، وسألتْني عن قنبلتي وصلاتي. اعتذرتُ لوجهي. وقلتُ للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب، ولا أُصلِّي.

قالت الجنديَّة الصغيرة: لماذا جئتَ إلى القدس إذنْ؟

قلتُ: لأعبر بين القنبلة والصلاة، على ذراعي اليمنى آثار حربٍ، وعلى ذراعِي اليسرى آثار ربٍّ، لكنني لا أُحارب، ولا أُصلِّي.

قالت الجنديَّة: وماذا تكون؟

قلتُ: ورقة يانصيب بين القنبلة والصلاة.

قالت: ماذا تفعل بها؟ .. ماذا تفعل بكَ لو ربحتَ؟

قلتُ: أشتري لوناً لعينَي حبيبتي.

حسبتْني الجنديَّة شاعراً، فأخْلَتْ سبيلي.

وتساءلتْ: لماذا جئتَ إلى القدس إذنْ؟

{المتكلِّم - محمود درويش}

***

كنز من الصخر، والهزيمة والشجر النادر ..

لو كانت مدينتي الآن معي، لتنازلتُ عن حَنْجَرتي، وشربتُ الماء المثلَّج من جدول يسكن جبلاً.

لو كانت مدينتي الآن معي، لاعتذرتُ عن كلِّ مواعيدي، حتَّى مواعيد الموت التي حدَّدتُها وكنتُ أذهب إليها، عادة، قبل الوقت بخمس دقائق.

علبة من الصخر، والشمس الكثيرة، والهزيمة الموحية.

في البدء، لم يكن الفعل، ولم تكن الكلمة. في البدء كانت الهزيمة.

لو كانت مدينتي الآن في حقائبي، لرحلتُ. مَنْ رآني خاصَمَني وقَتَلَني، لأن مدينتي جميلة تشبه حبيباً لم يُولَد حتّى الآن. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي.

لوحة من الصخر معلّقة على سبعة تلال، وثلاثة آلاف سنة، وخمسين نبيّاً، وأربعة ملايين خنجر، وشجرة، وخمسة قرارات من الأمم المتّحدة، ومليون قتيل أو أكثر.

يدي تمتدُّ إليها، ولا تصل ..

وَصَلْتُ، يوماً، قبل يدي، فترنّحتُ على أحد الأرقام. لم أمسكْ بشيء، لأني وَصَلْتُ قبل يدي. وقلبي لا يخرج من صدري.

تنهمر الأرقام دماً، وعيوناً، وتواريخ، وأحذية، ومراثيَ، وعروشاً، ومسامير وأشعاراً .. تنهمر الأرقام، وتقتلني، لتزيد القتلى والعشّاق وأسماء القدس. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي. ويا أيُّها السادة - كنتُ أكذب عليكم. ليست القدس هذه المدينة. هذه المدينة ليست القدس.

{هكذا قالت فتاة عاطفية تعمل في دائرة السياحة}.

نُشر في الأهرام 9 / 6 / 1972 وهو النَّصُّ الوحيد من بين مقالات الأهرام الذي نَشَرَهُ الشاعر مع تعديلات طفيفة في كتابه يوميات الحزن العادي، طبعة أولى، بيروت 1973.

(7)

تيَّارات عربية

شباب عربي وإسرائيلي في قفص اتِّهام واحد
مقاومة .. لا تجسُّس

تجلس في قفص اتِّهام واحد، الآن، مجموعة من الشباب العربي واليهود، تتَّهمهم إسرائيل بالتآمر على أمنها ووجودها، بالتَّجسُّس لحساب دولة عربية. ومنذُ شهرَيْن، أي منذُ إلقاء القبض على هؤلاء الشباب، يعاني الوعي الإسرائيلي العامّ نكسة عميقة، وتعيش النَّفْسِيَّة الإسرائيلية الصِّهيونية في حالة ذهول.

لماذا النكسة؟ ولماذا الذهول؟

لقد أجمع المسؤولون والكُتَّاب الإسرائيليون على أن هذه "الشبكة" التي يتعرَّض أفرادها للمحاكمة، في هذه الأيَّام، هي أخطر ظاهرة، واجهها المجتمع الإسرائيلي في تاريخه لسببَيْن:

أوَّلهما: أن عدَّة أفراد من هذا التنظيم السِّرِّيّ هم من الشُّبَّان اليهود، وبعضهم من سُكَّان "الكيبوتس"، وأحدهم من سلاح المظلَّات.

وثانيهما: أن دوافع العمل ضدّ السياسة الإسرائيلية الذي يمارسه أعضاء هذا التنظيم، هي دوافع أيديولوجية، تقوم على أساس رَفْض الصِّهيونية فكراً وممارسة. "وأن اشتراك عدد من اليهود في هذه الشبكة ينطوي على امتهان للمشاعر الجوهرية التي تستمدُّ منها العَظَمَةُ الإسرائيليةُ قوَّتها: الشعور بالالتزام المتبادَل، وبالمسؤولية المشتركة في الوجود القومي، خصوصاً أن المتَّهمين قادمون من صفوف الجيش والكيبوتس، كما تقول إحدى الصُّحُف الإسرائيلية.

تيارات عربية

رأى الأهرام

شباب عربي واسرائيلي في قفص اتهام واحد

مقاومة .. لا تجسس

بقلم محمود درويش

استقلال الجامعة خط أساسي

حديث الناس

مواقيت الصلاة

حالة الجو اليوم

إن حالة الذهول الإسرائيلية تنبع من ظاهرة التجاوز الذي مارسه بعض اليساريِّيْن اليهود للُّعبة السِّياسيَّة السائدة في إسرائيل، إذ كفروا بملهاة العلاقات الرقيقة بين قوى اليمين واليسار داخل المؤسَّسة الصِّهيونيَّة الواحدة. وقادهم إحساسهم بالظلم اللاَّحق بالعرب، وبعُقم الإصلاح داخل المضمون الصِّهيونيّ، إلى الاعتراض على الجوهر، وهو الكيان الإسرائيلي الذي يمثِّل النتاجَ التَّطبيقيَّ للأيديولوجية الصِّهيونيَّة. وهذه النتيجة هي التي دَفَعَتْ أحد الكُتَّاب اليهود إلى وَصْف هذا النشاط بأنه

"خيانة أيديولوجية". وأن مجرَّد الاعتراف الإسرائيلي الشائع بالمحرِّكات الأيديولوجية لنشاط أعضاء هذا التنظيم، وحالة الذهول الناتجة عن هذه الظاهرة. يشكِّلان اعتراضاً أساسيّاً على نَعْت هذا التنظيم بالجاسوسية.

ومن المؤسف أن نسجِّل هنا أن بعض الأقلام العربية وَقَعَ بالشَّرَك الصِّهيونيّ القائم على اتِّهام هؤلاء الشباب اليهود والعرب بالتَّجسُّس من ناحية، ومن ناحية أخرى، وَصَلَتْ عدوى الدهشة الإسرائيلية من هذه الظاهرة إلى بعض الأقلام العربية أيضاً. فإذا كنَّا نعترض على المبالغة في الدهشة من الجانب الإسرائيلي، لأنها تعبير عن مدى الإحساس بالحصانة والصلابة وسيادة الرأي الواحد، فماذا نقول، إذنْ، عن الدهشة العربية سوى أنها إقرار بهذا الإحساس الإسرائيلي؟ ومن ناحية ثالثة، يبدو لي أنه ليس من حقِّنا أمام دراسة هذه الظاهرة أن نسجِّلها انتصاراً لطريقتنا في مخاطبة الأوساط المعارضة داخل إسرائيل، معزولاً عن تمادي التطبيق الصِّهيونيّ في الشراهة وإلحاق الظلم بالعرب، ممَّا أزال الحاجزَ الوهْميَّ - في نظر اليهود - بين ما يُسمِّيه المتحذلقون الإسرائيليون "ظاهرة الفكر الصِّهيونيَّة"، وبين "خطأ التطبيق الإسرائيلي".

هؤلاء المتَّهمون إذنْ معترضون على الصِّهيونيَّة، نَظَريَّة وممارسة، وليسوا جواسيس. وهذا هو المعنى الباقي من هذه الظاهرة. تقول صحيفة "دافار": "إن الانتقال من ممارسة الدعاية والصراع السِّياسيِّ للقضاء على نظام الحُكْم في إسرائيل، إلى عمليات تخريب، ينطوي على مغزى خطير"ما هو هذا المغزى؟ تقول صحيفة "معاريف"، عن هذه الظاهرة التي تمثِّل الانتقال من الدعاية والتحريض السِّياسيَّيْن ضدَّ السلطة الإسرائيلية، إلى العمل ضدَّ الوجود الإسرائيلي: إذا كان هنالك من تهمة، فيجب أن نتَّهم أنفسنا، لأننا لم نُقدِّر بما فيه الكفاية الحاجة إلى تثقيف صِهيونيّ، لأولئك الذين وُلدوا مع ولادة الدولة الإسرائيلية. فلأننا لم نجد ثورتنا، سعى مختلف الشباب للبحث عن الثورة في حقول الآخرين".

هل كان قيام إسرائيل ثورة؟ هذا السؤال لم يكن مؤهَّلاً للطَّرْح أمام الرأي العامِّ الإسرائيلي قبل عدَّة سنوات، لأنه كان يقيناً غير قابل للاهتزاز في نظر الإسرائيليِّيْن. ومهما كانت الآراء تختلف حول أشكال الممارسات الصِّهيونيَّة على أرض فلسطين. إلَّا أنها كانت تتوحَّد في جوهر واحد، هو: شَرْعِيَّة قيام الدولة الإسرائيلية. وما زالت برامج الأحزاب المعارضة ودعايتها السِّياسيَّة تناقش حول صيانة هذا الجوهر، ومدى التفاني في الدفاع عنه. وليس مهمّاً هنا أن نعزوَ الإجماع على الالتفاف حول هذا الجوهر إلى الإيمان به، أو إلى كونه شرطاً أساسياً لممارسة العمل السِّياسيِّ الشَّرعيِّ. ولكنَّ شيئاً جديداً حَدَثَ بعد حرب يونيو، عندما أصبحت المناطق العربية التي تمَّ الاستيلاء عليها بعد الحرب القضية الأولى في سُلَّم الأولويات الإسرائيلية على المستوى الرَّسْميِّ والمستوى العامِّ، لارتباطها بمسألة السلام والحرب، وهي القضية الإسرائيلية الرَّئيسيَّة من جهة، ولدَوْرها الكبير في التأثير على مصالح السُّكَّان الإسرائيليِّيْن الاقتصادية: {غلاء المعيشة، ارتفاع الضرائب، والإضرابات} من جهة أخرى.

ولقد شهدت الحياة السِّياسيَّة الإسرائيلية، في العام الأخير بشكل خاصٍّ، مناقشات سياسية ونَظَرِيَّة ملتهبة، طُرِحَت من خلالها شَرْعيَّة الحقِّ الصِّهيونيّ في الأراضي العربية، وانفجر السؤال الكبير: هل تنطوي الصِّهيونيَّة، بالضرورة، على النَّهْب والتَّوسُّع أم إنه من الممكن إيجاد صيغة للتطبيق الصِّهيونيّ دون أن يكون مشروطاً بالنَّهْب؟!

ولقد انقسم السِّياسيُّون والمفكِّرون الإسرائيليون إلى فريقَيْن: الأوَّل يقول إن الاستيلاء على مزيد من الأراضي العربية هو التطبيق الحقيقي للنَّظَرِيَّة الصِّهيونيَّة، لأن الانسحاب من الأراضي المحتلَّة بعد حرب1967، بدعوى أنه مخالف للنَّظَرِيَّة الصِّهيونيَّة - يستتبع الانسحاب من المناطق المحتلَّة عام 1948، لأن فلسفة الاحتلالَيْن متشابهة. فإذا كان احتلال سنة 1967 مخالفاً للحقِّ، فإن احتلال 1948 مخالف للحقِّ أيضاً. ويتساءل هذا

الفريق: ما الفرق بين مدينة عكّا ومدينة نابلس مثلاً؟!.. إن مفكّري هذا الفريق يُبرِّرون النَّهْب الصِّهيونيّ اللّاحق بنجاح النَّهْب الصِّهيونيّ السابق.

ويقول الفريق الثاني المدافع عن أسباب الانسحاب من بعض الأراضي العربية المحتلَّة بعد عام1967، إن هذا الاحتلال الجديد يشكِّل مخالفة للنَّظريَّة الصِّهيونيَّة، لأن الاحتلال السابق مشروع، والاحتلال اللّاحق غير مشروع، وأن أنصار الفريق الأوَّل يُسيئون إلى الصِّهيونيَّة بِرَبْطها بالنَّهْب والسَّلْب والتَّوسُّع.

وهكذا نلاحظ أن أنصار الدعوة إلى المزيد من التَّوسُّع يتَّفقون مع أنصار الدعوة إلى القناعة بالتَّوسُّع في نقطة واحدة، هي: الدفاع عن جوهر *التطبيق الصِّهيونيّ المتمثِّل في إنشاء الكيان الإسرائيلي*. وينحصر الفرق بينهما في أن المعترضين على الظلم اللّاحق يسعون إلى الاحتفاظ بثمار الظلم السابق. وفي تبرئة الصِّهيونيَّة من عناصرها المكوِّنة، وهي النَّهْب والتَّوسُّع. وقد حَدَثَ هذه المناقشات حول شَرْعيَّة التطبيق الصِّهيونيّ بالنائب شموئيل تشير إلى اتِّهام الأوساط الحاكمة في إسرائيل بالمسؤولية عن ظاهرة التنظيم السِّرِّيّ الجديد بقوله: "إن الشباب الذين يتشرَّبون يوميّاً من شخصيات بارزة الوَعْظ بأن وجودنا المستمرّ في المناطق المحتلَّة هو احتلال أجنبي، وإن عودتنا إلى أرض الوطن هي ضمٌّ تعسُّفيٌّ مرفوض، ومن الطَّبيعيّ أن يظهر بينهم، في نهاية الأمر، مَنْ يتوصَّل إلى الاستنتاج بأنه ينبغي القيام بمساعدة الفلسطينيِّيْن المظلومين".

ليست المناقشة بين الزعماء الإسرائيليِّيْن، بالطبع، هي التي أوصلت شُبّاناً يهوداً إلى العمل ضدّ الوجود الإسرائيلي، ولكن واقع الاحتلال نفسه وآثاره الاقتصادية والنَّفْسيَّة هو الذي أوجد المناقشة، وقاد الشباب للتفكير في مصيرهم بطريقة أخرى. يقول بروفيسور إسرائيلي بارز، بنيامين اكتسين: "إنه لم يفاجأ بهذه النتيجة، لأنه منذُ العصيان على التَّطوُّع في الجيش

الذي أعلنه بعض الشباب، ومنذ بدأ التفكير في صفوف بعض المنظَّمات الصغيرة من التَّشكُّك بشَرْعيّة وجود دولة إسرائيل. توقَّعتُ أن يظهر شخص ليقول إنه إذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ من الصراع ضدّ هذه الدولة التي لا حقَّ لها بالوجود".

وفسَّر "متيناهو بيلد" الأُسس التي نشأت عليها هذه الظاهرة بقوله: "إن وَضْعَنا في السنوات الخمس الأخيرة يختلف عن وَضْعنا قبل حرب الأيَّام السِّتَّة: لأننا نواجه اليوم عدداً من الاختيارات البديلة واتِّجاهات العمل. ويبدو أن النِّقاش هنا وهناك مؤهَّل لأن يُثير أو قد أثار فعلاً شكوكاً بالنسبة للأُسُس التي ترتكز عليها. وأعتقد أنه قد أصبح من الضَّروريّ عندما تجري مناقشات في المستقبل، أن نؤكِّد أن النِّقَّاش هو حول المناهج والسُّبُل، وليس حول النقاط الأساسية والمبدئية".

عبَّر عن المعنى ذاته البروفيسور أكتسبن بقوله: "إن هناك مَنْ يثير الشَّكَّ بعدالة الأُسس والاتِّجاهات السِّياسيَّة".

هذا هو بالضبط المغزى الجديد والأهمّ في ماهية التنظيم السِّرِّيّ الذي اشترك فيه شباب النظام السِّياسيّ الإسرائيلي بين النِّقَاش حول أساليب العمل السِّياسيّ، وبين التَّعرُّض للمبادئ الصِّهيونيَّة الأساسية التي تقوم عليها إسرائيل. إن طبيعة هذا النظام تُبيح المناقشة حول اختيارات أساليب العمل انطلاقاً من مبدأ شَرْعِيَّة الوجود الإسرائيلي. الانطلاق من هذا المبدأ هو القانون العامّ للعمل السِّياسيّ في إسرائيل، وهو ما يجعل المعارضة ذات الممارسة الشَّرْعِيَّة أسيرة صيغة صِهيونيَّة يستحيل الإفلات منها ما دامت مرتبطة بالمبدأ الجوهري. وهذا ما يفسِّر كون الاعتراض الذي تمارسه الأحزاب المعارضة منحصراً في التَّصدِّي لأشكال التطبيق الصِّهيونيّ، دون المَسّ بالجوهر الذي تنطلق منه أشكال التطبيق هذه.

ومن هنا، يكون الأمر الجوهريُّ اللَّافت للنَّظر في ظاهرة التنظيم السِّرِّيّ

الجديد. هو أن رَفْض الصّهيونيَّة - نَظريَّة وأيديولوجيا - يستتبع رَفْض تطبيقها الأساسي. ويبقى الاكتفاء برَفْض بعض أشكال هذا التطبيق اعتراضاً ناقصا على المستوى النَّظَريّ والسِّياسيّ. ولكنْ، هل يُلِحُّ الواقع السِّياسيُّ الراهن على طَرْح المسألة على هذا النحو الآن؟ هذا سؤال قابل للمناقشة أو للتأجيل، طبقاً لتطوُّر الصراع العربي - الإسرائيلي، لكنه يبقى جوهريّاً من الوجهة النَّظَريَّة، ويظلُّ كابوساً في الحياة السِّياسيَّة الإسرائيلية، لأن مجرَّد طَرْحه يُعيد النَّظَر في شَرْعِيَّة العمل السِّياسيّ، ويقود إلى تهمة "الخيانة الأيديولوجية"، وإلى تهمة التَّجسُّس.

وقد يكون من السابق لأوانه التَّكهُّن بشكل تطوُّر ظاهرة التنظيم السِّرِّيّ المعادي للكيان الإسرائيلي، ولكنْ، من الواضح أن هنالك أهمِّيَّة معنوية ونَظَريَّة بالغة لانفجار السؤال الذي كان مُحرَّماً على الوعي الإسرائيلي حول شَرْعِيَّة الوجود الإسرائيلي. ومن الواضح، أيضاً، أن منظر شباب عرب ويهود في قفص اتِّهام واحد، واشتراكهم في تهمة أيديولوجية واحدة، هو انتصار رمزي للثقافة الصِّهيونيَّة. ومن الواضح، أيضاً، أن المواطنين العرب في الأرض المحتلَّة والقوى اليسارية والمعارضة ستتعرَّض لحملة تشهير وقَمْع، وستُلاحِق تهمة التَّجسُّس والخيانة كلَّ مَنْ يرتكب التفكير بالماضي والحاضر والمستقبل.

الأهرام 2-2-1973

مقالات محمود درويش في الأهرام حول الأدب

(تغطية مؤتمرات - مراجعة كُتُب - رؤى حول الشِّعْر)

(1)
أسئلة بريئة إلى الأدباء العرب على هامش مؤتمر الأدباء في دمشق

لا أعرف دمشق .. ولكنني أعرف الطريق إلى دمشق ..

في ليلة غامضة من ليالي الخريف الماضي، كنتُ أُبرز ورقةً، تعلن هُويَّتي أمام أحد الشباب المقاتلين على الحدود السُّوريّة - اللُّبنانيَّة. وقد ضعتُ في التَّأمُّل عندما لاحظتُ أن هذا الجنديَّ الوسيم يحمل بندقية وديواناً من الشِّعْر. وحين طلَبَ منّي الجلوس، سألتُهُ بتأدُّب ساخر: أمر عسكري أم طلب؟

فقال: بل رجاء.

وعلى امتداد ساعة كاملة في ذلك الليل الصامت، كان الشَّابُّ المسلَّح بالبندقية والشِّعْر يحاكمني بإخلاص نادر، وبمنطق القاضي الذي لا يرقى الشَّكُّ إلى عدالته. كانت المحاكمة تتلخَّص في تهمة واحدة: الفجوة بين القول والفعل، وأستميح القارئ عذراً، لو سجَّلتُ هنا أن كلمة واحدة من زوابع الكلام التي انفجرتْ في وجهي، هذا العام، لم تستقرّ في ذاكرتي، لأنها صادرة عن أشخاص يحترفون الكلام .. والكلام وحده. ولكن كلمات هذا الشَّابِّ المقاتل، الذي يحرس الليل والحدود ما زالت شريطاً واضحاً في ذاكرتي. لأنه يملك الحقَّ في الكلام، وفي محاكمتي.

إنه يصدق الكلمة، ويطالب صاحبها بأن يكون صادقاً مع نفسه، وبأن يحقِّق الانسجام بين ما يدعو إليه وبين ما يملكه.

لا أعرف دمشق.

ولكنني رأيت بردى .. سألتُ عنه المارَّة، وسألتُ عنه عينيّ، ثمَّ دلُّوني عليه. ولكنني لم أجدْهُ في دمشق، لأن الأغاني بدَّدت بردى.

لماذا تحوَّل عشَّاقنا إلى أساطير؟ لماذا نقول إن جسم الحبيبة غزال ووجها قمر؟ لماذا نحتقر الجِلْد واللحم والعَظْم والدم؟ إذنْ، لماذا ننفخ في بردى، ونُضخِّمه حتَّى ينفجر؟

إنه جدول عظيم يسكن بيوت الدِّمشقيِّين، إنه أحد أفراد الأسرة السُّوريَّة. إنه جَرَّة ماء في كلِّ بيت. وهذه الصفة وحدها كفيلة بتبرير حُبِّنا اللاَّ متناهي لبردَى، دون أن نعيِّن له خريراً وهديراً وَهْمِيَّيْنْ.

(صورة لمقال 8)

لماذا نشعر بالحاجة إلى تضخيم الأشياء؟ هل لأننا نشعر، في اللاَّ وعي، أن الصوت الطَّنَّان هو وحده القادر على الوصول إلى الأسماع؟

وفي هذا الأسبوع، تفقد دمشق .. المدينة الجميلة التي تشبه القرية الطامحة شيئاً من هدوئها، وستلتفت إليها أنظار عشَّاق الأدب .. والأدب الذي يخالف البندقية في هذه المرحلة.

ومن الواضح، أن الأدباء والشعراء العرب المسافرين إلى دمشق لن يقفوا طويلاً على الحدود السُّوريَّة، ولن يجدوا مَنْ يناقشهم في الفجوة الجارحة بين القول والفعل، لأنهم سيُستَقْبَلُون استقبالاً رَسْمِيّاً، ويكونون بعيدين بعض الشيء عن قُرَّائهم الحقيقيِّيْن الذين يحملون البراءة وحقَّ طَرْح الأسئلة الصائبة والحادَّة في بعض الأحيان. ولكنهم سيرون بردى .. سيبحثون عنه .. وسيأخذهم المرشدون إليه. ثمَّ يمضون إلى قاعة المؤتمر الكبير. يستمعون إلى تقارير، يوافقون على القرارات والتوصيات التَّقليديَّة التي تؤكِّد وحدة الأُمَّة العربية وانتصارها الأكيد على الاستعمار والصِّهيونيَّة وأنصار التجزئة. فهل من أجل هذه النتيجة المعروفة تُقام كلُّ هذه الضَّجَّة، وتُنفق كلُّ هذه الأموال؟

أسئلة ٠٠ بريئة !!

الى الادباء العرب ٠٠
على هامش مؤتمر
الادباء في دمشق

بقلم : محمود درويش

لغز الارض والشمس

من ايام فرعون الى ايام غزو المريخ

تقرير : عزت السعدني ● رسوم : مكرم حنين

ام المعرضات !

وحدها ٠٠ وسط العمالقة

اعلانات مبوبة

هذا ليس سؤالاً، ولكنه تساؤل. وينبغي أن نعترف بأن صفة التَّقليديَّة التي تتمتَّع بها المؤتمرات الأدبية، وربَّما غير الأدبية، القائمة على المستويات الرَّسْمِيَّة، وعلى مستوى تمثيل الدول والحكومات، لم تعد صفة عربية أو عيباً عربيّاً بشكل عامٍّ، إن الأديب الجالس في مثل هذا الإطار حريص على أن يتجانس مع متطلَّبات العلم الذي يجلس في ظِلِّه. وليس العلم،

بشكل عامٍّ، متجانساً مع التراب الذي يمثِّله. وغياب هذا التجانس يطرح مسألة أوضح وأقرب إلى التناوُل، هي حُرِّيَّة الأديب واستقلاله النِّسبيّ عن المؤسَّسة الاجتماعية، ومسؤوليَّته الكبرى تجاه ضميره ورسالته، وتجاه سعيه إلى الاقتراب من الحقيقة. وهي مسألة مليئة بالتناقضات الشائكة في عالمنا العربي. ثمَّةَ فارق هائل بين الانتماء والولاء للوطن وبين الانتماء والولاء لبعض الذين يدَّعون الحماية الإلهية عليه. وثمَّةَ فارق بين الوطن على الطبيعة، وبين الوطن في الملفَّات الرَّسْمِيَّة، وفي جيوب الموظَّفين.

ثمَّ .. كيف تكون حليفاً للحُرِّيَّة في شرق آسيا من جهة، وبوقاً لسَحْق الحُرِّيَّة في بيتك؟

لن نظلم الأديب، ولن ندَّعي أنه المسؤول الوحيد عن مثل هذه التناقضات والمفارقات،

من البديهيات أن يكون المناخ الدِّيمقراطيُّ الشائع هو المسؤول الرَّئيسيّ. وهذا هو السؤال المشروع: هل يطرح الأدباء العرب - المنتشرون في قاعة المؤتمر أو في أسواق دمشق - قضية المناخ الدِّيمقراطيِّ أم يكتفون بالتأكيد على المُسلَّمات العامَّة، وبشَتْم إسرائيل والإمبريالية؟

وقد علمتُ أن الوفد الفلسطيني سيُقدِّم تقريراً إلى المؤتمر عن وضْع الكاتب الحربي تحت الاحتلال الإسرائيلي، وذلك موضوع يستحقُّ الطَّرْح والاطِّلاع، ويجدر بالمؤتمر أن يندِّد بإسرائيل، وبأن يبعث تحيَّات الأخوّة والتضامن إلى الأدباء العرب الرازحين تحت الاحتلال الإسرائيلي.

وهنا، يفرض نفسَهُ سؤالٌ آخر: هل يكون طرْح حُرِّيَّة الكاتب في الأرض المحتلَّة بديلاً لطرْح قضية حُرِّيَّة الكاتب في الأرض التي لم تُحتَلّ؟

على أيَّة حال، ليس نصف الكأس فارغاً كما يقولون. نريد أن نقول إن نصف الكأس ممتلئ، لأننا متفائلون أن انعقاد المؤتمر - بحَدِّ ذاته - فرصة

جميلة لِلّقاءات الشَّخصيَّة المباشرة بين الأدباء الزملاء، يتمُّ فيها تبادل المعرفة والتعارف وتبادل الخبرة في الحياة والإبداع الفنِّيّ. ولكنْ، سيكتشف كثيرون من الأدباء اللَّامعين - مجازاً - أن ثمَّةَ أزهاراً كثيرة قد تفتَّحت، وأن جيلاً جدِّيّاً في طريقة النَّظر إلى العالم، وفي طرائق الإبداع، قد أخذ يشكِّل تيَّاراً مُهمّاً وجادّاً في الحركة الأدبية العربية المعاصرة، ولم يأخذ حقَّه من الضوء والتصميم - ليس على مستوى القراءة فقط، بل على مستوى النُّقَّاد والأدباء أيضاً. وهذه الحقيقة ستطرح مسألة تتمتَّع بجانب من الأهمِّيَّة، وهي مسألة التلاقي والتعارف بين إبداعات الكُتَّاب العرب بشكل دائم، وليس بشكل مَوْسِمِيٍّ، لكي تمارس تفاعلها الضَّروريّ.

إن السوق الأدبية بحاجة ماسَّة إلى رواج في جميع البلدان العربية. وليس من الطَّبيعيِّ أن تلجأ بعض المؤلَّفات إلى مهنة تهريب نفسها.

ومن هنا، ينشأ سؤال آخر حول: حُرِّيَّة وحاجة القارئ والكاتب العربيَّيْن إلى معرفة ما يتمُّ إنجازه باللغة العربية. وليس من الطَّبيعيِّ أن يستمرَّ مَنْع بعض المؤلَّفات الأدبية من دخول مكتبات بعض الدول العربية. فهل نظلم المؤتمرين في دمشق لو طالبناهُم بالتَّوصُّل إلى قناعة مشتركة بهذا الشأن، وأن يتوصَّلوا إلى قرار، يدعو إلى الانفتاح الأدبي العربي من جهة، وإلى مطالبة المسؤولين برفْع الحصار عن الأدب؟ وهل من قائل إن هذا الموضوع يمسُّ المُحرَّمات، لأنه يقترب من معالجة المناخ الدِّيمقراطيِّ العامِّ؟

هذا أيضاً ليس سؤالاً. ولكنه تساؤل.

فليس من الطَّبيعيّ أن نتكلَّم عن الوَحْدة العربية والتنسيق العربي، في شتَّى المجالات، في الوقت الذي نُحرِّم فيه الأدب أو نمنعه عن ممارسة فاعليَّته في هذا الميدان. إن الإحساس بوحدة اللغة والإبداع الذي تُنجزه هذه اللغة أكثر قدرة على التأثير في الوجدان القومي من الخُطب

الحماسية المَوْسِمِيَّة. وفي الوقت الذي ينعقد فيه مؤتمر الأدباء العرب في دمشق، ينعقد مؤتمر أدبي آخر في العراق. لماذا؟

مرَّة أخرى نتساءل: متى يُتاح للأدب أن يمارِس استقلاله النِّسبيَّ خارج اللعبة السِّياسيَّة المفتَعَلَة؟ لا يمكن النَّظَر إلى ازدواجية عقد المؤتمرَيْن في وقت واحد، وفي عاصمَتَيْن عربيَّتَيْن، ببراءة وطيب قلب. هنا يجب الاتِّهام. حتَّى يكفَّ بعض المسؤولين عن معاملة الأدباء كما تُعامل الراقصات. إن عقد مؤتمرَيْن في وقت واحد، لا يشبه إقامة عرسَيْن في يوم واحد، حيثُ يتمُّ توزيع الراقصات وضاربات الدّفّ .. الأدباء ليسوا راقصات ومطربين.

وإذا كنَّا عاجزين عن تنسيق مؤتمر أدبي، فكيف نحلم بتنسيق عسكري أو سياسي؟

وتحيَّة إلى الأدباء العرب المجتمعين في دمشق ..

وتحيَّة إلى الأدباء المجتمعين في العراق .. وعفواً!

(الأهــرام 9 /12/ 1971) كان رفيقه في الرحلــة من بــيروت لدمشــق الصَّحَافيّ اللُّبنانــيّ طــلال ســلمان، وَفْق مــا كَتَبَهُ في الســفير عقب رحيــل درويش.

(2)
عزف منفرد فوق القانون

ينهمر الشِّعْر على العرب في كلِّ الفصول، غداً يُفرِغ القطار المسافر من بغداد إلى البصرة حمولتَهُ الثقيلة من الشعراء المدجَّجين بالقصائد والحناجر المصقولة.

وطيلة هذا الشهر، كانت بيروت تبدأ سهراتها باكراً، ثمَّ تنام على أصوات الشعراء، وتصحو على صورهم في الصُّحُف اليومية، وقبل ذلك تعبت أكفُّ الدِّمشقيِّيْن من التصفيق للشعراء، ولم تتعب.

شِعْر في كلِّ العواصم، ولم يذهب الغزاة، ولم يترجَّل الطغاة، وماذا بعد؟! ..

ماذا بعد؟! ستأتي بعد شهرَيْن ذكرى يونيو السادسة، وينهمر الشعراء منَّا، وتنطلق من العواصم العربية أصوات الشعراء، بعضها يبيع الأمل، وبعضها يَهبُ الرثاء، وبعضها ينهش اللحم، والجمهور الجالس في القاعات أو على أغصان الشجر يصفِّق .. يصفِّق، ثمَّ يكتشف بعد قليل أن التعويض النَّفْسِيَّ عن الأرض والوطن ليس إلَّا عذاباً، وماذا بعد؟! ماذا بعد؟!

ليست المسألة إقحاماً أو انفعالاً، كلُّ الشِّعْر العربي المقروء أو المسموع يدور في هذا المناخ السِّياسيِّ، ولم يتمكَّن من تجاوُزه، هذه هي القضية للمواطن وللشاعر على السواء. نقاتل أو لا نقاتل.

هذا هو السؤال؟ - الطاعون يُبصرنا جميعاً، والنجاة في الفنِّ عذاب ثالث، فما بالكَ عندما نكتشف أننا لم ننظم فنّاً، بل نَظَمْنا صراخاً، ولم نتكلَّم، بل أصدرْنا أصواتاً؟!

إن يونيو لا يعطي فنّاً جديداً. إنه لا يعرف (يونيو) إلّا موعداً في جدول الزمن. نذهب فيه إلى أقاربنا وأصدقائنا لنُقدِّم العزاء وتبرُّعات الدم، ونمضي فيه إلى أُسر الشهداء، لنكسوَهُم لُبَاباً منسوجة من مشاركة الدولة في الصلاة على الأرواح الطاهرة ..

وعود بالخلود، وتسميع العداء لليهود

وماذا بعد؟! ماذا بعد؟!

هذا النوع من يونيو لا يعطي فنّاً، ولا يضيف مزايا، لأن يونيو لم يكن صداعاً مُفاجئاً في رأس الأُمَّة العربية، ومَنْ يعامله على هذا الأساس يكون واحداً من أعراض يونيو.

إن القِيَم تتشابه وتتشابك في هذه الفوضى، ولكن الذين كانوا متوافقين مع مقدِّمات يونيو قبل وصوله ليس من حقِّهم الاعتراض، وإذا ارتفعت أصواتهم، فليس ذلك دليلاً على ثورية، بقَدْر ما هو دليل على نكاية وشماتة. ومن هنا تتشابك القِيَم، وتتشابه لأن الفوضى عامَّة.

وماذا يفعل الشاعر؟ إن التفاؤل أمر يومي، ويقولون إن الأمل هو ما يميِّز الشاعر الثَّوريَّ من الشاعر الرَّجعيِّ، ليس هذا صحيحاً بشكل مطلق. وليس صحيحاً بالصيغة التي يقتضيها "الأمر اليومي".

الأمل ليس أمراً، وليس مرسوماً، ووزراء الإعلام ليسوا وزراء للأمل.

الأمل شيء يشبه التغلغل في ثنايا الصراع والتحالف مع قوَّة ذات مصلحة حقيقية في إدارة الصراع لما يخدم الناس والوطن.

الأمل موقف إيجابي من حركة التاريخ، وليس ولاء لمؤسَّسة تملأ الصَّيدليَّات بأقراص الأمل، حتَّى لو كان من منتجات الصناعة الوطنية ولذلك فإن اليأس من ندرة هذه الأقراص على بعث العافية، يصبح شيئاً شديد القرابة من الأمل التَّاريخيِّ.

٦ - الاهرام - ٧٢/٣/٣١

عـــزف منفـــرد فـــوق القـــانون

بقلم
محمود درويش

ماكبث الجديد

بريشة : يوسف فرنسيس

بقلم الدكتور
لويس عـوض

السياسة الدولية

المطلوب الآن إدراك آخر لما تصيبه يأساً من التاريخ والوطن، ولكنه يأس من الذين حوَّلوا الوطن إلى مقاعد وسُبَاط.

وماذا يقول الشاعر؟ إن الاستشهاد فكرة خلَّاقة ومبدعة. وفي كلِّ بيت شهيد.

شهداء وشهداء وشهداء ينهمرون على الأرض العربية، وهم الحقيقة الصادقة الوحيدة في تاريخنا المعاصر. ولكنْ، لمَنْ؟ مَنْ يستثمرهم؟

إن فكرة استثمار الشهداء جُهَنَّمِيَّة ومُدبِّرة. لا يحقُّ لأحد أن يستثمرهم إلَّا الوطن، وماذا نرى؟ هل أنبتوا شجرة أو سنبلة؟!

لقد لفُّوهم بالأعلام الوطنية والأناشيد، واستثمروهم أوسمة وأموالاً وانقلابات.

باسمهم يقتلون الأحياء، ويقولون "الوطن .. الوطن .. الوطن" حتَّى أصبح المواطن العادي يغترب عن الوطن، ما له شارع ولا حديقة ولا تراب، لأنهم جَعَلُوه عاجزاً عن التمييز بين الوطن ومكتب الوزير.

إن الشهداء يموتون مرَّتَيْن: مرَّة برصاص الأعداء، ومرَّة بأكاذيب بعض الدُّعاة، صاروا سلالم، لمَ؟ ولمَنْ؟

ويقولون للشاعر كنْ متفائلاً، وانشر القِيَم الصالحة، لأنكَ شاعر الشعب. ويتساءل الشاعر عن الفارق الوحيد بين القِيَم وبين الأفيون. أيّ قِيَم يُروِّج؟ هل يُفرحُهُ أن العواصم باقية؟ وهل تملؤه هذه الحقيقة بالحماس والرضا؟ وما هي العاصمة؛ الشعب أم مكاتب حكومة وبنوك ومراكز الشرطة؟ وهل العاصمة تُعادِل أرضاً؟ ومَنْ يخدم الآخر العاصمة تخدم الوطن أم الوطن يخدم العاصمة؟

كنْ متفائلاً، ولا تكنْ انهزاميّاً! سأكون، سأنسى أن الحدود تقترب وتقترب من العواصم. وماذا بعد؟! ماذا بعد؟! لقد تعلَّمْنا من الغزاة أسباب انتصارهم أنهم مجتمع عسكري، وسنتغلَّب عليهم بالمِثْل، فلتصمتْ كلُّ الأصوات.

انقلاب وراء انقلاب ونحن صامتون.

ماذا يقول الشاعر؟ يخرج إلى الناس، ويقدِّم حَنْجَرَتَهُ، يقول لهم الحقيقة.

لقد ضاعت الحقيقة في النَّثْر، لأن الرقيب يفهم النَّثْر .. فإلى أن يتخرَّج فوج جديد يفهم الشِّعْر ما زالت أمام الحقيقة وأمام لحظات الصِّدق فسحة من الوقت. اِنْتَهِزُوْهَا، أيُّها الشعراء، وقولوا الحقيقة.

إن حاجتَنا إلى الحقيقة تعادِل حاجتَنا إلى جيش عصري.

لِينهمرِ الشِّعْر على العرب، يأساً أو أملاً. فليس مُهمّاً هذا السؤال!

الأهرام 31 / 3 / 1972

(3)
وضاع الشِّعْر في البصرة

لولا غابات النخيل المتعانقة على شطِّ العرب، ولولا النزهة القصيرة فوق الماء .. لقلتُ: ليتني لم أسافر إلى البصرة .. ليس في هذه المدينة الحافلة بالتاريخ ما يدعوكَ إلى الندم. ولكنكَ ما جئت إليها سائحاً، ولا مؤرِّخاً .. لقد جئتُ لحضور مهرجان للشِّعْر .. فماذا وَجَدْتُ؟

طوبى لمَنْ نجا من المجزرة. ومن شظايا القوافي المتلاحقة .. أكثر من أربعين شاعراً بكامل العتاد والعدَّة كانوا يتناوبون المنصّة، ذات الميكروفونات الأربعة في ثلاث أُمسيّات فقط، حتّى لا تعرفهم، شعراء أم سَحرَة .. الناس في القاعة المكتظّة ينامون قليلاً، ثمّ يصحون على انفجار قافية مُدوِّية .. من ركوب العِيْس، إلى الوقوف على أطلال فلسطين .. ومن الجاهلية حتّى القرن العشرين .. ومن ملاكمة بالهواء إلى مصارعة بالحناجر، ضاع الشِّعْر .. ضاع الشِّعْر .. حتّى كدتُ أكتشف أنه في مهرجان الشِّعْر .. يضيع الشِّعْر دائماً .. فهل أصبحت المهرجانات مقبرة للشِّعْر بالضرورة؟ ومَن المسؤول؟

يبدو لي أن عدَّة عوامل اشتركت في مهرجان الشِّعْر في البصرة لطرْح السؤال من جديد عن العلاقة بين الشِّعْر وبين الجمهور، وعن مفهوم الشِّعْر الجماهيري، وكانت الإجابة التَّطبيقيَّة عليها كما قدَّمها الشعراء تدعو إلى الكثير من الضَّجَر، وإعادة النَّظَر. لنتساءل أوَّلاً: ما هي الغاية من مهرجان الشِّعْر، أيِّ مهرجان؟ إذا كانت الغاية هي مخاطبة غرائز الناس، فقد نَجَحَ المهرجان.

الاهرام - ٧٢/٤/٢١ - ٧

وضاع الشعر في البصرة

بقلم: محمود درويش

الزهرة السوداء

بقلم الدكتور لويس عوض

وإذا كانت الغاية هي استعراض القدرة على تنويم الناس، فقد نَجَحَ المهرجان.

أمَّا إذا كانت الغاية تطوير الوجدان الفنِّيِّ لدى الجمهور، وتحويله من متلقٍّ سلبيٍّ إلى مشارك فعَّال في العلاقات الدَّاخليَّة والخارجية للقصيدة العربية الحديثة، فقد فشل المهرجان، ذلك لأن الجمهور الكبير الذي دَخَلَ القاعة متفرِّجاً، جَلَسَ فيها متفرِّجاً، وخَرَجَ منها متفرِّجاً، ولم يكسب إلَّا تواقيع الشعراء التي ستتحوَّل إلى ذكرى عزيزة ذات يوم.

لماذا؟

لأن صيغة المهرجان أو إطاره لم يكن مهذَّباً. فقد غاب الحَدُّ الأدنى من الانسجام بين مستويات الشعراء من جهة، وانتماءاتهم التَّاريخيَّة من جهة ثانية، وقد يعود ذلك إلى المَيْل نحو التَّمسُّك بسِحْر الكمِّيَّة. والكمِّيَّة هي أقرب ما تكون إلى خَلْق المظاهرة، والمظاهرات دائماً تؤذي الشِّعْر، لأن لها منطقها الخاصّ، ومتطلَّباتها الخاصَّة القائمة على الضجيج والمزاودة والقِيَم الأخرى غير الفنِّيَّة.

لماذا ينبغي أن نفرح باشتراك ما يزيد على أربعين شاعراً في مهرجان واحد؟ وهل هم حقّاً شعراء، ينتمون إلى عصرهم؟ إن التفاوت الذي يبلغ، أحياناً، حجم القرون فيما بينهم، وتفاوت همومهم الفنِّيّة والإنسانية، جعل من العسير أو المستحيل إدخال الجمهور المحايد فنِّيّاً إلى عالم الشّعر الحقيقي. لأن هذا الجمهور ما كاد يفيق من قصيدة جاهلية الهمّ والشكل، حتّى جاء شاعر آخر لينقلهُ مرّة واحدة إلى تركيبات القرن الأخير. ولا يكاد يقف على مشارف العصر حتّى يتصدّى له منجنيق ضخم، يعيده إلى العصور الوسطى. ولا تكاد الدموع تجفُّ على جراح الحسين حتّى يأتي شاعر معاصر من شوارع غرناطة.

إن هذا التفاوت التّاريخيّ بين هموم الشعراء ومستوياتهم يصلح أن يكون مرآة للتفاوت الراهن بين الجماهير العربية في شتى أقطارها. هذا صحيح، ولكن الإصرار على أن يكون حشد الشعراء لهذا الغرض يقلّل من طموحنا العطشان إلى الاقتراب من عصرنا، ومن توطيد فاعلية القصيدة الحديثة، ويحدُّ من قدرتنا على ترويض الأُذُن العربية على استيعاب البناء الجديد، فبدلاً من أن نبذل جهودنا ومواهبنا على البرهنة على انتهاء الدّور التّاريخيِّ للقصيدة الكلاسيكية، كان يجدر بنا أن نُوجِّه هذه الطاقات في تطوير القصيدة الحديثة وتقريبها من الوعي الفنّيّ للجمهور، وليس يُفرحُنا كثيراً أن يكون مهرجان البصرة انتصاراً للشِّعْر الحديث، خاصّة أن الأمر لم يكن كذلك، لأن المقاييس كانت مُختلّة.

من هنا، قد يكون من المفيد أن تُراعى في المستقبل مسألة التجانس بين الشعراء بأن تُكرّس اللقاءات الشّعْريّة وَفْقاً للعصور الفنِّيّة التي ينتمي إليها الشعراء دون الاهتمام بالصيغة التّقليديّة لمصطلح المهرجان. عندما يكون بوسع الشاعر تقديم بطاقته الفنِّيّة بعيداً عن التعامل مع الأكفّ، وبعيداً عن حلبة الصراع التي تجري فيها الملاكمة بالقصائد.

ولكن ذلك ليس كلّ شيء، ولم يكن الصراع محصوراً بين القديم والجديد فقط، وقد غاب ما يشبه التحالف بين شعراء الرؤيا الحديثة، بعكس ما شاهدْناه عند شعراء الرؤية القديمة. فكانت النتيجة أن سقط الشِّعْر القديم، وسَقَط الشِّعْر الحديث. وارتفع تمثال الخليل بن أحمد في ساحات البصرة وحيداً بلا أنصار أقوياء، وبلا خصوم أقوياء. خذلهُ أنصاره، ولم يؤثّر فيه أعداؤه. وقد تساوت الرداءة.

ويبدو أن الرداءة لا تاريخ لها. ولا زمن. فكما أن غالبية الشّعْر القديم كانت رديئة، كذلك كانت غالبية الشِّعْر الحديث رديئة. وأصبح من الصعب أن نردّ سبب الرداءة إلى الشكل. وليس الشكل وحده، دائماً، دليلاً على معاصرة الشاعر. إن بعض القصائد الحديثة الشكل كانت أكثر تخلّفاً بمفهوم الفنّ والقضية، من بعض القصائد القديمة. وبين هذيان الشِّعْر الحديث ورموزه المفتعلة من ناحية، وبين خطابيّته وتزلُّفه وأكاذيبه الشائعة لم يتمكّن من إقناعنا بجدوى المهرجانات الكبيرة.

وكان من المؤسف أن نرى بعض الشعراء الكبار - ممّنْ كانوا يستخفُّون بالجماهيرية - يجدون أنفسهم تحت ضغط المهرجان مندفعين نحو تملُّق غرائز الناس استجداءً للتصفيق، اعتقاداً منهم أن التصفيق هو معيار الجماهيرية. وتكون النتيجة مزدوجة في السوء: لا شِعْر، ولا جماهيرية. ليس الجمهور قطيعاً. وليس الجمهور ناقداً. والجماهيرية لا تعني الخطابية. فالجمهور قادر على استيعاب أعمق الشِّعْر وأكثره حداثة، إذا كان شعْراً حقيقيّاً يتعامل مع الهموم الحقيقية لا السّطحيّة للجمهور. وإذا قُدّم له في إطار لائق، وليس في مظاهرة أو مبارزة.

من هنا. ترتبط الجماهيرية بالموقف والقضية، وليس بالشكل. ليس هناك شكل جماهيري وشكل لا جماهيري.

وإذا كان الشعراء الحديثون مخلصين للجمهور والمُدُن على السواء،

فإن المعادلة لا تكون بمثل الصعوبة التي يتصوَّرونها، وقد تكون لقاءاتهم المتكرِّرة بالجمهور، في إطار الصِّدْق والإخلاص، البداية الصحيحة لتنمية الوعي الفنِّيِّ الحديث.

فكما أن الشاعر ليس مطربة أو راقصة، كذلك فإنه ليس لغزاً مستعصيا على الفَهْم. كلٌّ قابل للفَهْم والاستجابة، إذا كان حقيقيّاً وصادقاً. ولكن الذين يستبدلون قواعد الخليل بن أحمد بمقاييس الأكفِّ الملتهبة أو بقاذورات مقهى ليليٍّ، لا يحلُّ لهم أن يثوروا على القديم، ولا يستطيعون أن يقدِّموا الجديد. لا توجد قصيدة للقراءة، وقصيدة للإلقاء. القصيدة الجيِّدة تُقرَأ وتُلقَى، ولكن التناقض المزمن بين ضمير الشاعر وبين حَنْجَرَته هو المسؤول.

الشِّعْر بخير. والجمهور بخير. ولكن الصِّدْق هو الضمان. والمطلوب الآن البحث عن صيغة جديدة وإطار جديد لمهرجانات الشِّعْر، كي لا يضيع الشِّعْر في المهرجان، وكي لا نتَّهم الجمهور بالعجز، ولا نتَّهم الشِّعْر بالاغتراب.

وسلاماً على البصرة، وعلى غابات النخيل.

الأهرام 21/4 /1972

(4)
نحن نستمع .. ولا نقرأ!

رسالة بيروت

مرَّة أخرى، عن المهرجانات الشِّعْرِيَّة: يجيئون دائماً .. يملؤون المقاعد والممرَّات، ويفترشون الأرض.

يكسرون أبواب القاعات، ويجيئون دائماً، كأنهم مُقبِلون على عيد.

ليس الشِّعر بديلاً لشيء. ولكن الناس تحبُّ الشِّعْر. هل يحدث هذا في كلِّ مكان من العالم؟ نحن نسأل هذا السؤال عادة، لكي نطمئنَّ على سلامة صحَّتنا الحضارية والفنِّيَّة.

والكنني لستُ واحداً من المُولَعين بقياس أحجامنا بأمزجة الآخرين. ليس من الضَّروريِّ أن يحبُّ الأمريكيُّون الشِّعْر، لكي يكون إقبال العرب على الشِّعْر دليل عافية وحضارة. ثمَّةَ صفات تنفرد بها شعوب. الإنجليز يحبُّون الكلاب، وقد لا يحبُّون الشِّعْر كثيراً، والعرب يكرهون الكلاب، ويحبُّون الشِّعْر كثيراً. فلنتحرَّر، إذنْ، من الخجل إزاء وَلَعِنا الشائع بالشِّعْر، لأنه ليس منافياً للحضارة الحديثة والعلم، ولأنه تخلَّص من تهمة "أعذبُ الشِّعْر أكذبُهُ"، فقد رأيتُ الروس يذهبون إلى شعرائهم كأنهم ذاهبون إلى عرس. ورأيتُ الروس يستمعون إلى الشِّعْر كأنهم في كنيسة. والهنود رأيتُهم يستعملون القصائد للنوم بدلاً من الأقراص المنوِّمة، وغالباً ما يكون التعليق على الأُمسيَّات الشِّعْرِيَّة هذا السؤال المؤرِّق: هل تَهافُتُ العرب على الشِّعْر هو علامةُ صحَّةٍ أم مرضٍ؟

هنالك معطيات كثيرة، نستخرج منها بعض الإجابات عن سبب حُبّ العرب للشِّعْر، في مقدِّمتها أسباب تاريخية، يتطرّق بعضها إلى غياب أشكال التعبير الفنِّيَّة الأخرى.

ولكنَّ طَرْح السؤال على هذا النحو مَشوبٌ بسوء النِّيَّة، وبحُسن النّيّة، على السواء.

إن الذين يخافون ظاهرة اندفاع العرب نحو الشِّعْر الآن، يتذمَّرون من المظاهر السَّلبيَّة للحياة العربية أكثر ممّا يتذمّرون من الفنّ. فهم يخشون أن يُكلّف الشِّعْرَ، وحده، مهمَّةَ تطبيق الأحلام العربية الجميلة من بناء وانتصار وتقدُّم، ويخشون أن تكون القوافي بديلاً للقذائف، وأن تكون الأوزان بديلاً لخطط التنمية الاقتصادية. ليس من الذكاء القول: إن ذلك ليس ذَنْب الشِّعْر، بل هو ذَنْب العاطفية الشِّعْريَّة في التفكير السِّياسيّ العربي.

من هنا، نلاحظ أن أسباب الخوف من انتشار الشِّعْر يحدوها ضيقٌ شرْعيٌّ من السَّلبيّات والرُّوحانيّات العربية، في مرحلة تفترس الحكمة، وتجعل الأمل شديد الحياء والتَّردُّد.

ولكنْ، لا يصعب علينا أن نعثر على جانب آخر، أكثر إيجابية، لهذا المظهر. أنا شخصيّاً أُردف الشِّعْر الحقيقي دائماً بالصِّدْق والشجاعة والطموح. عندما يكذب الآخرون، يصدُق الشِّعْر. وأرى في تهافت الناس على الشِّعْر عَطشاً وجدانيّاً دائماً إلى الصِّدْق والطموح. وأرى في هذه الظاهرة دليل صحّة نَفْسيَّة، قد تنمو وقد تُصاب بمرض مفاجئ. ولكن المسألة تتوقّف، في نهاية الأمر، على مدى احتفاظ الشِّعْر بالصِّدْق والشجاعة والأصالة. ولكي لا نظلم المتشائمين ينبغي أن نُعلن اعترافنا بأن المهرجانات الشِّعْريَّة هي تربة خصبة لازدهار الانتهازية الفنِّيَّة، إذا صحّ التعبير. ولقد تطرّقتُ إلى هذه النقطة - دون أن أسمعها - في تعليقي على مهرجان البصرة. (أبريل1972) إن الانتهازية الفنِّيَّة ابنة

رسالة بيروت

نحن نستمع ..ولانقرأ!

محمود درويش

فجوة بين الجيل القديم والجيل الجديد

بقلم الدكتور: خليل مظهر

شَرْعِيَّة للانتهازية السِّياسيَّة، حين يقوم الشعراء - بواسطة حَمَلَة حقائبهم أو بدونهم - برَصْد درجة غليان دم الناس وميولهم السِّياسيَّة أو الطَّائفيَّة - فيُخضِعُون قصائدهم لهذا الاعتبار. لا أريد الإساءة إلى أحد حين أقول إن تغيير عناوين القصائد وأسماء الشهداء الذين تخاطبهم هذه القصائد، من قاعة إلى قاعة، ومن عاصمة إلى عاصمة، وَفْقاً لمدى انتماء الجمهور هنا أو هناك إلى عقائد هؤلاء الشهداء، هو تعبير بدائي وبذيء عن الانتهازية الفنِّيَّة، وعن الانتهازية السِّياسيَّة. ولكن هذه الظاهرة ليست فنِّيَّة، إنها صفة خُلُقِيَّة. وليس بوسعها أن تدفع أحداً إلى إعادة النَّظَر بظاهرة الحُبِّ الجماهيري للشِّعْر.

وينشأ، هنا، سؤال: هل يصلح الإقبال الكبير على المهرجانات الشِّعْرِيَّة مقياساً للحُكْم على مستوى التّذوُّق العامِّ للشِّعْر؟

إن أرقام التوزيع لدى دُوْر النَّشْر العربية تشير في السنوات الأخيرة إلى انخفاض ملحوظ في توزيع كُتُب الشِّعْر. وإن الشاعر الجيّد - مع استثناءات صارمة - لا يُوزِّع أكثر من ألفي نسخة، بينما بوسعه أن يجتذب أكثر من خمسين ألف مستمع في الفترة نفسها التي يستغرقها توزيع كتابه.

ماذا تعني هذه الإحصائية؟

إنها تؤكِّد حقيقة سهلة، نعرفها جميعاً، وربَّما لم نعثر على تسميتها حتَّى الآن. وهي: أن الجمهور العربي هو جمهور مستمع، وليس جمهورا قارئاً. إن الأُذُن عندنا هي الطريق الوحيد نحو المعرفة.

تترتَّب عن ذلك خطورة المهمَّة التي يحتلُّها مَنْ يديرون وسائل التعامل مع هذه الحاسَّة الخطيرة. إن الميكروفون هو الديكتاتور الحقيقي لثلاثة أرباع العرب. فماذا يعني ذلك بالنسبة لحديثنا عن الشِّعْر؟ إنه تحريض للقصيدة الحقيقية الحديثة للخروج من الكتاب إلى الأُذُن العربية.

ابو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

وما دام طَبْع الشِّعْر عن أسطوانات حُلْماً لم يتحقَّق، فلا مفرّ من التعامل مع الميكروفون .. مع الأُمسيَّات الشِّعْرِيَّة. من شأن هذا التعامل أن يُعمِّق التفاعل بين الجمهور الذي يسمع ولا يقرأ، وبين هموم الشاعر الحديث. ومن شأنه أن يحقِّق الأُلفة التَّدريجيَّة بين الأذن المعتادة على الإيقاع القديم وبين بناء القصيدة الحديثة. فإن إيقاع مئات السنين الراسخ في الأُذُن العربية يصعب ترويضه في أُمسيَّات قليلة. يكفي في البداية أن نحصل من الجمهور على "الصمت المستمع" إذا جاز التعبير.

إن الأُلفة بين القصيدة القديمة وبين الجمهور ليست أُلفة غريزية، ولكنها أُلفة مكتَسَبَة. بوسع القصيدة الحديثة أن تكسب هذه الأُلفة بالترويض التّدريجيّ في الأُمسيّات الشّعْريّة ذات المستوى المهذّب، وبعدها يصبح من الممكن بلورة جمهور قادم للاستماع إلى الشّعْر، وليس لقضاء سهرة.

ولا يعني ذلك أن بمقدور الأُمسيّات الشّعْريّة أن تحلّ قضايا التفاعل - لا الانفعال - بين الجمهور الواسع وبين القصيدة الحديثة. فإن حَلّ القضية لا يكون ذاتياً ولا نهائياً، ما دامت الأُمّيّة تحتلُّ هذه النسبة العالية عند العرب.

الثورة الفنّيّة لا تتحقّق تحقُّقاً كاملاً إلّا بالثورة الاجتماعية أوّلاً. وإن تحقيق الانسجام بين مستوى ثقافة الشاعر وتصوُّره للعالم وللفنّ وبين المستوى الثّقافيّ العامّ لا تحلُّه قصيدة، ولا مهرجان. وعلى الرَّغْم من ذلك، وما دام الحديث دائراً عن جمهور الشّعْر في الإطار القائم، فإنه من الممكن تحقيق مزيد من التّطوُّر ضمن الشكل الحالي لدى الجمهور الذي يفضّل حاسَّة السّمع على حاسَّة البصر، وقد يُطرَح سؤال: ما دَوْر الإذاعات في هذا الميدان؟

إن بعض الشعراء مَدينون بشهرتهم لدى أوساط واسعة إلى حَنْجَرَة بعض المطربين.

وتلك قضية مأساوية بحَدّ ذاتها. فباستثناء نزار قبّاني، يمكن القول إن أتفه الشعراء العرب المعاصرين هم أكثر الشعراء شهرة عن طريق الإذاعة، لأن العرب يسمعون ولا يقرؤون، ولأن الميكروفون - الديكتاتور هو الذي يتعامل مع حاسَّة العرب إلى المعرفة، وفي الإذاعات برامج شِعْرِيَّة، يحكمها ذوق رَسْمِيّ - يوجّهه دافعان: إمَّا ترويج الهموم العاطفية

البدائية المغتربة عن العصر، وإمَّا الهموم الدِّعائيَّة التي تتعاطى شعْر الإيجابيات والتفاؤل الموظَّف والفرح الرَّسْمِيّ.

إذنْ، ما العمل؟

ليست لديّ إجابة إلَّا القول إن إقبال العرب على الشِّعْر هو ظاهرة صحِّيَّة، وستزداد نُمُوّاً إذا تحوَّل جمهور الشِّعْر من جمهور مستمع إلى جمهور قارئ. أمَّا كيف يحدث ذلك؟ فليس لديَّ إجابة إلَّا القول بأن ذلك سيحدث، إذا توفَّر المناخ الصَّحِّيُّ، فلنعمل من أجل المستقبل منذُ الآن.

الأهرام 19 / 5 / 1972

(5)
الشِّعْر يعلن حضوره

رسالة من هولندا

كانت متعتي ناقصة، فإن الانتقال السريع من حرارة الشرق الأوسط المرتفعة إلى برودة بلاد بحر الشَّمال - قد جرَّني من قاعة مهرجان الشِّعْر، ومن صحبة شعراء العالم إلى غرفة موصَدة في الفندق، بصحبة الطبيب والأدوية، هكذا فَقَدْتُ كثيراً من المتعة الفنِّيَّة والفضولية، ومن القدرة على تكوين انطباع قريب من الصِّحَّة عن مهرجان الشِّعْر الدَّوليِّ الذي انعقد في روترادم في العشرين من يونيو (حزيران) حتَّى الخامس والعشرين منه، واشترك فيه خمسة وعشرون شاعراً من قارَّات العالم.

لم يتضمَّن جدول أعمال المهرجان شيئاً عدا القراءات الشِّعْرِيَّة الموزَّعة على خمس أُمسيَّات، منها: أُمسيَّة الشعراء الأوروبيِّيْن، وأُمسيَّة الشعراء من غير الأوروبيِّيْن، وأُمسيَّة شِعْر الاحتجاج، والأُمسيَّة الختامية التي اشترك فيها كلُّ الشعراء.

ولم يكن هذا التوزيع حسب القارَّة توزيعاً دقيقاً، فإن الشعراء الأوروبيِّيْن اشتركوا في أُمسيَّة شِعْر الاحتجاج. كما أن الشعراء غير الأوروبيِّيْن اشتركوا في أُمسيَّة شِعْر الاحتجاج، حتَّى كدْنا نقسم المهرجان إلى شِعْر احتجاج، ولا شِعْر احتجاج، لولا أن بعض الشعراء غير المعروفين بشِعْرهم السِّياسيِّ الاحتجاجي مثل الإنجليزي ستيفن سبندر قد اشترك في أُمسيَّة شِعْر الاحتجاج.

وعلى هذا الأساس، ضاع الحَدُّ الفاصل بين الليالي الشِّعْرِيَّة، وصارت

عناوين الليالي مجازية. ويبدو أن ذلك من طبيعة الشِّعْر الذي يكتسح فيضانه سدود التصنيفات، ولو كانت عالية. وإن ذوبان الليالي الأوروبية بالآسيوية بالإفريقية وانصهارها في ليلة الاحتجاج، كان أبرز حَدَث فنّي ومعنوي في المهرجان. فلم يأخذ الاحتجاج شكل اللون الذي يطلب المساواة باللون الآخر، ولم يحمل صرخة الفقير الذي يطلب المساواة بالغنيّ .. لقد أخذ شكل الموقف المتكامل من الفنّ والحياة على السواء. جرى هذا في الوقت الذي كان فيه بعض شعراء إنجلترا الشباب يعلنون انحسار موجة الاحتجاج من الشِّعْر المعاصر، لتترك خلفها هموماً ذاتية أو عودة إلى النَّفْس! وكأن أصحاب هذا الرأي يضعون الاحتجاج عاملاً خارجياً متعارضاً مع داخل النَّفْس البشرية - لقد سئمْنا التضامن مع فيتنام - بهذه الصيغة التَّبسيطيّة يلخِّصون بؤس إدراكهم للاحتجاج.

إن الاحتجاج بهذا المفهوم - بمفهوم التضامن البارد ذي المطلب الأُحادي الجانب لا يعطي شِعْراً قادراً على الصمود أمام تغيُّر المناخ والمزاج. ولكن الاحتجاج - بمفهوم الرَّفْض الأعمق، وتعبيراً عن الشعور بالحساسية المفرطة تجاه كلّ ما هو ظلم، وكلّ ما هو مشوّه للانسجام الإنساني - هو شيء آخر، لا يمكن أن يكون خارجيّاً. إنه داخلي بقَدْر ما يكون الحُبُّ داخليّاً.

وليس شِعْر الاحتجاج في عالمنا المعاصر مقتصراً على الشعوب المضطَهَدَة أو المستعْبَدَة الساعية نحو استقلالها وتحرُّرها. ولعلّ منشأ المصطلح، تاريخيّاً، ينبع من موقف الاحتجاج الذي يعلنه ويمارسه قطاع من الناس داخل مجتمع معيَّن ضدّ طبيعة حُكْم هذا المجتمع. وهذا القطاع من الناس يتمثّل بقوى سياسية أو منظّمات مُنظَّمة أو فوضوية، تُجمع على رَفْض طبيعة الحُكْم من أساسه. ولعلّ أكثر نَفَس شائع ولافت للنظر في الشِّعْر الأمريكي الآن هو شِعْر الاحتجاج سواء كان قصائد أم أغاني أم مسرحيات شِعْريّة غنائية.

شركة ترسانة الإسكندرية

باب جمرك ٣٦ – القباري

فتح باب القيد في سجل الموردين والمقاولين

أولا – الموردون

رسالة من هولندا

الشعر يعلن حضوره

بقلم: محمود درويش

ومن هنا، لم تكن ليلة الاحتجاج في روتردام مقتصرة على السّنغاليّ والأكوادوري والنّيجيريّ والفلسطيني، بل تضمَّنت أيضاً السّويديّ والإنجليزي، وإن كان الأخير دليلاً قويّاً على المعنى السَّلبيِّ لشِعْر الاحتجاج الذي لا يُشكِّل الاحتجاج عنده موقفاً منسجماً من الحياة بقَدْر ما يشكّل لحظة تضامن، وَصَفَتْهُ فتاة هولندية ذكيَّة بأنه: "مثل اللورد الإنجليزي الذي يُدخِّن الغليون في حديقة المنزل، ثمَّ يفتح الصحيفة، فيقرأ خبراً عن مذبحة في فيتنام، فيقرِّر أن الموقف يستدعي منه بعض أبيات من الشِّعْر!".

وبهذا المعنى، كان الآخرون هم شعراء الاحتجاج فعلاً، على الرَّغْمِ من أن المصطلح يتَّسع لممثِّلين أكثر جدراة وحقيقة من بين صفوف الشعراء الإنجليز والمستمعين على السواء.

ليس المناخ، وحده، هو البارد في هولندا. كان التفاعل بين الشعراء

وبين الجمهور يتوازى مع برودة الطقس. وكانت السهرات الشِّعْريَّة الممتدَّة من الثامنة والربع مساء حتَّى الساعات الأولى من الصباح غالباً ما تكون مليئة بالضَّجَر، لولا البوفيه الموضوع على حافَّة القصائد، ولولا الشقراوات الهولنديات الموزَّعات في أحضان القوافي وأحضان أصدقائهنَّ. وكان دَوْر الشاعر - وبحُسن نيَّة - يشبه دَوْر مغنِّي الكباريه، يغنِّي والناس تسكر أو تعانق بعضها أو تنام، على الرَّغْم من أن المنصَّة شهدت تتابع شعراء كبار عليها.

كان يصعب عليكَ، أحياناً كثيرة، أن تعرف متى يبدأ الشِّعْر ومتى ينتهي الشِّعْر. ولقد أدرك شعراء الاحتجاج أن هذا الجوَّ لن يكون لائقاً بطبيعة الاحتجاج نفسه، وأنه لا بدَّ من أن يستردَّ الشاعر سلطانه الشَّرقيَّ، إذا جاز التعبير، فغيَّروا نظام القاعة ومقاعدها، وحشدوا الجوَّ بموسيقى وأناشيد حماسية، فانتشرت الحرارة في الجوِّ الهولندي البارد. وعندما بدأ الشِّعْر، كنتَ ترى الناس يتنازلون عن النَّصِّ الذي يتضمَّن ترجمة إلى ثلاث لغات .. الهولندية والفرنسية والإنجليزية - لما يسمعونه من شعْر باللغة الأصلية، لا ترى زجاجات البيرة، ولا أقداح الشاي والقهوة، ولا عناق الأحباب، وكان هذا المظهر يدلُّكَ على المكانة التي تحتلُّها المسألة النِّضاليَّة في نفوس الناس. الشِّعْر والقتال - صنوان. عندما يقاتل الشِّعْر ويقتحم ويغامر يستوقف الناس ويثير إعجابهم. وعندما ينام الشِّعْر - ينام الناس معه. والعيون الهولندية التي كانت قبل ليلة تشبه الزجاج تتحوَّل الليلة إلى أمواج. لماذا؟ لأن الشِّعْر المقاتل حرَّكَها وحَرَّكَها ونَقلَها إلى طَقْس آخر. هذا أوَّلاً. وثانياً - وَجَدْنا دليلاً آخر على بديهية قديمة: بقَدْر ما يكون الشِّعر محلِّيّاً يكون قابلاً للتصدير، إذا جاز التعبير. العالمية تبدأ دائماً من المحلِّيَّة. والكثيرون منَّا غالباً ما يطمحون إلى السَّيْر على طريق معكوس.

وبذلك لا نكون محلِّيِّيْن، ولا نكون عالميِّيْن. لم أرَ أديباً يشعر بعقدة العالمية كما يشعر بها الأديب العربي. إنها همُّهُ وأرقُهُ. ولكنها بين يَدَيْه دون أن يدري.

ليست جزيرة كريت أكبر من أستراليا .. لقد كَتَبَ عنها كازانتزاكي قصَّة محلِّيَّة، أصبحت من قِمَمِ الأدب العالمي، ولم تعطِ أستراليا شيئاً.

ما شأن هذا بمهرجان روتردام؟ لقد أعطى شعراء الاحتجاج هموم بلادهم بصفاء وصِدْق، فاستجاب لهم جمهور محايد إلى درجة البرود. لأن البضاعة بقَدْر ما تكون - محلِّيَّة - تكون قابلة للتصدير.

وماذا في روتردام أيضاً؟

استوقفتْني ظاهرة أخرى، لأنها شديدة القرب ببراءة الشِّعْر. هذا هو العام الثالث الذي ينعقد فيه مهرجان الشِّعْر في هذه المدينة الجميلة. في السنة الماضية اشترك العظيم من تشيلي بابلو نيرودا. وفي هذا العام، كانوا ينتظرون السُّوفييتيّ أندريه فوزنسنسكي.. لم يعثروا عليه في موسكو، فأُصيبوا بالخيبة، وظنُّوا أن المهرجان سيمرُّ بدون قنبلة. ولكن القنبلة انفجرت فجأة. لقد فجَّرها الأطفال.

كيف؟

جاء من الولايات المتَّحدة الشاعر والكاتب المسرحيّ كينيث كوتش المشغول أخيراً بابتكار علْم جديد هو: تعليم الأطفال كتابة الشِّعْر، وقد ألّف كتاباً مُهمّاً وخطيراً عن هذا الموضوع، صَدَرَ في نيويورك عام 1970، وهو سعيد بموضوعه سعادة تمتلك كلّ ما فيه من حيوية متفجِّرة ونَهَم إلى الحياة.

والتهم أربعة ساندوتشات ضخمة من اللحم البارد وإبريقاً من القهوة، ثمَّ وَقَفَ، وقال: ألَا تجيء معي؟

قلتُ: إلى أين؟ قال "إلى مدرسة الأطفال، لترى كيف أُعلِّم الأطفالَ الشِّعْرَ. اعتذرتُ قائلاً إني ذاهب إلى أمستردام. فَنَصَحَني بألَّا أتغيَّب عن ندوة الليلة، لأن فيها مفاجأة. عدتُ من أمستردام، فَوَجَدْتُ المفاجأة:

حوالي عشرة أطفال تتراوح أعمارهم بين السادسة والعاشرة يقرؤون من شِعْرهم في مهرجان الشِّعْر الدّوليّ، فأثاروا في الجمهور صحوة قوية، وفرحاً جميلاً. وكانوا هم القنبلة. كنتُ واقفاً قرب الفرنسي ميشيل دوغي. فهمستُ: الأطفال يهزمون الشعراء. فتدخَّل بريتنباخ من جنوب إفريقيا قائلاً: إن عندهم من الشِّعْر أكثر ممَّا لدى نصف الشعراء الكبار هنا.

ماذا فعل الأمريكي كوتش؟

منذُ وصوله إلى روتردام وهو يعكف على زيارة المدارس واختبار مواهب الأطفال الشِّعْرِيَّة، إلى أن وَقَعَ اختياره على هذه المجموعة، ولا شكَّ أن العمل الذي يُنفق فيه وقته يشبه ارتياد آفاق مجهولة، ولكنها مليئة بالجمال والعذوبة والبراءة.

وماذا أيضاً؟

كانت متعتي ناقصة، لأنني لم أتمكّن من ملاحقة كلِّ نشاط مهرجان الشِّعْر، بسبب المرض الذي ألزمني الفراش، على الرَّغْم من أن المسؤولين الهولنديِّينْ عن المهرجان كانوا مرهفي الذوق بعدم تحميله من الموضوعات والبرامج ما يجعله مرهِقاً، كما هي العادة في مثل هذه المناسبات.

كانت الأيّام الخمسة مكرّسة لإلقاء الشِّعْر. ولمناقشة بعض قضايا ترجمة الشِّعْر، فكان المهرجان فرصة جميلة للقاء الشعراء، وإعادة التأكيد على بعض القِيَم الشِّعْرِيَّة، وحضور الشِّعْر في العالم.

ولعلَّ أكثر ما يُفرِحُني في هذه اللقاءات هو: أن الشِّعْر يعلن عن حضوره المضني في هذا العصر.

ولا يكون إعلان هذا الحضور مؤثِّراً إلَّا إذا كان شاملاً وعالميّاً. لأن عنف العصر ولا شاعريّته شاملان وعالميان كذلك.

الأهرام 30 /6 / 1972

(6)
حتَّى تصبح يا وطني .. وطني

لا بدَّ أن يكون شاعراً مَنْ يجمع جمال الطبيعة .. والمأساة!

هكذا يقول أديب فلسطيني، للبرهنة على أن الفلسطينيِّيْن شعراء بالفطرة، حتَّى وإن لم يكتبوا شِعْراً.

ولقد قادتْني هذه اللمحة العذبة إلى تسجيل فارق بين الشَّاعريَّة والشِّعْر .. فالشَّاعريّة لا تعطي الشِّعْر دائماً، وان كانت من جوهر الشِّعْر .. لأن الشَّاعريَّة حسٌّ جماليٌّ وتعبيريٌّ، وأمَّا الشِّعْر، فإبداع. قد يكون كلٌّ من الرَّسَّام والرِّوائيِّ والنَّحَّات والمصوِّر شاعريّاً، ولكنهم ليسوا شعراء، من هنا، يكون صحيحاً أن جمال الطبيعة والمأساة تُلهبان الشَّاعريّة. ومن هنا أيضاً، يكون الأديب الفلسطيني مفهوماً في حماسه لفردوسه المفقود، الذي جَعَلَهُ يبتكر هذه الملاحظة الفنِّيَّة المجازية العذبة.

ولم تكن هذه الملاحظة بعيدة عن التوافق مع الواقع في مرحلة من مراحل معاناة الفلسطينيِّيْن، يوم كان شِعْرهم حنيناً إلى أشياء الطبيعة الضائعة والمنتظرة، ويوم كانت نكبتهم في بدايتها، وَجَعاً في اللحم، ولكنها لم تستقرّ في الوعي بعد.

قد يتحرَّر الشِّعْر الفلسطيني، في كلّ مراحله، من عناصر كثيرة، ولكنه لا يستطيع التَّخلُّص من قطبَيْن: الطبيعة ومشتقَّاتها، والنكبة وآثارها.

ولكنَّ هذَيْن القطبَيْن وحدهما عاجزان عن خَلْق شعراء من ناحية، وعاجزان، أيضاً، عن الاستمرار في تشكيل مادَّة الشعراء، وإلَّا إذا طرأت

على النكبة تحوُّلات أساسية، نَقَلَتْها من موقع الشكوى من الخيمة والزمان، إلى موقع الثورة حتَّى وَصَلْنا أخيراً إلى ضرورة طرْح السؤال: إلى أين وَصَلَ الشِّعْر الفلسطيني؟

كثر الكلام حول شِعْر المقاومة، حتَّى صار زيّاً أدبيّاً، ملَّهُ النُّقَّاد والقُرّاء، فسَكَتَ الكلام عن هذا الشِّعْر، انسجاماً مع هالة الانكسار العربي الشائعة في هذه المرحلة. ولكنَّ النُّقَّاد بدؤوا يشعرون بالحياء من وجوههم في المرايا على ما يبدو، حين خَفَّتْ حُمَّى الحماس، مع ارتفاع المزيد من الهزائم، فضاعت القِيَم التي مثَّلها شِعْر المقاومة، وهي ليست قِيَماً فنِّيَّة على أيّة حال .. هل ترون؟

حذَّرناكم مراراً من مخاطر رَبْط الشِّعْر بالأخبار والموجات. تغيَّرت الأخبار، وانكسرت موجات، فماذا تبقَّى من الشِّعْر؟ هكذا يقول مراقب محايد - مثلاً - كان يخبِّئ صيحته براحة كفِّه خوفاً من الفضيحة والتهمة، يوم كانت يد النَّقْد مشلولة ومحكومة باللعنة، إذا امتدَّت إلى قصيدة مقاومة .. والشعراء؟ بعضهم كان يختال، في الهزيمة، كالطاووس .. ونشأ للمرَّة الأولى نوع من المخلوقات، لا يترعرع ولا يزدهر إلَّا في مناخ الهزائم .. فلولاها - لولا هذه الهزيمة المتَّصلة - مَنْ كان يصغي إلى شِعْره الذي لا قيمة له، سوى كونه صادراً من صدر العدوِّ؟!

والشِّعْر النامي في هذا المناخ قصير، قصير .. وها هم النُّقَّاد والقُرّاء يرتدُّون عنه اليوم .. والانتصار إذا حَدَث، لن يعودَ عليهم بحظٍّ أوفر .. هل ترون مرَّة أخرى؟ لقد حذَّرناكم مراراً من ولوج باب الشِّعْر بمفاتيح غير فنِّيَّة .. فإن كلَّ شيء قابل للضياع. وأمن دولة العدوِّ أصبح ملتحماً بأمن بعض الدول العربية مثلاً .. وبالنسبة إليها، صارت المعادلة بالشكل التالي: بقَدْر ما تكون حدود العدوِّ آمنة، تكون الأوضاع العربية الدَّاخليَّة مستقرَّة، والعواصم في مأمن من ضربات الانتقام .. وهذا هو المعنى

الاهرام - ١٤/٧/٧٢ - ٧

من أبنوب الى الأشمونين وتونة الجبل

بقلم الدكتور حسين فوزي

حتى تصبح ياوطنى .. وطنى

بقلم: محمود درويش

مقاييس الطول والضغط وآلات المراقبة

التى تنتجها

FINE MECHANIC WORKS-BUCHAREST

تلبى جميع احتياجات المصنع فالمناسب الرئيسية المستعملة في آلات القياس والمراقبة تصنع من أجود المواد التى تعالج حراريا مما يجعلها تخدم لمدة أطول وتوفر الأمان في العمل

المصدر:

مكتب رومانيا التجاري

الوحيد، الوحيد، الوحيد لذَبْح الفلسطيني أو طَرْده أو مَنْعه من العمل السِّياسيِّ والعسكري .. لأن هذا الفلسطينيَّ يشكِّل خَلَلاً في المعادلة الأمنية المذكورة.

ولا أباهي، الآن، بأني كنتُ واحداً من أوائل الذين اشتركوا في محاولة

تفريق مظاهرة الحُبِّ الصاخبة لشِعْر المقاومة، لا اعتراضاً على ذلك الحُبِّ، بل محاولة لتنقيته من الأسباب المزاجية المعرَّضة للزوال السريع .. لا أتباهى الآن، ولا أشمت، وعندما أحتجُّ على التذبذب الشائع، وعلى ظاهرة التقييم على الشِّعْر الفلسطيني الحديث المنتشرة في هذه المرحلة .. وحين أستخدم مصطلح "الشِّعْر الفلسطيني"، فإني لا أقصد شِعْر الداخل أو شِعْر الخارج .. بل أقصد الحركة الشِّعْرِيَّة الفلسطينية عامَّة .. وأنا لستُ واحداً من المولعين بهواية البحث عن الفروق بين شِعْر الداخل وشِعْر الخارج، فكلاهما يُكمل الآخر، وبدونه لا يكون من السهل إجراء عملية تقييم للشِّعْر الفلسطيني، الذي يشكِّل تيَّاراً من أغنى تيَّارات الشِّعْر العربي المعاصر، وأكثرها التصاقاً بالحركة والحيوية.

ولا يحتاج الكاتب إلى جهد خاصٍّ لملاحظة أن تسليط الضوء الكاشف على شِعْر الداخل، قد ألحق بعض الظلم والأعمال بشِعْر الخارج، في الوقت الذي كان فيه الأخير أكثر إرهاصاً بالثورة، بينما كان الأوَّل مُكرّماً لحالة الصمود والانتظار.

وإذا شئْنا الإجابة عن السؤال المطروح: إلى أين وَصَلَ الشِّعْر الفلسطيني؟ فلا بدَّ لنا من وقفة خاصَّة عند مجموعة من الشعراء الجدد، ذات تجربة فريدة، تختلف عن تجارب منْ سَبَقَهُم من الشعراء الفلسطينيِّيْن المعروفين .. ولا يسع المرء إلَّا إعلان حزنه، لأن تجارب هؤلاء الشعراء الشباب تمرُّ دون رعاية نَقْدِيَّة، ودون تعميم صَحَافيٍّ.

ولقد تعرَّفتُ على هؤلاء الشعراء في الآونة الأخيرة من خلال مجموعة شِعْرِيَّة، تضمَّنت نماذج من قصائدهم، تحت عنوان "قصائد منقوشة على مسلَّة الأشرفية"، (صَدَرَ عن اتِّحاد الكُتَّاب العرب 1971) أو شعراء الحركة الفدائية .. هؤلاء شعراء ثورة، ليس بمعنى أنهم شعراء ثوريُّون؛ وليس بمعنى أنهم ينتمون - فكريّاً - إلى ثورة .. وإنما بكلِّ المعنى المباشر للكلمة .. بمعنى أنهم يمارسون العمل الفدائي، ويستمدُّون كلَّ تجاربهم الأدبية من

هذه الممارسة .. كلُّ واحد منهم على انفراد، وهم - كمجموعة - يمثّلون تجربة تحوُّل اللاّجئ الفلسطيني إلى مقاتل فلسطيني، بكلّ ما يعنيه هذا التّحوُّل من تجارب ومدلولات.

نحن نشكو دائماً من أن الشاعر الثّوريّ يصف الثورة، ولا يمارسها .. أمّا هؤلاء الشعراء - أو معظمهم - فيشتركون في صُنع الثورة .. بعضهم قضى طفولته وصباه وشبابه في المخيّمات، ثمّ كان ردُّه على هزيمة سنة 1967، الانتقال إلى الخنادق، وتلك - ولا شكّ - تجربة مثيرة وغنية وجديدة .. كيف يخرج الشِّعْر من الخندق؟

ينبغي لنا منذُ البداية ألّا نحمل معايير في حجم تصوُّر هذه التجربة، فالخندق ليس ضماناً لخَلْق شِعْر جيِّد، هذا صحيح .. ولكن الصحيح أيضاً هو أن الخندق تجربة ممتازة، وضمان لصقل الشاعر الجيِّد.

هل انطلق هؤلاء الشعراء إلى الخنادق، بحثاً عن تجربة استطلاعية فنّيّة؟ كلّا .. فقد ذهبوا إلى الخنادق شباباً وطنيِّيْن، آمنوا بأن الخندق هو طريق خلاصهم من التَّشرُّد، وهو طريقهم إلى العودة، وآمنوا بأن الخندق هو الشكل الوحيد لتحقيق جدارتهم وجدارة شعبهم بالحياة .. وفي الخندق، وفي ساعات فراغهم، كانوا يقولون الشِّعْر .. وهذا فارق كبير بين الشاعر الذي يذهب باحثاً عن تجربة، وبين التجربة التي تعطي شِعْراً.

إنهم مقاتلون، ولكنْ، حين يعلن المقاتل تجربته ومشاعره كلمات منشورة على الناس، فليس من حقِّه علينا أن نعتبره شاعراً مجيداً، إذا لم يكن كذلك. الخندق قد يصنع بطولة .. ولكنْ، ليس من المحتّم، أو من الضّروريّ أن يصنع شِعْراً. وفي مجموعة "قصائد منقوشة على مسلّة الأشرفية" الكبيرة، كثير من الشّاعريَّة، وكثير من الصِّدْق والحرارة والالتحام بين القصيدة والبندقية، ولكنْ، ليس فيها الكثير من الشِّعْر، لأن طبيعة التجربة ذاتها، بقَدْر ما تُغنِي، تثير تساؤلاتٍ فنّيّةً متحفِّظةً حول مفهوم

شِعْر الثورة، ففي كثير من القصائد عودة إلى هجائيات إبراهيم طوقان - مثلاً - وأناشيد ثورة عام 1936 الفلسطينية، دون أن تمرَّ في بوتقة الفنِّ.

الأولوية هنا - وفي أغلب قصائد المجموعة - مكرّسة لخدمة الواجب والقضية، ممَّا يدفعنا إلى طَرْح هذا السؤال: هل أعطت هذه التجربة الجديدة في الممارسة الثَّوريَّة تجربة جديدة في التعبير الشِّعْريِّ؟

إن المجموعة بكاملها محاولة لإيجاد هذا التطابق أو الانسجام، ولكن القارئ يجد صعوبة في الاطمئنان إلى الإجابة السريعة الإيجابية.

ثمَّةَ مقاطع رائعة في قصائد خالد أبو خالد، ومي صايغ، وعامِّيَّات أبو الصادق .. ولعلَّ الشاعر الشَّابَّ أحمد دحبور هو أكثر الجهود الشِّعْريَّة الفلسطينية اقتراباً من ينبوع الفنِّ والثورة، وهو الإجابة المُطْمْئِنَة عن السؤال المطروح.

إن الأصالة والحداثة تفيضان منه كالأفراح الغامضة. فهو يعي التراث الفلسطيني، ويهضم الأشكال الشِّعْريَّة الجديدة، ويتمتَّع بشاعريَّة مرهفة.. قصيدته ليست صرخة، وليست بكائية، ليست تنويعات أو تقاسيم كما عهدْنا في الشِّعْر الفلسطيني عامَّة .. إنها قصيدة غنائية ومركَّبة معاً:

على جذعها خلَّفُوني وراحُوا
وفيما نمتُ، كنتُ أكبرُ عبرَ الغصون
ورائحتي: حُبُّنا والجراح
تصاعدَ منها .. وتشهدُ هذا الرياح ..
وعندي الكلامُ المباح
فمن غَبشِ الساعةِ الرابعة
أرى وطناً يتدحرجُ في خوذةٍ واسعة
أرى فرحاً واعداً ستباح
(من نخلة عمان)

وطني ..
يا أرضاً تُبتَرُ في ليلِ الخدعة
وتُوزِّعها في الصبحِ وكالاتُ الأنباء
لنُسلِّمْ بالقطعة
يا عيناً آهلةً بالأحلامِ السوداء
أن أخرجَ منكَ، فكالدمعة
ماءً .. أو إيذاناً بالماء ..
عيني، يا عيني، يا وطني
أتحاملُ، هذا الفجرُ، على جرحي .. وأجيء
أحرقتُ ورائي ما وهبتْهُ بحارُ التيهِ من السفن
وقصدتُكَ أندهُ في الطُّرُقات:
باسمِ الفقراءِ التَّوَّاقين، تحرَّكْ، يا وطني
فأنا المطعونُ بكلِّ حرابِ الأهلِ على كلِّ الساحات
وأنا المتناثرُ لحمي بين الأسنانِ المنثورةِ في المُدُن
أنكمشَ بالفرحِ الآتي .. وأُضيء
يتلَمْلَمُ جرحي بالفقراءِ، ويأمرني، فأضيء
وأُحارِبُ حتَّى تصبحَ يا وطني .. وطني.
هذه هي القضيةُ: أحارِبُ حتَّى تصبحَ يا وطني .. وطني!

ولعلّ أحمد دحبور، أيضاً، هو الجواب عن السؤال الذي طرحناه في البداية: إلى أين وَصلَ الشِّعْر الفلسطيني؟ فمنذُ مدَّة لم تُعط حركة هذا الشِّعْر مذاقاً أو لوناً جديداً .. إن الوعد بهذا المذاق تحمله أغاني دحبور الجديدة ... هذا الشاعر هو المرشَّح بأن يضيف إلى الشِّعْر الفلسطيني شيئاً .. أيّ شيء، فهو يجمع جمال الطبيعة .. والمأساة .. والخندق .. وهو لا يركب الموجة العابرة، ولكنه يسكن البركان!

الأهرام 12 / 7 /-1972

(7)
أزرق أزرق

(هذه السطور كَتَبْتُها قبل حرب تشرين أكتوبر بعامَيْن ونصف عندما زرتُ مدينة بور توفيق برفقة الجنود المصريِّيْن الذين كانوا ينتظرون اندلاع العاصفة الثَّأريَّة بصبر أسطوري، أُسجّلها الآن، وأُقبّل الأيدي التي صافحتُها. فأعطتني مجداً لا أستحقُّه).

رأيتُ مياهاً كثيرة في حياتي، ولكنني لم أرَ ماء في مثل هذه الزُّرْقَة الداكنة، رمالاً كثيرة فسيحة، ولكنني لم أشاهد رملاً ممتلئاً بالوضوح والغموض معاً، مثل رمال الشرسة، وعشتُ أماسي كثيرة تحاذي المجهول، ولكنني ما عشتُ مثل هذا المساء الذي يتناوب علاقة عجيبة مع المجهول.

ورأيتُ جنوداً كثير، ولكنني ما رأيتُ - قبل الآن، كيف تقف عيون التاريخ على أصابع هؤلاء الجنود.

وعرفتُ الصبر والقَهْر والغيظ، ولكنني أقرأ الآن، ولأوَّل مرّة، صَدرَ البركان المتأهِّب للانفجار. وتعرَّفتُ على أنواع كثيرة من الصمت، ولكني لم أرَ صمتاً أكثر حكمة وقسوة من هذا الصمت الرابض، كالأعجوبة على قناة السويس.

نحن نثرثر في كلِّ مكان، ابتداء من غرفة النوم حتّى المذياع، ونكتشف في أنفسنا مواهب مفاجِئة في فنّ الحرب والعذاب والبسالة، ولكن الحقيقة الوحيدة تبقى هناك على ضفاف قناة السويس.

وموقفنا من هذه الحقيقة الدامية هو وحده الذي يمنحنا حقّ الكلام عن الوطنية والقومية والاشتراكية وغيرها من القِيَم التي أوقفتْها التّطوّرات المفجعة على مفترق طُرُق خطيرة، على ضفاف قناة السويس، ذلك لا يعني أن قِيَمَنا أُصيبت بالشَّلَل أو يجب أن تُصاب بالشَّلَل إلى حين الخروج من مفترق الطُّرُق هناك، ولكنْ، يعني أن العلاقة بينهما صارت أعمق وأخطر ممّا يتصوَّر البعض. وأن التّأثير المتبادل بينهما يترك آثاراً، قد تتشابه في العمق والمدى: لن نتمكّن من التّقدُّم بقِيَمِنا نحو التنفيذ الجادّ، ما دمنا عاجزين عن التّحرُّك هناك، ولن نتمكّن من التّحرُّك هناك، ما دمنا عاجزين عن التّقدُّم بقِيَمِنا.

والحرب هناك لا تُكتَب بالحبر والمزاج، إنها لغة الموت الحقيقية، وهي ليست قصفاً إذاعياً، يعقبه نشيد الختام السَّلبيّ. إنها الصمت الفاعل الذي يعقبه انفجار البارود واللحم البشري، إنها مهارة الموت الذي يردُّ إلى التاريخ نُكتَتَهُ الممجوجة التي أطلقها ذات يوم عندما كان شغوفاً بالمزاج.

إن زُرْقَةَ السويس تشطرني شطرَيْن.

مجلّة الهلال، عدد أكتوبر، تشرين 1976

صور

محمود درويش وسط القاهرة

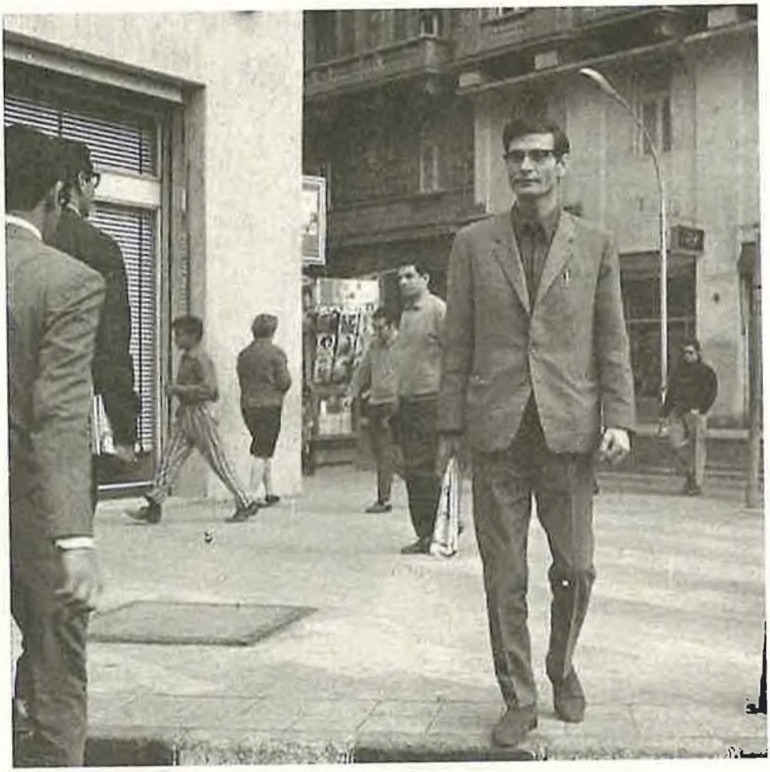

محمود درويش يصعد السلم المؤدي لمسجد السلطان حسن / بالقاهرة

محمود درويش وسط القاهرة

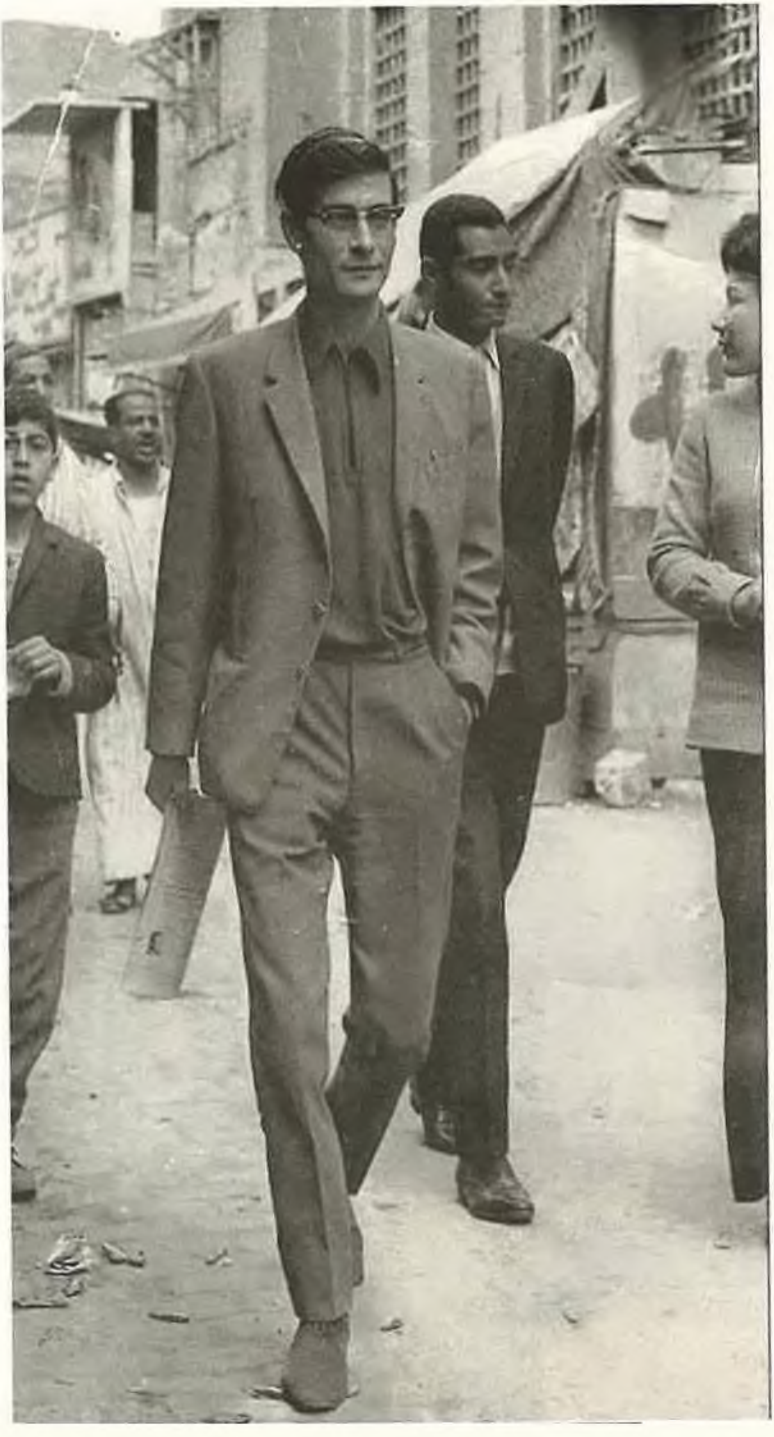

محمود درويش وسط القاهرة

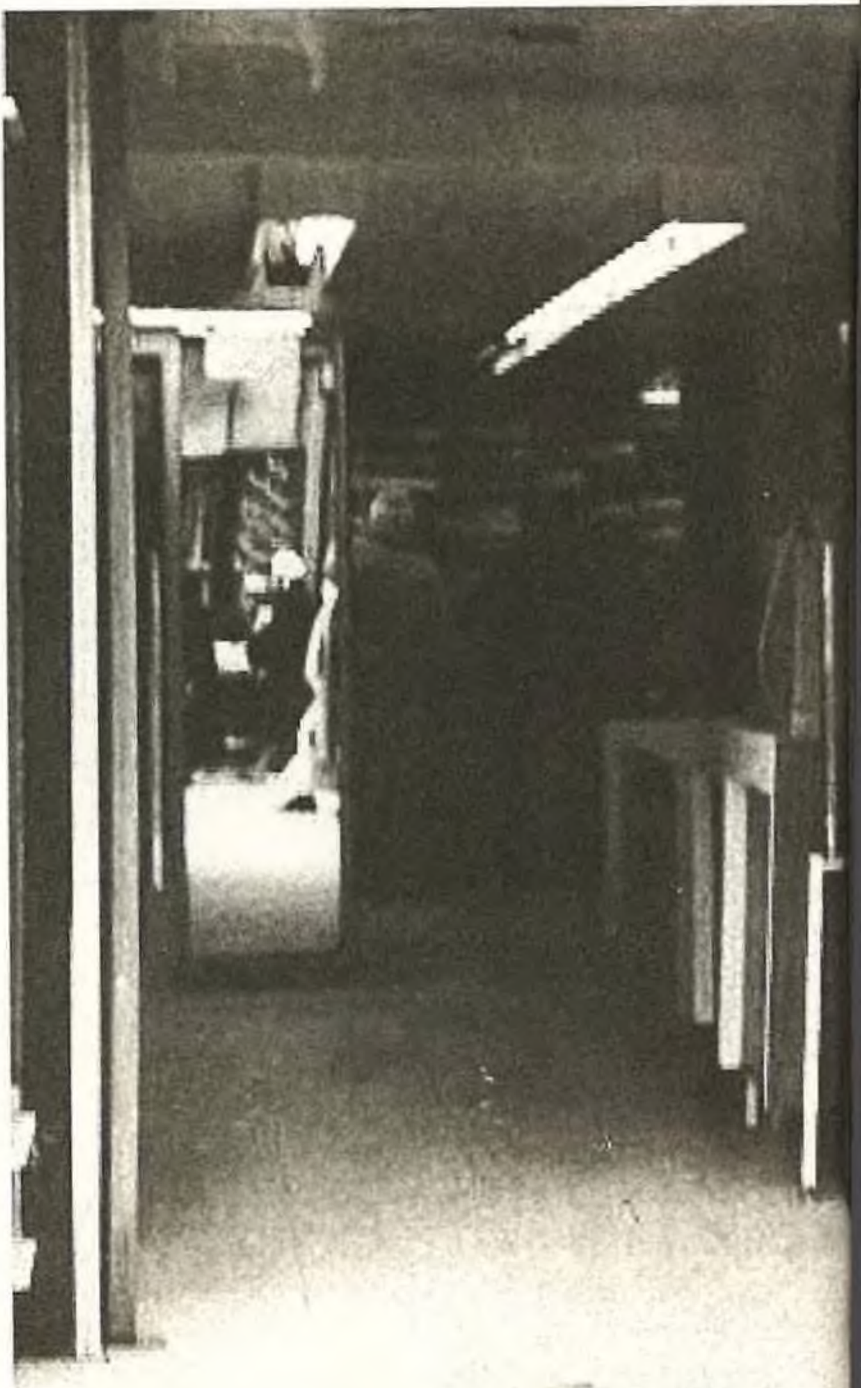

محمود درويش وسط القاهرة

محمود درويش من غرفته في شيراتون

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكُتُبُ

- أحمد بهاء الدِّيْن، مقالات لها تاريخ، جَمَعَهَا وقدَّمَهَا رشاد كامل، مؤسَّسة روز اليوسف، القاهرة، 2016.
- أحمد بهاء الدِّيْن، محاوراتي مع السادات، مؤسَّسة دار الهلال،1987.
- أحمد بهاء الدِّيْن، باقة حُبٍّ، أبحاث مؤتمر، هيئة قصورالثقافة، 1995.
- أحمد صلاح الملاَّ (دكتور)، اليسار المصري بين عبد الناصر والسادات، (مجلَّة الطليعة 1965 :1977)، دار الكُتُب والوثائق المصرية، سلسلة مصر النهضة، 2014.
- أحمد عبد الله (دكتور) الطَّلَبَة والسياسة في مصر، ترجمة إكرام يوسف، دار سينا للنَّشْر، القاهرة، طبعة أولى، 1991.
- أنور عبد اللطيف: هيكل الوصية الأخيرة، دار بتانة، القاهرة، 2016.
- خالد منصور، (محرِّر) كتاب: تشريح الهزيمة، حرب يونيو 1967، بعد خمسين عاماً، القاهرة، دار المرايا، الطبعة الأولى2017 .
- رجاء النَّقَّاش، محمود درويش، شاعر الأراضي المحتلَّة، دار الهلال 1969.

- شربل داغر، (دكتور) محمود درويش يتذكَّر في أوراقي، (أكتب لأنني سأعيش)، مؤسَّسة سلطان العويس، دبي، 2019.
- صبري جريس، العرب في إسرائيل، سلسلة دراسات فلسطينية، مُنظَّمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، نوفمبر 1967.
- عبد الله السناوي: أحاديث برقاش، هيكل بلا حواجز، دار الشروق، طبعة 2017.
- عبده وازن، الغريب يقع على نفسه، رياض الرَّيِّس، بيروت، 2009.
- عزمي عبد الوهاب، كتاب "وجوه تطلُّ من مرايا الروح"، بتانة، القاهرة، 2018.
- غالي شكري (دكتور) : من الأرشيف السِّرِّيِّ للثقافة المصرية، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2015، ص89 .
- غالي شكري (دكتور): الثورة المضادّة في مصر، طبعة الهيئة العامَّة للكتاب، القاهرة، 1997.
- مازن النقيب، حوار مع هؤلاء، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، بدون تاريخ.
- محمَّد حسنين هيكل، زيارة جديدة للتاريخ، طبعة دار الشروق الأولى، 2003 .
- محمَّد حسن مصطفى: كابتن غزالي شاعر المقاومة وذاكرة الوطن، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، سلسلة إصدارات خاصَّة.
- محمود درويش، حَاصِرْ حصارَك، إعداد وتقديم محمَّد شاهين (الدكتور)، المؤسَّسة العربية للدراسات والنَّشْر، عمَّان، الطبعة الأولى 2019.

- محمود درويش وسميح القاسم: الرسائل، طبعة دار العودة، بيروت، طبعة 1990.
- محمود درويش، ذاكرة للنسيان، طبعة دار الثقافة الجديدة، القاهرة، سلسلة الأدب الفلسطيني، بالتعاون مع مُنظَّمة التحرير الفلسطينية، 1989.
- محمود درويش، الأعمال الشِّعْريّة الكاملة، الأهلية للنَّشْر والتوزيع، عمَّان، 2014.
- مراد غالب، مذكِّرات (مع عبد الناصر والسادات، سنوات الانتصار وأيّام المِحَن)، مركز الأهرام للنَّشْر والترجمة، القاهرة. مقدِّمة، عاطف الغمري، 2001.
- ليانة بدر: تغريدة الشاعر، أثر المكان على الهُوِيَّة في أعمال محمود درويش، رام الله، دار الناشر، 2018.
- ميشيل سعادة، محمود درويش، عَصِيّ على النسيان، رياض الرَّيِّس، بيروت 2009.

ثانياً: الدَّوريَّات

- صُحُف يومية: (الأهرام، المصري اليوم، القدس العربي (لندن)، الشرق الأوسط، الرأي العامّ (الكويت).
- - صُحُف أسبوعية: (العربي النّاصريّ، ناطقة باسم الحزب العربي النّاصريّ، مصر).
- صُحُف إلكترونية: اليوم السابع (مصر)، المُدُن (لبنان)، (دنيا الوطن) موقع (براقش).

- المجلّات (الأهرام العربي) أسبوعية. (مصر) (المصوَّر) أسبوعية، الكواكب (أسبوعية) روز اليوسف (أسبوعية). الحوادث (لبنان).
- مجلّات أدبية شهرية (الهلال، مصر) نزوى (سلطنة عُمان)، الدوحة (قطر)، مجلَّة سنابل (مصر).

مقابلات

- الكاتبة مُنى أنيس بمنزلها، وسط القاهرة (يوليو 2018).
- المناضل الفلسطيني فيصل حوراني بمنزل ابنته بالقاهرة (2018).

اتِّصالات هاتفيَّة

- الكاتبة صافي ناز كاظم، الصّحَافي نبيل درويش، السِّياسيّ الفلسطيني مروان كنفاني، السَّيِّد محمّد فايق، وزير الإعلام الأسبق في مصر، مُنى عبد الملك خليل، الدكتور عصمت النمر (جامع تراث موسيقي).
- رسالة عبر برنامج ماسنجر (فيس بوك) من المترجم السوري فاروق مردم بك.

فهرس

"لا تكتبِ التاريخَ شعْراً" 9
الخروج 17
ماذا جرى في صوفيا؟ 29
عمليات التبشير 34
حنحارب 43
في موسكو .. "لا شيء إلّا الضوء" 49
مع الرجل ذي الظِّلّ الأخضر 53
الأب الرُّوحيّ 60
هنا القاهرة 71
الوصول في الوقت الخطأ 78
في أسوان قبل القاهرة 83
عقاب الشاعر 89
من "صوت العرب" إلى "صوت نجاة" 113
في " الأهرام" بصحبة الخالدين 120
حكاية أخيرة عن العزلة 139
نداء بيروت 142

النيل ليس النيل 144

بطاقة المغادرة 149

القاهرة الحاضنة الشعْريّة 154

ملفُّ الوثائق 161

أيّام بلا تاريخ! (أحمد بهاء الدِّيْن) 167

القدِّيس المقاتل (صلاح عبد الصبور) 170

مقال: موسكو بعد 15 سنة (أحمد بهاء الدِّيْن) 176

غيَّرتُ موقعي ولم أُغيِّر موقفي (حوار مع معين بسيسو) 182

رسالة إلى محمود درويش (سميح القاسم) 187

أنت تعلم، يا صديقي (أحمد عبد المعطي حجازي)............ 190

محمود درويش لم يرحلْ (مقال إميل حبيبي) 193

في دار الهلال 199

هل تسمحون لي بالزواج؟ 201

في الأهرام حول الصراع العربي الإسرائيلي 211

1) غزَّة كلّ يوم 213

2) صورة إسرائيلية بالأبيض والأسود 216

3) الثالوث الذي يشكِّل ملامح الشّخصيَّة اليهودية............. 224

4) معنى القلق في الأدب الإسرائيلي بعد حرب يونيو 238

5) ظاهرة تثير القلق! 258

6) تنويعات على سورة القدس..................................... 266

7) شباب عربي وإسرائيلي في قفص اتِّهام واحد................ 272

في الأهرام حول الأدب 279

1) على هامش مؤتمر الأدباء في دمشق.................. 281
2) عزف منفرد فوق القانون........................... 287
3) وضاع الشِّعْر في البصرة 292
4) نحن نستمع .. ولا نقرأ!............................ 297
5) الشِّعْر يعلن حضوره 303
6) حتَّى تصبح يا وطني .. وطني......................... 309
7) أزرق أزرق... 316

صور 319

قائمة المصادر والمراجع.............................. 329

من الكتاب:

... «وهكذا تجنَّبَ درويش (الفضاءات الثَّقافيَّة الشَّعبويَّة) ليتفادى بعض الاحتكاكات مع المثقَّفين الذين لم يقبلوا برعاية الدولة لـ (موهبته)، لكنه، في المطلق، لم يحرم نفسه من بناء صداقات مع بعض وجوه الحركة الطُّلَّابيَّة والشباب المبدعين الذين كانوا بمثل عُمُره، إلَّا أنه تعرَّض كذلك لبعض ردود الأفعال التي تكشف عن توتُّرات تلك السنوات، فقد كان نجيب سرور يهتف كلَّما رآه «إحنا كمان شعراء الأرض المحتلَّة، عايزين نسكن في شبرد».

كما راجت أُغنيَّة للثُّنائيِّ الشهير أحمد فؤاد نجم، والشيخ إمام، في أوساط المثقَّفين، يزعم البعض أنها كانت تسخر من محمود درويش مباشرة، ومن الإمعان في تدليله.» ...

منشورات المتوسط

لم تتوقَّفْ نشوةُ الشَّاعر لفترةٍ طويلةٍ، وَوَجدَ نفسَهُ أكثرَ من مرَّةٍ محاطاً بِظِلالِ البطلِ الرُّومانسيِّ المتورِّطِ في مَشاهدَ واقعيَّةٍ جدّاً، ضَاعفَتْ من مسؤوليَّتِهِ تجاهَ القضيَّةِ، وتجاهَ القاهرةِ «الجريحة» من مرارِ الهزيمةِ، وبالدَّلالِ الذي أفرطتْ في إظهارِهِ، أرادتْ أن تُذكِّرَهُ كلَّ يومٍ بدورِهِ المُنتَظَر.

وبخلاف ما هو سياسي، يُبرز هذا الكتابُ الطريقةَ التي كان يتشكَّل بها الشِّعْر والنَّثْر عند محمود درويش، عبر إبراز النَّماذج الأولى من كتابات الشاعر النَّثريَّة التي تطوَّرت بعد ذلك، ودفعت نُقَّاداً لتناوُل ما يُسمَّى بشِعْريَّة «النَّثْر» عنده.

تُتيح مقالاتُه الأدبية التي تُنشر للمرَّة الأولى هنا، فرصةَ التَّعرُّف على مجمل تصوُّرات درويش الفنِّيَّة خلال الفترة التي قضاها في القاهرة، حيث طوَّر فيها فكرته الشهيرة عن ضرورة تفادي الحُبِّ القاتل، كما تُظهر نفوره من اختزال تجربته في الشِّعْر النِّضاليِّ، وتُبرز تصوُّراته عن سلبيات وإيجابيات المهرجانات الشِّعْريَّة، التي تنامت بغرض تأكيد الدَّور المُقاوم للشِّعْر، كما وتُظهر مُعظم المقالات سخريته المريرة من حال الشِّعْر في العالم العربي.

المتوسط

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/